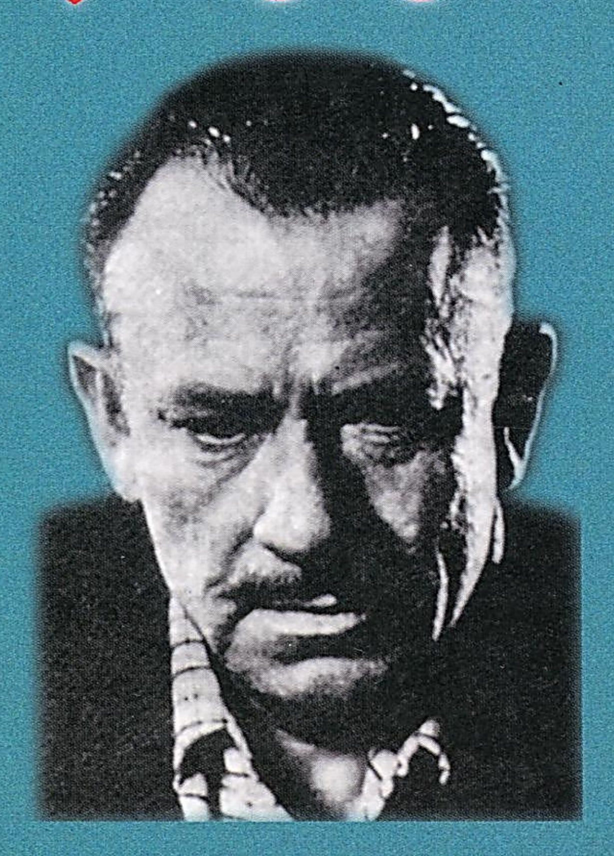
١٩٦٢

مكتبة نوبل

جون شتاينبك

كأس من ذهب



ترجمة:
سليم عبد الأمير حمدان

كأس من ذهب



مكتبة نوبل

اسم المؤلف : جون شتاينبك
عنوان الكتاب : كأس من ذهب
ترجمة : سليم عبد الاميرحمدان
الناشر : المدى
الطبعة الاولى : سنة ٢٠٠٣

Author: John Steinbeck
Title : Cup of Gold
Translator :Seliem A. Hamdan
Al- Mada P.C.
First Edition :year 2003

دار المدى للثقافة والنشر

سورية - دمشق ص. ب.: ٨٢٧٢ او٧٣٦٦ -تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ -٢٣٢٢٢٧٦-فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria
P.O.Box . : 8272 or 7366 .-Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289
E-mail:al-madahouse@net.sy

بيروت-الحمراء-شارع ليون -بناية منصور-الطابق الأول - تلفاكس: ٧٥٢٦١٦-٧٥٢٦١٧
E-mail:al-madahouse@idm.net.lb

١٩٦٢

مكتبة نوبل

جون شتاينبك

كأس من ذهب

ترجمة

سليم حمدان





الفصل الأول



-١-

طوال العصر عبرت الريح من منخل الوديان الويلزية الصغيرة السوداء، صارخةً بالإعلان أن الشتاء جاء ينزلق فوق العالم من القطب؛ وباتجاه النهر كان ثمة الأنين الخابي للجليد الجديد. كان يوماً حزيناً، يوماً من عدم الارتياح الرمادي، من عدم الرضا. بدا الهواء المتحرك بعذوبة وكأنه يحتفل بفقدان شيء مرح له مرثاة ناعمة، رقيقة. ولكن في المراعي كانت خيول عمل ضخمة تدقّ بحوافرها بعصبية، وعبر الريف كله كانت طيور بنية صغيرة، في أسراب من أربعة أو خمسة، تطير مسقسقةً من شجرةٍ إلى شجرةٍ وتعود إلى ذلك مرةً أخرى، باحثةً وداعيةً المدد في حركتها نحو الجنوب. وتسلقت عنزات قليلات إلى ذرى صخور عالية منفردة وحدقت طويلاً إلى أعلى بعيونها الصفراء وتشمّمت السماوات.

مرّ العصر ببطءٍ، كالموكب مع نهاية لأمسية، وفي أعقاب الأمسية انطلقت ريح منفعلة، مخشخشة في الحشائش الجافة وطارت ناشجةً عبر الحقول. هبط الليل مثل قلنسوة سوداء، وأرسل (الشتاء المقدس) سفيرَه البابوي إلى ويلز.

إلى جانب الطريق الخارجي الذي كان يحدّ الوادي، ويمتد عبر فلع في التلال، وهكذا خارجاً إلى العالم، كان يقف بيت زراعي عتيق مبني

من الصخور الثقيلة ومكسو سقفه بالقش. إن ذاك العضو في عائلة مورغان الذي بناه قد لعب ضد الزمن وكاد أن ينتصر.

داخل البيت كانت نار تشتعل فوق الموقد، ويتدلى إبريق ماء فوق الشعلة، ويختبئ فرن حديد أسود بين الجمر الذي كان تساقط حول حواف الشعلة. كان ضوء النار المنشط يتلألأ على ذؤابات الرماح طويلة المقابض في الرفوف على الجدران، أسلحة لم تستعمل خلال المئة سنة منذ أن كان مورغان يصخب صفوف (غليندورز)[1] ويرتجف في غضب على السطور الصوانية لـ (إيولوغوش)[2].

كانت الحواشي البرونزية العريضة لخزان ضخم، يقوم في زاوية، تمتص الضياء وتشعّ بألقٍ. أوراق كانت في الخزان، ومخطوطات رَقّ، وجلود متصلبة غير مدبوغة، مكتوبة بالإنجليزية واللاتينية واللسان القُمري[3] القديم: ولد مورغان، تزوج مورغان، رُسم مورغان فارساً، شُنق مورغان. هنا يستقر تاريخ البيت، المخزي والمجيد. ولكن العائلة كانت قليلة التعداد الآن، وطفيف جداً هو احتمال أن تضيف قيوداً إلى السجل ما عدا التاريخ البسيط: مورغان ولد - ومات.

كان ثمة روبرت العجوز، مثلاً، يجلس في مقعده عالي الظهر، يجلس ويبتسم في النار. كانت بسمته حيرةً وتحدياً غريباً، مستسلمة. كان يمكن أن تقول إنه كان يسعى إلى أن يجعل ذلك المصير الذي كان مسؤولاً عن وجوده، يخجل من ذاته قليلاً بالابتسام عليه. كان يتأمل، بضجر، غالباً وجوده المحوط بهزائم صغيرة تحبطه كما يعذّب صبيان الشوارع كسيحاً. كان غريباً بالنسبة لروبرت العجوز ألا يكون، هو الذي يعرف هذا القدر أكثر من جيرانه، الذي كان يتأمل بلا انتهاء إلى هذا

الحد، حتى مزارعاً جيداً. يتصور في بعض الأحيان أنه يفهم أموراً أكثر بكثير من أن يتمكن من القيام بأي شيء على نحو جيد.

وهكذا كان روبرت يرتشف المزر[٤] المحروق، نتاج تجريبه الخاص، ويبتسم في النار. كانت زوجته ستهمس الأعذار عنه، إنه يعرف، والعمال في الحقول يرفعون قبعاتهم لمورغان، لا لروبرت.

حتى أمه المسنة، غوينليانا[٥]، هنا إلى جانبه، المرتعشة أمام النار كما لو أن مجرد تصويت الريح حول المنزل كان يناديها في البرد، لم يكن يحكم عليها بالعجز هكذا. في الأكواخ كان ثمة خوف قليل منها واحترام كبير. في أي يوم عندما كانت تجلس في الحديقة، عاقدة مجلس استحضار الأرواح خاصتها، كان يمكنك أن ترى صبي مزرعة طويلاً يحمر خجلاً ويحتضن قبعته على صدره فيما هو يصغي إلى سحر غوينليانا. إنها تمارس، منذ سنوات، البصر الثاني وتفخر به. ومع أن العائلة كانت تعرف أن نبوءاتها مجرد تخمينات تتضاءل حدة قسوتها مع تقدم سنيها، إلا أنهم كانوا يستمعون إليها باحترام، ويتظاهرون بالرعب، ويسألونها عن مواضع الأشياء المفقودة. وعندما لم يعثروا، بعد إحدى قراءاتها الغامضة، على المقص تحت اللوح الثاني من أرضية السقيفة، تظاهروا - مع ذلك - بأنهم وجدوه هناك، لأنها لو فقدت رداء الكهانة، ما كان ليبقى إلا عجوز متغضنة سرعان ما تموت.

إن تمثيلية المصفقين المستأجرين على السذّج هذه كانت ضريبة قاسية على قناعات الأم مورغان. كان يغيظ طبيعتها، لأنها كانت امرأة جاءت إلى الدنيا، كما هو واضح، لتكون سوطاً على كل الحماقات. إن أموراً ليس لها ارتباط، كما هو واضح جداً، سواء بالكنيسة أو بأسعار الأشياء هي، ببساطة، هراء.

لقد أحب روبرت الشيخ زوجته جيداً جداً ولوقت طويل جداً بحيث كان بمقدوره أن يفكر في أمور حادة عنها، وما كان يمكن للأفكار أن تضر بما بعد ظهيرته. عندما عادت إلى البيت عصر اليوم، معلنة عن غضبها على سعر زوج حذاء لم تكن تريده على أية حال، كان قد فكر: «إن حياتها مثل كتاب مزدحم بأحداث كبرى. إنها ترتفع في كل يوم إلى قمة ذروة هائلة ما تتعلق بالأزرار أو بعرس أحد الجيران. أظن أن المأساة الحقيقية عندما ستقع عليها فهي لن تراها على مداها من تلال النمل. فكر: «ربما كان هذا هو الحظ». ثم «إنني أتساءل الآن كيف ستميز بين موت الملك ذاته وفقدان واحد من الخنزيرات الحمراوات».

كانت الأم مورغان مشغولة باليوم ذاته أكثر مما يسمح لها بالاهتمام بسخافة التجريدات. لابد لواحد من العائلة أن يكون عملياً وإلا فإن سقف القش سينفجر - وماذا يمكنك أن تتوقع من قطيع من الحالمين من أمثال روبرت وغوينليانا وابنها هنري؟ كانت تعشق زوجها بخليط غريب من الشفقة والاحتقار المتولّدين من إخفاقاته ومن طيبته.

وهنري الفتى، ابنها، كانت تعبده، مع أنها بالطبع لم تكن تثق بأنه يمتلك أدنى فكرة عما هو لصالحه أو ما هو مؤذٍ لصحته. وكانت العائلة كلها تحب الأم مورغان وتخشاها وتقع في طريقها.

كانت قد أطعمتهم ورتبت فتيلة السراج. كان الإفطار على النار. وهي الآن تبحث عن شيء تصلحه، كما لو أنها لم تصلح كل شيء في اللحظة التي تمزق فيها. في وسط بحثها عن انشغال، توقفت ونظرت بحدة إلى هنري الصغير. كانت من ذلك النوع من النظرات الحادة المحبة التي تقول: «إنني أتساءل، الآن، ما إذا لم يكن على وشك أن يصاب

بالبرد هناك على الأرض». وارتبك هنري، متسائلاً ما الأمور التي أهمل القيام بها عصر ذلك اليوم. ولكنها أمسكت على الفور بقطعة قماش ومضت تنفض، فاطمأن الغلام.

كان متمدداً مستنداً إلى أحد مرفقيه ويحدق عبر النار إلى أفكاره. إن العصر الرمادي الطويل، وهو يخترق طريقه إلى هذه الليلة الغامضة، قد استدعى اشتياقات قوية في داخله، كانت بذورها قد زرعت قبل شهور. كانت رغبة في شيء لم يكن بمقدوره أن يسمّيه. ربما كانت تحركه القوة نفسها التي كانت تجمع الطيور في جماعات مستكشفة وتجعل الحيوانات تتشمم بعصبية في الريح بحثاً عن رائحة الشتاء.

كان هنري الصغير واعياً، الليلة، أنه قد واصل الحياة خمس عشرة سنة مملة دون تحقيق أي شيء واحد ذي أهمية. ولو أن أمه عرفت إحساسه لكانت قالت: «إنه يكبر».

وكان والده سيكرّر بعدها:

«نعم، إن الفتى يكبر». ولكن ما كان أحدهما ليفهم ما كان يقصده الآخر.

لقد أخذ هنري وجهه، لو أنك تأملته، من أبويه بالتساوي. كان عظما وجنتيه عاليين صلبين، ولكن حنكه كان محكماً، وكانت شفته العليا قصيرة وخفيفة مثل شفة أمه. وكانت هناك أيضاً، الشفة السفلى، والأنف البديع، والعينان اللتان تتطلعان إلى الأحلام، هذه كانت ملامح روبرت الشيخ، وكان الشعر، الكث السلكي الملتف مثل نوابض سوداء على الرأس، شعره. ولكن، مع أنه كان ثمة انعدام حسم في وجه روبرت، فقد كان ثمة قدر عظيم من الحسم في وجه هنري لو أنه تمكن فقط أن

يجد شيئاً ينبغي أن يتخذ قراراً بشأنه. هنا كان ثلاثة أمام النار، روبرت وغوينليانا وهنري الصغير، الذي كانت عيناه تنظران وراء الجدران وتريان أشياء بلا أجساد - تنظران إلى الليل بحثاً عن الأشباح.

كانت ليلة خارقة للطبيعة، وقتاً يمكن أن يلاقي فيه المرء شموع جثة تتسلل على طول الطريق، أو يصادف شبح كتيبة رومانية تتقدم بالخطو السريع للوصول إلى مدينة مأواها (كايرليون)(٦) قبل أن تنفجر العاصفة كاملة. وستكون كائنات التلال الشوهاء الصغيرة تبحث في جحور الغُرَيرْ المهجورة كي تحميها من الليل. ستمضي الريح تعول وراءها عبر الحقول.

داخل المنزل كان هادئاً ما عدا أصوات النار المطقطقة والصوت المهسهس لقش السطح المنفوخ. تحطم زند خشب على الموقد، وتقافز من الشق لهيب رفيع تلوى حول الإبريق الأسود مثل زهرة من نار. الآن هبت الأم إلى الموقد.

«روبرت، إنك لم تنتبه إلى النار. يجب أن تحركها بين وقت وآخر».

هكذا كانت طريقتها. حركت ناراً واسعة لتجعلها أصغر، ثم - عندما كانت تتلاشى - كانت تحرك الجذوات بعنف لتستعيد اللهب.

جاء صوت وقع أقدام ضعيف على امتداد الطريق الخارجي - صوت ربما كان للريح أو لتلك الأشياء الماشية التي لا يمكن أن تُرى. ارتفع وقع الخطوات، ثم توقفت أمام الباب من حيث جاء قرع متردد.

«تعال!»، نادى روبرت. انفتح الباب بهدوء، وهناك كان يقف - مضاء مقابل الليل الأسود - رجل محني ضعيف عيناه مثل شعلتين ضعيفتين. توقف على المدخل كما لو يكن قرر شيئاً، ولكنه تقدم خلال لحظة داخل الغرفة، سائلاً بصوت غريب صارٍ:

«أتساءل، إن كنت تعرفني، يا روبرت مورغان؟ أتعرفني، أنا الذي كنت في الخارج أمداً طويلاً؟». كانت كلماته التماساً.

بحث روبرت في الوجه المكرمش.

«أعرفك؟»، قال. «لا أظن - انتظر! - أيمكن أن يكون دافيد[٧]؟ صبي مزرعتنا الصغير دافيد الذي غادر إلى البحار قبل سنوات عديدة؟»

حلّت نظرة ارتياح تام في وجه المسافر. ربما كان يجري اختباراً حساساً مخيفاً ما على روبرت مورغان. وضحك بصوت خافت الآن.

«هو دافيد، مؤكد، وغني - وبارد»، أنهى كلامه بحزن مثل ألم عائد.

كان دافيد أبيض - رمادياً ومتصلباً مثل جلد خام جاف. كان جلد وجهه متيبساً وسميكاً بحيث كان يبدو وكأنه يبدل تعابيره بجهد بطيء واع.

«إنني بارد، يا روبرت»، مضى صوته الجاف. «لايبدو بمقدوري أن أدفأ ثانية. ولكنني على أية حال غني» - كما لو كان يرجو أن يتعادل هذان الأمران - «غني إلى جانبه، الذي يدعونه پيير لا غراند»[٨].

كان هنري الصغير قد نهض، وصرخ الآن:

«إلى أين وصلت، يا رجل - أين؟»

«أين؟ حسناً، لقد وصلت إلى جزر الهند الغربية، هذا ما وصلت إليه، إلى (غوفس)[٩] وإلى (تورتوگا)[١٠] - ذاك هو القمري - وإلى جامايكا وغابات هسپانيولا الكثيفة من أجل صيد المواشي. كنت في كل مكان هناك».

«عليك أن تجلس، يا دافيد». قاطعته الأم مورغان. تكلمت وكأنه

لم يكن قد سافر بعيداً قط. «أنا سوف أحضر شيئاً دافئاً للشرب. أترى كيف يلتهمك هنري بعينيه، يا دافيد؟ كأن هو لا يريد الذهاب إلى جزر الهند نفسه، أيضاً». كانت الكلمات، بالنسبة لها، بلاهة مسرورة.

لزم دافيد الصمت، مع أنه كان يبدو كابحاً رغبة في الكلام. أفزعته الأم مورغان كما فعلت حين كان صبي مزرعة ناعم الشعر أبيضه، عرف روبرت العجوز بارتباكه، وبدت الأم، أيضاً، وكأنها أحست به لأنها، عندما وضعت كوبا يتصاعد منه البخار في يديه، غادرت الغرفة.

كانت غوينليانا المغضنة العجوز في مقعدها أمام النار، وذهنها ضائع في المستقبل السابح. كانت عيناها الغائمتان مقنّعتين بالغد. وراء سطحيهما الأزرقين الخابيين كانت أحداث وظروف العالم المتصاعدة تبدو وكأنها تزدحم. كانت قد رحلت إلى خارج الغرفة - سافرت إلى الزمن الخالص، وذاك هو المستقبل.

راقب روبرت العجوز الباب ينغلق وراء زوجته، ثم استقر باستدارات كما يستقر كلب.

«الآن، يا دافيد»، قال، وحدق مبتسماً إلى النار، في حين راح هنري، الراكع على الأرض، يتفرّس برهبة في هذا الدنيوي الذي كان يمسك بالمسافات نفسها في راحة يده.

«حسناً، يا روبرت - عن الغابة الخضراء أردت أن أخبر والهنود السمر العائشين فيها، وعنه الذي يسمونه بيير لاغراند. ولكن، يا روبرت، ثمة شيء خرج مني مثل ضوء ملتف صغير. كنت عادة أتمدد على عرشات السفن ليلاً وأفكر وأفكر كيف سأتحدث وأفاخر عندما أعود فقط إلى موطني ثانية - ولكن مثل طفل، أنا، يعود إلى البيت

كي يبكي. أيمكنك أن تفهم هذا، يا روبرت؟ أيمكنك أن تفهم هذا قط؟»
كان يميل إلى أمام متلهفاً.

«سأخبرك. ركبنا السفينة الطويلة المسطحة التي يسمونها الغليون، وليس معنا غير المسدسات والسكاكين الطوال التي يستعملونها لشق الطرق في الغابة. أربعةً وعشرين كنا - أربعة وعشرين فقط وليس علينا غير الخرق - ولكن، يا روبرت، فعلنا أشياء مروعة بهذه السكاكين الطويلة إياها. ليس حسناً أن يفعل رجل كان صبي مزرعة أشياء كهذه ثم يفكر فيها. كان هناك قبطان بديع - وقد علّقناه من إبهاميه قبل أن نقتله. لا أدري لماذا فعلنا ذلك، لقد ساعدت ولا أدري لماذا. يقول البعض إنه كان كاثوليكياً ملعوناً، ولكن.... پييرلا غراند كذلك، كما أظن.

«بعضهم دفعناهم إلى البحر وكانت دروع صدورهم تشع وتومض فيما كانوا يهبطون - جنود أسبان يخرج من أفواههم الزبد. هناك يمكنك أن ترى عميقاً في الماء». توقف دافيد ونظر إلى الأرض.

«أترى، أنا لا أريد أن أؤذيك بهذه الأمور، يا روبرت، ولكنها مثل شيء حي مخبوء في صدري تحت ضلوعي، وهي تعضّ وتحك لتخرج مني. أنا غني من المغامرات، بالتأكيد، ولكن ذلك يبدو في أغلب الأوقات غير كاف؛ أنا أغنى، ربما، من أخيك أنت، السير إدوارد».

كان روبرت يبتسم بشفتين مزمومتين. وبين آونة وأخرى كانت عيناه تنتقلان إلى الغلام حيث يركع على الموقد. كان هنري مشدود الانتباه، يقتات بشراهة على الكلمات. عندما تكلم روبرت، تجنّب عيني دافيد.

«إن روحك تثقل عليك»، قال. «أفضل من كل شيء أن تتحدث إلى راعي الأبرشية صباحاً - ولكن لا أدري عمَّ».

«كلا، كلا، إنها ليست روحي أبداً»، واصل دافيد سريعاً. «تلك الروح ترشح من الرجل قبل أي شيء في جزر الهند، وتترك إحساساً جافاً منكمشاً حيث كانت. إنها ليست روحي على الإطلاق، إنه السم الذي فيّ، في دمي وفي دماغي. يا روبرت. إنه يجعلني أتغضّن مثل برتقالة عتيقة. الأشياء الزاحفة هناك، والوحوش الطيارة الصغيرة التي تأتي على نارك في الأماسي، والزهور الشاحبة الكبرى، كلها سامة. إنها تفعل أشياء رهيبة للإنسان. إن دمي مثل إبر باردة تنزلق إلى شراييني اللحظة، والنار الرائعة أمامي. كل هذا - كل - بسبب تنفس الغابة المرطوب جداً. لايمكنك أن تنام أو تتمدّد فيها، ولا أن تعيش فيها أبداً، ولكنها تتنفس عليك وتذويك.

«والهنود السمر - أوه، انظر!» طوى كمه إلى أعلى، فأشر له روبرت باشمئزاز أن يغطي الرعب المريض الأبيض الذي كان يتقيح على ذراعه.

«كانت مجرد خدشة سهم صغيرة - بالكاد كنت تراها، ولكنها ستقتلني قبل سنوات - أظن. هناك أشياء أخرى فيّ، يا روبرت. حتى البشر سامّون، وهناك أغنية يغنيها البحارة عن ذلك».

الآن قفز هنري الصغير منفعلاً.

«ولكن الهنود»، صاح «أولئك الهنود وسهامهم. أخبرني عنهم! هل يحاربون كثيراً؟ كيف يبدون؟»

«يحاربون؟»، قال دافيد. «نعم، إنهم يقاتلون دوماً، يحاربون من أجل حب فيه. عندما لايحاربون رجالَ أسبانيا، يقومون بالقتل فيما بينهم. لَدِنون كالأفاعي هم، وسريعون وهادئون وسمر مثل ابن

مقرض[١١]، هم الشيطان نفسه في الغياب عن النظر قبل أن يتمكن المرء من التصويب عليهم.

«ولكنهم شعب شجاع قوي لا يخافون إلا شيئين - الكلاب والعبودية». كان دافيد منغمساً في حكايته. «إيه، يا فتى، أيمكنك أن تفكر فيما يفعلونه بالرجل الذي يدع نفسه يؤخذ في نزاع؟ إنهم يملؤونه بأشواك غاب طويلة من رأسه حتى أصابع قدميه، وعلى الطرف السميك من كل شوكة كرة من الزغب كالصوف. ثم يقف الرجل المأسور المسكين داخل دائرة من الوحوش العراة فيما هم يشعلون النار بالزغب وذلك الهندي الذي لا يغني عندما يحترق هناك كالمشعل، يُسبّ ويدعى جباناً. والآن، أيمكنك أن تتصور أي رجل أبيض يفعل ذلك؟

«ولكن من الكلاب يخافون، لأن الأسبان يصطادونهم بكلاب درواس[١٢] ضخمة عندما يقومون بجمع العبيد من أجل المناجم، والعبودية مرعبة لهم... أن يجري ربطهم بالسلاسل جسداً لجسد داخل الأرض الرطبة، سنة فوق رأس سنة، حتى يموتوا من القشعريرة الرطبة - إنهم يفضلون أن يغنّوا تحت الشوك المشتعل، ويموتوا في اللهب».

توقف ومد يديه النحيفتين تحت الموقد حتى أوشكتا أن تمسا اللهيب. وانطفأ الضوء الذي كان جاء إلى عينيه، مرة أخرى.

«أوه، إنني متعب، يا روبرت - متعب جداً كثيراً»، تنهد، «ولكن هناك أمراً واحداً أريد أن أخبرك به قبل أن أنام. ربما الإخبار سيريحني، وربما أمكنني أن أقوله ثم أنساه ليلة واحدة. عليّ أن أعود إلى المكان اللعين. لم أعد أستطيع البقاء بعيداً عن الغابة قط، لأن نَفَسها الحار فوقي. هنا، حيث وُلدت، أرتجف وأتجمد. إذا مر عليّ شهر سيلقاني

ميتاً. هذا الوادي حيث لعبت وكبرت واشتغلت لفظني بوصفي شيئاً حاراً عفناً. إنه ينظف نفسه مني بالبرد.

«والآن، هل ستعطيني مكاناً للنوم، وأغطية سميكة لإبقاء دمي المسكين متحركاً، وفي الصباح سأنطلق مرة أخرى». وتوقف وتلوى وجهه ألماً. «كنت أحب الشتاء كثيراً».

ساعده روبرت العجوز للخروج من الغرفة بوضع يد تحت ذراعه، ثم جاء فجلس مرة أخرى إلى جانب النار. نظر إلى الغلام الذي يتمدد بلا حراك على الأرض.

«فِيمَ تفكر الآن، يا ولدي؟»، سأل بنعومة بالغة بعد قليل. وسحب هنري تفرسه عن الأرض وراء اللهب.

«أفكر أنني أريد أن أذهب حالاً، يا أبي».

«لا أدري، يا هنري. طوال هذه السنة الطويلة كنت أرى ذلك ينمو داخلك مثل شجرة قوية - لندن أو غينيا أو جامايكا. ذلك ناشئ عن كونك في الخامسة عشرة وقوياً، ومحبة الأشياء الجديدة مسلطة عليك. ذات مرة رأيت الوادي يصير أصغر فأصغر، حتى يغطيني أخيراً قليلاً، فيما أظن. ولكن ألا تخشى السكاكين، يا بني، والسموم، والهنود؟ ألا تخيفك هذه الأشياء؟»

«لـ...ا...ا..ا»، قال هنري ببطء.

«بالطبع لا - وكيف يمكنها؟ الكلمات لاتعني شيئاً لك قط. ولكن حزن دافيد، وأذاه، وجسده المسكين المريض - ألا تخشى هذه؟ أتريد أن تتجول في الدنيا مرهقاً بقلب كهذا؟»

تأمل هنري الفتي طويلاً.

«لن أصير كذلك»، قال أخيراً. «سأعود مراراً كثيرة من أجل دمي».

واصل أبوه الابتسام ببساطة.

«متى ستنطلق، يا هنري؟ سنحس بالوحدة هنا بدونك».

«حسناً، سأذهب الآن، بأسرع ما يمكنني»، قال هنري، وبدا كما لو كان الأكبر، وروبرت فتى صغيراً.

«يا هنري، هل تفعل شيئين لي قبل أن تذهب؟ هل ستفكر الليلة في الأرق الذي سأعانيه بسببك، وكيف ستكون أيامي ضائعة. وهل ستتذكر الساعات التي سوف تتأكل أمك عن ملابسك الداخلية ووضع ديانتك. ذلك هو الأمر الأول، يا هنري. ولكن الثاني، هل تذهب إلى (ميرلين)[١٣] الشيخ على رأس الصخرة الحادة غداً وتخبره عن رحيلك وتصغي إلى كلماته؟ أنه أعقل مما يمكن أن تكون أو أكون في أي وقت. هناك نوع من السحر يمارسه قد يكون ذا فائدة لك. هل تفعل هذين الشيئين، يا ولدي؟»

حزن هنري كثيراً.

«كنت أود لو أبقى، يا أبي، ولكنك تدري...»

«نعم، يا ولدي». هز روبرت رأسه. «مما يؤسفني أنني أدري. لا أستطيع أن أغضب ولا أن أمنع رحيلك، لأنني أفهم. أتمنى لو أستطيع أن أمنعه وأجلدك ظاناً أنني أساعدك. ولكن، اذهب إلى الفراش، يا هنري، وفكر وفكر عندما ينطفئ النور ويكون الظلام حولك».

وجلس روبرت العجوز يحلم في كرسيه بعد أن انصرف الغلام.

«لماذا يريد رجال مثلي الأبناء؟»، تساءل. «لابد لأنهم يأملون في

أرواحهم المسكينة المهزومة أن هؤلاء الرجال الجدد، الذين هم دماؤهم، سيفعلون أشياء لم يكونوا هم من القوة ولا الحكمة ولا الشجاعة بما يكفي لأن يفعلوها. إنها مثل فرصة أخرى مع الحياة، مثل حقيبة جديدة من المسكوكات على مائدة الحظ بعد أن يغادرك الحظ. ربما كان الغلام يفعل ما كنت سأفعله لو أنني كنت شجاعاً بما يكفي في السنوات الماضية. نعم، لقد كساني الوادي، كما أظن، وأنا سعيد لأن ابني هذا يجد في نفسه القوة أن يطوي الجبال قفزاً ويسير حول العالم. ولكن سيكون - موحشاً جداً هنا من دونه».

الهوامش

(١) Glendowrs
(٢) Iolo Goch
(٣) Cumric
(٤) Ale
(٥) Gwenliana
(٦) Caerleon
(٧) Dafydd
(٨) Pierre le Grand
(٩) Goaves
(١٠) Tortuga
(١١) Ferret : حيوان يشبه ابن عرس يصطاد القوارض.
(١٢) Mastiff : كلب حراسة ضخم.
(١٣) Merlin

-٢-

دخل روبرت العجوز قادماً من حديقة زهوره في وقت متأخر من صباح اليوم التالي ووقف في الغرفة حيث كانت زوجته تكنس. عاينت التربة الجيدة على يديه بإنكار:

- «يريد الآن أن يرحل، أيتها الأم»، قال روبرت بعصبية.

- «من الذي يريد أن يذهب، وإلى أين؟». كانت جافة ومشغولة بكنسها، والمكنسة السريعة اللجوج تطارد الغبار من الزوايا وشقوق الأرضية وتقوده في فتائل صغيرة منفوخة إلى العراء.

- «إيه... هنري. يريد أن يذهب إلى جزر الهند الآن».

توقفت عن عملها لتنظر إليه. «جزر الهند! ولكن، يا روبرت! أوه، هراء!»، أنهت كلامها وراحت المكنسة تدور في يديها أسرع.

- «كنت أرى ذلك ينمو وينمو في داخله»، واصل روبرت. «ثم جاء دافيد بحكاياته. أخبرني هنري ليلة أمس أنه لابد أن يذهب».

- «إنه مجرد صبي صغير»، قاطعت الأم مورغان بحدة. «لايمكنه الذهاب إلى جزر الهند».

- «عندما انطلق دافيد، قبل وقت قصير، كان في عيني الطفل اشتياق لن ينطفئ أبداً، حتى إذا ذهب بالفعل إلى جزر الهند. ألم تلاحظي، يا أم،

كيف تنظر عيناه إلى البعيد خلف الجبال إلى شيء يريده؟»
- «ولكنه لايجوز أن يذهب! لا يصح!»
- «آه، لا فائدة في ذلك، أيتها الأم. إن خليجا هائلاً بين ابني وبيني، ولكن لا خليج قط بيني وبين ابني. لو أنني لم أعرف جوعهِ الصارخ جيداً لربما منعت مغامرته، وكان سيهرب وفي قلبه غضب، لأنه لا يستطيع أن يفهم الجوع الذي فيّ لبقائه. وكانت النتيجة ستكون واحدة، على كل حال». استجمع روبرت القناعة.
- «ثمة فرق قاس بين ابني وبيني. لقد رأيت ذلك في سنوات نموه. لأنه حيثما يركض غامساً إصبعه في وعاء ثريد بارد بعد آخر، واثقاً بشكل عظيم أن كل واحد سيكون حساء الخضر الذي يحلم به، ما كنت أنا لأفتح وعائي، لأنني أعتقد أن كل الثريد سيكون بارداً. وهكذا - فأنا أتصور صحون ثريد أرجواني عظيمة، مشربة بحليب التنين، محلاة بحلاوة لابد من تصورها. إنه يتذوق أحلامه، أيتها الأم، وأنا - ساعدني الله! - أخاف من ذلك».
كان صبرها ينفد من كلامه.
- «روبرت»، صرخت بغضب تقريباً، «في أي وقت تكون ثمة بشرى خير علينا، أو حاجة، أو أسف، فإنك تختبئ في الكلمات. ثمة واجب لك! هذا الولد صغير جداً. ثمة أماكن مرعبة عبر البحر، والشتاء داخل علينا. سيكون أكيداً أن يلقى موته في سعال أصابه من الشتاء. إنك تعرف كيف تُمْرضه الرطوبة على قدميه. ينبغي ألا يترك هذه المزرعة، ولا حتى إلى لندن؛ أقول - إن كانت هاتان العينان اللتان تتحدث عنهما في رأسه.
«كيف يمكنك أن تعرف أي نوع من الناس سيعاشر، وسيخبرونه

بالهراء والشر. أعرف الشياطين الموجودة في العالم. أفلا يذكرها راعي الأبرشية كل سبت تقريباً - يسميها «شراكاً ومصائد»، أتلاحظ؟ وإنها كذلك، أيضاً. وها أنت تقف هنا، قانعاً بأن تتحدث سخفاً عن الشريد الأرجواني عندما يتعين أن تفعل شيئاً أو آخر. عليك أن تمنع ذلك».

ولكن روبرت أجابها بنفاد صبر:

- «بالنسبة لك هو مجرد صبي صغير ينبغي أن يُحمل على أداء صلواته الليلية ولبس سترة في الحقول، إنك لم تحسي فولاذه المصقول كما أحسست أنا. نعم، بالنسبة لك فإن ذلك النصب السريع الصلب لفكه مجرد عناد طارئ لطفل جموح. ولكنني أعرف حقاً، وأنا أقول لك، بلا سرور، إن ابننا هذا سيكون رجلاً عظيماً، لأن - حسناً - لأنه ليس ذكياً جداً. لايمكنه أن يرى إلا رغبة واحدة كل مرة. أقول إنه ذاق أحلامه: سيغتال كل حلم بسهام إرادته التي لا تلين. سيفوز هذا الصبي بأي هدف يصوب نحوه، لأنه لايمكنه أن يحقق أية فكرة، أي سبب، إلا فكرته وسببه. وأنا آسف جداً لعظمته القادمة بسبب أمر سبق لميرلين أن تحدث عنه. عليك أن تنظري إلى فكيه الغرانيتيين، يا أم، والحيلة التي عنده في جعل عضلات وجنته تنفر من دون أن يحكم إطباقها».

- «يجب ألا يذهب»، قالت بتوكيد، وزمت شفتيها معاً بإحكام.

- «ترين، أيتها الأم،»، واصل روبرت، «أنك تشبهين هنري أنت نفسك، لأنك لا تعترفين قط بوجود فكرة عدا فكرتك أنت. ولكنني لن أمنع ذهابه، لأنني لا ينبغي أن أجعله يتسلل خارجاً إلى الظلام الموحش حاملاً خبزاً وجبناً تحت سترته وإحساساً مضاماً بالظلم في قلبه. إنني أسمح له بالذهاب. وأكثر من ذلك، أساعده في الذهاب إن رغب في

ذلك. ثم، لو أنني أسأت الحكم على ابني، فسيعود متسللاً متخفياً على الأمل المخيف في ألاّ يذكر أحد جبنه».

فقالت الأم مورغان:

- «هراء!»، وعادت إلى عملها. إنها تحل هذا الأمر عن طريق عدم الإيمان به. أوه، ياللألف شيء التي ربطتها بالأعراف[1] بشكوكيتها! طوال سنوات بقيت تضرب أفكار روبرت الوحشية بكتيبة ثقيلة من البداهة، وبكل بساطة، فإن قواتها هجمت وتغلبت عليه. كان ينكفئ بإعياء حتماً ويجلس مبتسماً بعض الوقت. سيعود إلى التعقل بالتأكيد في هذه المسألة كما فعل في غيرها.

كان روبرت يعمل على التربة حول جذور جنبة ورد بيديه البنيتين القويتين. رفعت أصابعه الطُفال الأسود ثم ربّتت عليه برقة لتقرّه في مكانه مرة أخرى. كان يضرب بين آونة وأخرى أصل الجنبة الرمادي بلمسة حب عظيم. كان كما لو أنه يسوي الأغطية على شخص على وشك أن ينام ويلمس ذراعه ليطمئن على سلامته.

كان النهار خفيفاً، لأن الشتاء كان زحف قليلاً عائداً وأعاد رهينته إلى العالم - شمساً صغيرة، باردة. جاء هنري الفتى ووقف قرب دردارة بحذاء الجدار، شجرة موحلة وجرداء وكالحة بفعل مداراة الرياح.

- «كنت تفكر كما طلبت منك؟»، تكلم روبرت بهدوء.

أجفل هنري. لم يكن يعرف أن الرجل، الراكع كما لو كان في عبادة للأرض، قد لاحظه، ومع ذلك فإنه قد جاء إلى هنا كي يلاحَظ.

- «نعم، يا أبي»، قال. «كيف يمكنني الكفّ عن التفكير؟»

- «وهل شدّك إلى هنا؟ أستبقى؟»

- «لا، يا أبي. لن أبقى». لقد حزن بحزن أبيه. أحس وضاعةً ودونيةً لكونه السبب فيه، ولكن جوع الذهاب كان لايزال يقرض في قلبه.

- «هل ستتمشى لتتحدث مع ميرلين على حافة الصخرة الحارة، إذن؟» تضرع روبرت. «هل ستصغي إلى كلماته بعناية فائقة؟»

- «سأذهب الآن».

- «ولكن، يا هنري، لقد انقضى نصف النهار، والطريق طويل. انتظر حتى الغد».

- «ينبغي أن أرحل غداً، يا أبتاه».

انزلقت يدا روبرت العجوز إلى الأرض وتمددتا، نصف مفتوحتين، على التربة السوداء عند جذور جنبة الورد.

الهوامش

(١) ما بين الجنة والنار.

-٣-

استدار هنري الفتى سريعاً من الطريق ليتسلق مسلكاً عريضاً يرتفع إلى قمة (كراغ) ثم فوق الجبال الوحشية. كان يمكن مشاهدة التفافاتها من أدنى حتى تختفي في الشق الكبير. وعلى أعلى نقطة من المسلك كان يقيم ميرلين، ميرلين الذي ربما كان صبيان المزرعة يتضاحكون عليه ويرجمون زياراته النادرة أدنى الممر ولو أنهم كانوا يعتقدون أنه عديم الأذى. ولكن ميرلين كان امرءاً يجمع حول نفسه حشداً من الأساطير الصغيرة. كان ثابتاً أن الـ (تيلويث تيگ)[1] يطيعه ويحمل رسائله عبر الهواء على أجنحة بلا صوت. وكان الأطفال يتهامسون بمعرفته بجرذان عرس معينة مرقشة، يمكن أن تأخذ بثأره لو أنه احتاج إلى ذلك. ثم، أيضاً، كان يحتفظ بكلب أحمر الأذنين. كانت هذه أموراً مرعبة، وما كان ميرلين امرءاً يتلاعب عليه الأطفال الذين لم يكونوا يعرفون كل العلامات التي يحمون بها أنفسهم.

قال الكبار إن ميرلين كان ذات يوم شاعراً بديعاً، وربما كان سيصير أعظم. وكانوا يغنون برقة «حزن پلايث»[2] أو «أغنية الرمح»[3]، ليبرهنوا على ذلك. وقد نال بضع مرات الجائزة الرئيسة لآيستد فود، وكان سيتم اختياره شاعر القبيلة الأول لو لم يدخل ضده طامح من بيت

رايس[٤]. ثم، من دون سبب معروف، وكان ميرلين شاباً أيضاً، كفّ عن كتابة الأغاني في البيت الحجري على قمة كراغ وأبقاها حبيسة بصرامة فيما كبر هو وشاخ - وكل من غنّى أغنياته نسيها، أو مات.

كان بيت قمة كراغ دائرياً مثل برج رمادي وطيء، له نوافذ تطل على الوادي وعلى الجبال. وقال البعض إنه بناه عملاق محاصَر، قبل قرون، ليبقي عذراواته مخبوءات فيما هن في تلك الحال، وقال آخرون إن الملك (هارولد)[٥] قد فر إلى هناك بعد (هاستينكز)[٦] ليعيش حياته مراقباً ومتطلعاً أبداً، بعينه الواحدة، من فوق إلى الوادي وفوق الجبال، انتظاراً لمقدم النورمانديين.

كان ميرلين عجوزاً الآن، كان شعره ولحيته الطويلة المستقيمة أبيضين وناعمين مثل غيوم الربيع. كان ثمة الكثير عنه بوصفه كاهناً قديماً له عينان صافيتان بعيدتا النظر تراقبان النجوم.

أخذ الممر يضيق على هنري الفتى وهو يتسلق. كان جانبه الداخلي جداراً حجرياً يصعد قاطعاً السموات كما السكين، وكانت صور شوهاء غامضة، على طول الطريق، تجعله يبدو مثل معبد صخري لإله عتيق فظٍ عبّادهُ قردة.

كان ثمة حشيش في المقدمة، ثم أجمات، وقليل من الأشجار الشجاعة الملوية، ولكن في الأعلى كانت كل الأشياء الحية تموت من وحدة الصخور. وبعيداً إلى أسفل، كان بيت المزرعة يربض مثل بق العلف وينكمش الوادي وينطوي على نفسه.

انغلق الآن جبل على نفسه في الجانب الآخر من المسلك، غير تارك إلا فلعاً عريضاً إلى السماء. وانصبت ريح ضارية متواصلة من السماوات الزرقاء وراحت تزعق نحو الوادي. وإلى فوق، كانت الصخور

المنتشرة أكبر وأكثر سوءاً وإثارة للكراهية - أشياء جاثمة تحرس الممر.

تسلق هنري بلا تعب متقدماً. ماذا كان يمكن أن يكون عند ميرلين العجوز ليخبره، أو، ربما، ليعطيه؟ محلولاً لجعل جلده قوياً لا تنفذ منه السهام؟ سحراً ما؟ كلمات تحميه من خدم الشيطان الصغار الكثر؟ ولكن ميرلين كان سيتحدث ويستمع هو، وما يقوله ميرلين ربما سيشفي هنري الفتي من لوعاته، قد يبقيه هنا في كامبريا إلى الأبد. ما كان ذلك ممكناً، لأنه كانت ثمة قوى خارجية، أشباح أجنبية بلا أسماء، تناديه وتؤشر له عبر البحر الغامض.

لم تكن فيه رغبة في حالة أو ظرف، ولا في ذهنه صورة عن الشيء الذي سيصير عندما يتبع شوقه، ولكن مجرد حرقة وإرادة متسلطة بالسفر إلى الخارج وبعيداً بعد النجم المرتفع مبكراً.

انفتح الممر على قمة صخرة صلبة، نصف كروية مثل تاج قبعة، وعلى قمتها كان يقوم بيت ميرلين الوطيء المدور، المركب كله من صخور خشنة غير منتظمة، يعلوه سقف مخروطي مثل مطفأة شموع.

لاقاه العجوز عند الباب قبل أن يتمكن من دقه.

- «أنا هنري مورغان، يا سيدي، وأنا خارج من هنا إلى جزر الهند».

- «حقاً، وهو أنت؟ هل لك أن تدخل وتحدثني عن ذلك؟» كان الصوت صافياً وخفيضاً ولطيفاً مثل ريح فتية تدندن في بستان ربيعي. كان فيه موسيقا الغناء، الغناء الهادئ لرجل يعمل بالأدوات، وإلى أدني، نصف مسموع أو متخيَّل تماماً، كان يقرع ظاهر أوتار القيثارة الذي يُلمس بخفة ويُترك للإثارة.

كانت الغرفة المفردة وافرة الفرش بسجادة سوداء، وعلى الجدران

كانت معلقة قيثارة وسنان، قيثارة وسنان، على طول الخط، قيثارات ويلزية صغيرة والرماح المخروطية البرونزية العظيمة للبريطانيين، وهذه مقابل الحجر غير المنظم. تحت هذه كانت ثمة شبابيك رؤية كاملة يمكنك أن تنظر منها إلى الخارج فتطل على ثلاثة وديان وعائلة جبارة من الجبال، وأدنى من ذلك أيضاً، مصطبة مفردة تحف بالغرفة على الحائط. كانت ثمة منضدة في الوسط محملة بكتب متهرئة، وإلى جانبها مجمرة نحاسية، مقامة على حامل ثلاثي الأرجل إغريقي من الحديد الأسود.

تمسح كلب الصيد الضخم بهنري عندما دخل بحيث انكمش مرتعباً، لأنه هل ثمة شيء تحت الكأس الزرقاء أكثر تذكيراً بالموت من مجرد ملاحظة كلب أحمر الأذنين؟

- «أنت ذاهب إلى جزائر الهند. اجلس هنا، يا بني. أترى؟ أيمكنك أن تراقب الآن وادي بيتكم، بحيث لا يذهب طائراً إلى آڤالون»[٧]. أمسكت القيثارات نبراته فهمهمت ترديداً مجيباً خابياً.

- «قال أبي إن عليّ المجيء هنا وإخبارك عن ذهابي والاستماع إلى مقالك. يظن أبي أن خطابك قد يبقيني هنا».

فأعاد ميرلين:

- «ذاهب إلى جزائر الهند. أسترى إليزابث قبل أن تمضي وتؤدي وعوداً كبيرة لتهيج قلبها وتخنق أنفاسها، بعد أن تذهب، من التفكير في الأشياء التي ستجلبها إلى هنا؟»

احمرّ هنري عميقاً، وصاح:

- «من أخبرك أنني فكرت أصلاً بالفأرة الصغيرة؟ من الذي يقول إنني أبالي بها؟»

فقال ميرلين:

- «واه، همست الريح بشيء ما، ثم كانت كلمة عن ذلك في وجنتيك المتكلمتين وفي نوبة غضبك الآن بالذات. أظن أنك ينبغي أن تتحدث إلى إليزابث، لا إليّ. كان على أبيك أن يعرف أفضل».

وتلاشى صوته. وعندما عاود الكلام، فعل ذلك بجدية حزينة.

- «هل ينبغي أن تترك أباك، يا بني - وهو بالتأكيد وحيد في وادي الرجال الذين ليسوا مثله؟ نعم، أظنك ينبغي أن تذهب. إن خطط الأولاد أشياء جدية وغير قابلة للتغيير. ولكن ماذا بمقدوري أن أقول لك لأبقيك هنا، يا هنري؟ إن أباك يرسل لي مهمة صعبة التحقيق.

«ذهبت إلى الخارج على سفينة أسبانية طويلة قبل ألف سنة - لابد أنه كان أكثر من ذلك، أو ربما أنني لم أذهب قط وأنني حلمت بذلك فقط. وصلنا أخيراً إلى تلك الجزر الخضر، وقد كانت لطيفة ولكن لا تتغير. إن دورتها رتابة خضراء. لو أنك ذهبت إلى هناك فعليك أن تتخلى عن السنة، يجب أن تفقد لذع الرهبة المطلقة في الشتاء العميق مع نذيره بأن العالم قد أبق من الولاء الإقطاعي الشمسي كي يذهب مائل المركب إلى الفضاء المتوحد بحيث ربما لن يعود الربيع أبداً. وعليك أن تخسر ذلك الإسراع الوحشي، المنفعل عندما تستدير الشمس، ومتعة فيضها عليك مثل اصطخاب موجة دافئة وتخنقك بالسرور والارتياح. لا تغيير هناك، لا تغيير على الإطلاق. الماضي والمستقبل يختلطان في حاضر بغيض، أبدي».

- «ولكن ما من تغيير هنا»، قاطع هنري الفتى. «سنة على رأس سنة تجمع المحاصيل وعجول جديدة تلعقها أمهاتها، سنة على رأس سنة يُسلخ خنزير ويُدخَّن لحم الفخذ. الربيع يأتي، بالتأكيد، ولكن لا يحصل شيء».

- «صحيح بما يكفي، أيها الصبي الأعمى؛ وإنني أرى أنك تتكلم

عن أمور مختلفة». نظر ميرلين خارج نوافذه إلى الجبال والوديان، وشعَّ في عينيه حب عظيم للأرض، ولكن عندما استدار نحو الصبي كانت على وجهه نظرة ألم. واتخذ صوته إيقاع أغنية.

- «سوف أترافع معك عند هذه الكامبريا العزيزة عندما يتراكم الزمن فيصير بارتفاع جبل وينهار، والأيام القديمة حول قاعدته»، صرخ بانفعال. «أَفَقَدْتَ حبك لكامبريا المتوحشة بحيث أنك تهجرها حينما راح دم الآلاف من أسلافك يغور إلى التربة ليبقيها كامبريا دائماً؟ أنسيت أنك من العنصر الطروادي؟ آه، ولكنهم هاموا هم أيضاً، ألم يهيموا، عندما سقطت برغاموس[٨]؟».

فقال هنري.

- «أنا لم أفقد أي حب، يا سيدي، ولكن حلمي على البحر لا أعرفه، أنا أعرف كامبريا».

- «ولكن، يا فتى، هنا عاش آرثر العظيم الذي رفع ألويته إلى داخل روما وأبحر مبتعداً بخلود إلى آفالون العزيزة. وآفالون ذاتها تقع خارج سواحلك، في مكان ما فوق المدن المغرقة، هناك تعوم بلا انتهاء. أولم تسمعها؟ يا هنري، أشباح كل أولئك الرجال الطيبين الشجعان، محبي المشاجرة، غير الأكفاء - ليولاو غيفس[٩] وبيليريوس[١٠] وآرثر[١١] وكادوالوا[١٢] وبروت[١٣] إنهم يسيرون كالغيوم خلال الأرض ويحرسونها من الأماكن العالية. لا توجد أشباح في جزر الهند، ولا تيلويث تيغ.

«في هذه التلال الوحشية، السوداء ثمة مليون غموض. هل وجدتَ كرسي آرثر أو معنى الأحجار المطوَّقة؟ هل سمعت الأصوات التي تبكي الانتصار في الليل، وصيادي الأرواح بأبواقهم الزاعقة وقطعانهم من

كلاب الصيد الزرقاء، الذين يندفعون إلى القرى عند العاصفة؟ »

- « لقد سمعتها »، قال هنري، مقشعراً.

خطف نظرة خجولاً من الكلب النائم على الأرض وتكلم بصوت أخفض. « يقول راعي الأبرشية إن هذه الأشياء أكاذيب. يقول إن (الكتاب الأحمر) هو كتاب للأطفال الصغار عن النار وعار على الرجال والصبية الكبار أن يصدقوه. لقد أخبرنا في مدرسة الكنيسة أن هذه أقاصيص كاذبة، وغير مسيحية. قال إن آرثر كان شيخ قبيلة غير مهم، وميرلين، الذي تحمل أنت اسمه، تلفيق للعقل المجنون لجيفري مانموث[١٤]. حتى أنه تكلم بالسوء على التيلويث تيغ وشموع الجثث، وعما يشبه شرفه، كلبك، هنا ».

- « أوه، الأحمق! »، صاح ميرلين في اشمئزاز. «الأحمق لكشفه هذه الأمور! وهو يقدم بدلاً من ذلك قصة أعطاها للعالم اثنا عشر متعاوناً لهم معتقدات مُحلّة نوعاً ما في بعض المسائل. لماذا ينبغي أن تذهب، يا بني؟ أفلا ترى أن أعداء كامبريا لم يعودوا يحاربون بالسيف، بل بألسن مدببة قليلاً؟ » غنت القيثارات سؤاله، ثم توقفت ببطء عن نبضها وخيم صمت في البيت المستدير.

درس هنري الأرضية مقطب الحاجبين. وقال أخيراً:

- « ثمة قلق كبير بشأني. لايمكنني أن أبدو متحدثاً عن هذا الأمر، يا ميرلين. سأعود. سأفعل بالتأكيد عندما يكون هذا التحرق إلى الأشياء قد خمد. ولكن ألا ترى أنني يجب أن أذهب، لأنه يبدو أنني مشطور إلى نصفين وليس غير نصف مني فقط هنا. إن النصف الآخر على البحر، يدعوني ويدعوني أن أجيء كي نتحد. إنني أحب كامبريا، وسأعود عندما أكون موحداً مرة أخرى ».

تفحص ميرلين وجه الصبي عن كثب. رفع نظره بحزن إلى قيثاراته. «أظنني أفهم»، قال برقة: «إنك فتى صغير. إنك تريد القمر كي تشرب منه، مثل كأس ذهبية؛ وهكذا، فمن المحتمل كثيراً أنك ستصير إنساناً عظيماً - شريطة أن تبقى طفلاً صغيراً. لقد كان كل عظماء العالم أولاداً صغاراً أرادوا القمر؛ يركضون ويتسلقون، كانوا يمسكون أحياناً حباحب. ولكن إن كبر أحدهم ليكون له عقل رجل، ينبغي أن يرى ذلك العقل أنه ليس بمقدوره أن يمتلك القمر وأنه لن يريده لو استطاع - وهكذا، فهو لا يمسك أي حباحب».

- «ولكن، ألم تر القمر قط؟»، سأل هنري في صوت طمس هدوء الغرفة.

- «أردته. فوق كل الرغبات أردته. مددت يدي لأمسكه ثم - ثم كبرت فصرت رجلاً، وإخفاقاً. ولكن توجد موهبة الإخفاق هذه؛ يعرف الناس أنه قد أخفق، فيصيرون آسفين عذبين ورقيقين. عنده العالم كله إلى جانبه، جسر من الاتصال مع شعبه هو؛ لباس الاعتدال. ولكن من يحمي الحباحب بين يديه، يقبض عليه وهو يمد يده إلى القمر، هو وحيد بشكل مزدوج؛ لا يمكنه إلا أن يدرك فشله الحقيقي، يدرك وضاعته ومخاوفه وتملصاته.

«ستبلغ عظمتك، وربما ستكون وحيداً، في الوقت المناسب، في عظمتك وليس عندك صديق في أي مكان؛ غير أولئك الذين ينظرون إليك بعين الاحترام أو الخوف أو الرهبة. إنني آسف لك، أيها الصبي ذو العينين المستقيمتين الصافيتين اللتين تنظران إلى أعلى باشتياق. أنا آسف لك، و - أيتها السماء الأم! لكم أغبطك».

كان الغسق يتسلل إلى غضون الجبال، مالئاً إياها بضباب

أرجواني. قسمت الشمس نفسها على تل حاد وراحت تنزف في الوديان. زحفت ظلال طويلة من الحافات خارجة إلى الحقول مثل قطط رمادية تطارد، مختلسة، صيداً. وعندما تكلم ميرلين، فعل ذلك مع ضحكة طويلة. قال:

- «لا تفكر بعمق في كلماتي، لأنني أنا نفسي غير واثق منها. قد تعرف الأحلام بخلّة ندعوها التنافز أو عدم التناغم - ولكن كيف يمكنك أن تصنف الصاعقة؟» كان الليل يخيم الآن مسرعاً، فقفز هنري واقفاً.

- «أوه، ولكن عليَّ الذهاب! لقد حلّ الظلام!»

- «نعم، ينبغي أن تذهب، ولكن لا تفكر عن كثب في كلماتي. ربما كنت أحاول أن أؤثر فيك بهذه الكلمات. يحتاج الشيوخ إلى مديح صامت ما عندما يصلون إلى الشك فيما يقال. تذكر فقط أن ميرلين تحدث معك. وإذا ما لحقت بالشعب الويلزي في أي مكان، يغني أغانيّ التي وضعت قبل وقت طويل جداً، فقل لهم إنك كنت تعرفني؛ قل لهم إنني مخلوق مجيد له جناحان أزرقان. لا أريد أن أُنسى، يا هنري. بالنسبة لرجل عجوز، ذلك أكبر من الموت - النسيان».

فقال هنري:

- «ينبغي أن أذهب الآن، لقد أظلمت حقاً. وأشكرك، يا سيدي، على إخباري بهذه الأمور، ولكن، كما ترى، عليّ أن أبحر خارجاً إلى جزر الهند».

فضحك ميرلين بلطف:

- «طبيعي أن عليك ذلك، يا هنري، وأمسك حباحب كبيرة، ها؟ مع السلامة، يا صغيري».

التفت هنري إلى الوراء مرة عندما غاصت صورة البيت الظلّية وراء

كتف جرف حاد، ولكن لم يكن نور قد سطع وراء النوافذ. جلس ميرلين العجوز هناك يترافع مع قيثاراته، فأخذت تردده ساخرة.

حث الصبي خطاه هابطاً الممر. كان كل شيء في الأدنى بحيرة سوداء، وأضواء المزرعة انعكاسات النجوم في عمقها. كانت الريح قد ماتت، تاركة سكوتاً سميكاً على التلال. في كل مكان كانت الأشباح الحزينة عديمة الصوت تخفق حلولها. سار هنري بانتباه، وعيناه على الممر الذي كان يومض أزرق شاحباً أمامه.

الهوامش

(١)- Teylwyth Teg

(٢) Sorrow of Plaith

(٣) The Spear Song

(٤) Rhys

(٥) Harold . لاشك ان المقصود هو هارولد الثاني (١٠٢٠ ؟ - ١٠٦٦) ، الملك الأنكلو سكسوني لإنكلترا» . حكم بضعة أشهر وصرعه الغزاة النورمانديون بقيادة وليام الفاتح في معركة هاستينغز .

(٦) معركة دارت رحاها في ١٤ تشرين الأول/أكتوبر ١٠٦٦ . انتصرت فيها قوات وليام ، دوق نورمانديا (الذي صار وليام الفاتح بعدئذ) ، وقد جرت على مقربة من مدينة هاستينغز . الواقعة على بعد ٥٥ ميلاً جنوب شرق لندن . تعد المعركة بداية الفتح النورماندي لإنكلترا .

(٧) Avalon

(٨) Pergamus ، (وقد تكتب على نحو اخر ، وقد تسمى باسماء قريبة من ذلك) : مدينة كانت في اسيا الصغرى قامت فيها مملكة باسمها . بلغت أوج ازدهارها بين ٢٦٣ - ١٣٣ قبل الميلاد .

(٩) Llew Llaw Giffes

(١٠) Belerius

(١١) Arthur

(١٢) Cawallo

(١٣) Brute : هؤلاء جميعاً من ابطال الأساطير الويلزية . عدا ارثر ، البطل الأسطوري للبريطونيين في القرن السادس الميلادي ، الذي قيل إنه تصدى للغزو السكسوني حوالي عام ٥١٦ ولقي مصرعه في ميدان القتال حوالي سنة ٥٣٧ .

(١٤) Geoffry of Monmouth

-٤-

على الممر ثمة الظلمة. عاد ذهن هنري إلى خطاب ميرلين الأول. أينبغي أن يرى إليزابث قبل أن يبحر بعيداً؟ إنه لا يحبها، وكان يظن أحياناً أنه اكتشف كراهية لها، وما كان لينمّي هذه العاطفة ويدفئها إلا ليحسها تنمو إلى رغبة في رؤيتها.

كانت شيئاً من غموض. ادخرت جميع الفتيات والنساء شيئاً لم يتحدثن عنه قط. كانت لأمه أسرار مرعبة عن البسكويت، وكانت تصرخ، في بعض الأحيان، بلا سبب معلوم. كانت حياة أخرى تمضي داخل النساء - بعض النساء - تجري موازية لحيواتهن الخارجية ومع ذلك لا تتقاطع معها أبداً.

قبل سنة، كانت إليزابث طفلة جميلة تهمس للفتيات الأخريات وتقهقه وتجر شعورهن عندما يكون هو قريباً، ثم فجأة تغيرت. لم يكن أمراً أمكن لهنري أن يراه، بالضبط، وإنما أحس بالأحرى أنها أعطيت فهماً عميقاً هادئاً. لقد أرعبته، هذه الحكمة التي حلت فجأة على إليزابث.

ثم كان جسدها - المختلف نوعاً ما عن جسده، والقادر - كما كان يدور الهمس - على مباهج وخيميا ءات غريبة. حتى هذا الجسد المتفتح

أبقته شيئاً سرياً. قبل وقت ما كانا يذهبان معاً للسباحة في النهر، وما كانت لتعيه، ولكنها الآن تغطي نفسها بعناية منه وتبدو منذهلة من فكرة أنه ربما يرى. لقد أفزعت شخصيتها الجديدة هنري وأربكته.

في بعض الأحيان كان يحلم بها، ويستيقظ في كرب مبرح من أنها يجب ألا تعرف بحلمه أبداً. وفي بعض الأحيان كان مركب غريب، مضبّ من إليزابث وأمه هو ما يأتيه في الليل. بعد حلم كهذا، كان النهار يجلب اشمئزازاً من نفسه ومنها. عدّ نفسه غولاً غير طبيعي وعدّها نوعاً من الطبيعة الجسدية السقوبية[1]. وما كان يقدر أن يخبر أحداً بهذه الأمور. إن الناس سيجتنبونه.

فكر أنه ربما كان يجدر أن يراها قبل أن يغادر. كانت فيها قوة غريبة هذه السنة، قوة جاذبة، ومع ذلك طاردة، تهز رغبته مثل قصبة تعصف بها الريح. ربما كان أولاد آخرون سيذهبون إليها في الليل ويقبلونها، بعد أن يكونوا تفاخروا قليلاً عن ذهابهم، ولكن، ما كان الأولاد الآخرون يحلمون كما يفعل، ولا يفكرون فيها، كما كان يفعل أحياناً، بوصفها كائناً تعافه النفس. كان ثمة بالتأكيد شيء فظيع الخطأ يحيط به، لأنه لم يكن يستطيع التمييز بين الرغبة والاشمئزاز. ثم، كان بمقدورها أن تربكه بيسر.

كلا، إنه بالتأكيد لن يذهب إليها. من أين جاءت لميرلين - من أين تجيء لأي أحد - فكرة أنه يهتم بقدر فلس لها، هي ابنة المستأجر الفقير؟ لا تستحق الاهتمام بها!

كان وقع أقدام يهبط الممر وراءه، ضربات عالية في الليل الهادئ، وسرعان ما انضم إليه شكل سريع نحيف.

- «أيكون وليـام؟» سأل هنري بأدب، فيـما توقف مصلح الطريق في الممر ونقل حمله من كتف إلى أخرى.

- «هو وليام تماماً. وماذا تفعل أنت على الممر، وقد جاء الظلام؟»

- «كنت في رؤية ميرلين وسماعه يتكلم».

- «أصـابه الطاعـون! ذلك هو كل مـا يفـعله الآن. لقـد صنع مـرة أغاني - أغـاني جيـدة، حلوة بحيث يمكنني أن أعـيدها عليك لو أعـجبني ذلك - ولكنه الآن يمد جذوره على قـمة كراغ تلك مثـل نسر عـجوز نفض ريشه. ذات مرة، عندما كنت أنوي الرحيل تحدثت إليه عن الأمر، أيضاً، كما يمكنني أن أبرهن استـشهاداً به. لست بالرجل الذي يمكنني أن أحبس لساني عندما أكون قد فكرت.

«لماذا لا تصنع المزيد من الأغـاني؟» قلت له بنبـرة مـثل هذه. «لماذا لا تصنع المزيد من الأغـاني؟». «لقـد كـبرتُ فـصرتُ رجلاً»، أجاب «ولا توجـد أغـانٍ في الرجل. الأطفـال فـقـط يصنعـون الأغـانـي - الأطفـال والبله». أصابه الطاعـون! إنه لأبله هو نـفسـه، هكذا أفـكر. ولكن مـاذا قال لك، أبيض اللحية العجوز؟»

- «حسناً، أترى، إنني ذاهب إلى جزر الهند و ــــــ».

- «جزر الهـند، وهل أنت فـاعـل؟ آه، حـسناً - لقد ذهبت إلى لندن مرة. وكل الناس الذين في لندن لصوص، لصوص قـذرون. كان ثـمـة رجل عنده لوح وفوقـه عيدان صغيرة مسطحة. «أتجرب مهـارتك، يا صـاح؟»، يقول. «أي عـود يحمل عـلامة سوداء على أدناها؟». «تلك»، أقـول أنا، وهكذا كـانت. ولكن في المرة الأخرى - آه، حـسناً، كـان لصاً، هو أيضـاً؛ كلهم لصوص.

«هناك أناس في لندن، وهم لا يفعلون شيئاً غير التنقل والدوران في عربات، صاعدين شارعاً هابطين الآخر، منحنين أحدهم للآخر، في حين يصب الناس الطيبون عرق أرواحهم في الحقول والمناجم لإبقائهم ينحنون هناك. أيُّ فرصة لي أو لك، مثلاً، في كل الأماكن البديعة، الناعمة، التي احتلها السراق؟ وهل يمكنك أن تخبرني بالسعر اللصوصي لبيضة في لندن؟»

- «ينبغي أن أسلك هذه الطريق الآن»، قال هنري «عليَّ الذهاب إلى البيت».

- «جزر الهند». تنهد مصلح الطريق باشتياق. ثم بصق على المسلك. «آه، حسناً - إنني أراهن على أنهم لصوص جميعاً، هناك، أيضاً».

كان الليل حالك السواد عندما وصل هنري أخيراً إلى الكوخ البائس الذي كانت تقطنه إليزابث. كانت ثمة نار في منتصف الأرضية، يعرف، وكان الدخان يتجمع ويحاول أن يخرج من حفرة صغيرة في السقف القشي. لم تكن للبيت أرضية، بل مجرد أسل منثور على الأرض المرصوصة، وعندما كانت العائلة تنام كانوا يلفون أنفسهم بجلود الخراف ويتمدّدون في دائرة وأرجلهم تتجه نحو النار.

لم تكن النوافذ مزججة ولا مغطاة بالستائر. كان بمقدور هنري أن يرى توين العجوز الأسود الحاجبين وزوجته الهزيلة العصبية، يتحركان في الداخل. انتظر أن تعبر إليزابث خلف النافذة، وعندما فعلت أخيراً، صفر نداءَ طيور حاداً. توقفت الفتاة ونظرت إلى الخارج، ولكن هنري كان ساكناً في الظلمة. ثم فتحت إليزابث الباب ووقفت مؤطرة بضوء

الداخل. كانت النار وراءها. كان بمقدور هنري أن يرى خطوط بدنها السوداء عبر ثوبها. رأى القوس البديع لساقيها ونهوض ردفيها. ملأه خجل وحشي، منها ومن نفسه. دون تفكير وبلا سبب ركض مبتعداً في العتمة، لاهثاً ويكاد أن يكون منتحباً تحت أنفاسه.

الهوامش

(١) Succubus : نسبة إلى السقوبة ، وهي شيطانة يزعم انها تجامع الرجال اثناء نومهم .

-٥-

رفع روبرت العجوز بصره برجاء عندما دخل الصبي الغرفة، ثم تلاشى الرجاء وعاد هو سريعاً إلى النار. ولكن الأم مورغان قفزت من مقعدها ومضت غضبى إلى هنري.

- «ما هذه الحماقة؟ أنت والذهاب إلى جزر الهند!»، سألت.

- «ولكن، يا أماه، يجب أن أذهب؛ حقاً يجب - وأبي يفهم. ألا يمكنك أن تسمعي كيف تدعوني الجزر؟»

- «ذلك ما لا يمكنني! إنه لهراء شرير هذا الذي فيه. طفل صغير أنت، ولا يمكن الاطمئنان إلى ابتعادك عن المنزل أبداً. وإضافة إلى ذلك، فإن أباك ذاته سيخبرك أن ذلك لن يكون».

انطبق فكّ الولد القوي مثل صخرة ووقفت العضلات بارزةً في وجنتيه. وفجأة حلت ومضة غضب في عينيه.

- «إذن، يا أمي، إن لم تفهمي، فسأخبرك أنني ذاهب في الغد - على رغمكم جميعاً».

طرد الغرور المخدوش عدمَ التصديق عن وجهها، وعبر ذلك - أيضاً - دون أن يترك غير الألم. انكمشت من الأذى المحير. وعندما شاهد هنري ما فعلت كلماته، مضى إليها مسرعاً.

- «أنا آسف، يا أماه - آسف كثيراً جداً، ولكن لِمَ لا يمكنك أن تتركيني أذهب كما يستطيع أبي؟ أنا لا أريد أن أؤذيك، ولكنني يجب أن أذهب. أفلا ترين هذا؟» وضع ذراعه حولها، ولكنها لم تنظر إليه. حدقت عيناها الخاليتان من الانفعال باستقامة أمامها.

كانت واثقة كثيراً من أن رأيها صحيح. لقد أهانت وأرهبت، بالصياح أو بالعبوس، عائلتها طوال حياتها، وقد عرفوا أن إرهابها الصغير هو حصاد محبتها لهم. ولكن الآن إذ استخدم ذلك الفرد منهم، وهو الطفل، اللهجة التي تحدثت بها كل ساعة، فذلك يُحدث أذى مروّعاً ربما لا يمكن شفاؤه ثانياً.

- «أتكلمت مع ميرلين؟ ماذا قال لك؟»، سأل روبرت من الموقد.

ومضى ذهن هنري سريعاً إلى إليزابث، فقال:

- «تحدث عن أشياء ليست في معتقدي».

- «حسناً - كانت مجرد فرصة»، تمتم روبرت. ثم استأنف: «لقد آلمت أمك بشكل سيء، أيها الصبي. لم يسبق لي أن رأيتها على هذه الدرجة من.. من الهدوء». ثم أقام روبرت نفسه وصار صوته ثابتاً:

- «عندي خمسة باونات لك، يا بني. إنها قليلة جداً، أظنني يجب أن أعطيك شيئاً صغيراً فوقها، ولكنه لا يكفي ليساعدك كثيراً. وهذه رسالة توصي بك إلى أخي، السير إدوارد. لقد هاجر قبل أن يقتل الملك، ولسبب ما - ربما لأنه كان هادئاً - تركه كرومويل(*) العجوز يبقى. لو كان في جامايكا عندما تصلها، يمكنك أن تقدم هذه الرسالة، ولكنه رجل بارد غريب يحسّ بفخر كبير في معارفه الأثرياء وقد ينزعج قليلاً من

(*) Cromwell، اوليفر (١٥٩٩ - ١٦٥٨)، زعيم البيوريتانيين الذي انتفض عام ١٦٤٠، وألحق الهزيمة بالملكيين ثم الح على إعدام شارلز الأول وأقام الحكم الجمهوري في انكلترا.

قريب فقير. ولهذا لا أدري إن كانت هذه الرسالة ستحقق نفعاً. قد يغضبك ما لم تكن قادراً على عدم رؤيتك أمراً مسلياً في رجل يشبهني، غير أنه يسير حاملاً سيفاً فضياً وريشاً على رأسه. لقد ضحكتُ مرة، ولم يعد أخاً قريباً مني منذئذٍ. ولكن احتفظ بالرسالة، فقد ساعدك مع ناس آخرين إن لم يكن مع عمك».

ونظر إلى زوجته الجالسة متلملمة في الظل:

- «ألن نتناول عشاء، أيتها الأم؟»

لم تبدِ أنها سمعته، وصب روبرت بنفسه القدر وجلب الطعام إلى المائدة.

إنه لأمرٌ قاس أن تفقد ابناً عشت من أجله باستمرار. على نحو ما، تصورته دائماً إلى جانبها - صبياً صغيراً، وقربها دائماً. حاولت أن تفكر بالأيام القادمة، وهنري غير موجود، ولكن الفكرة تهشمت على الجدار الأجرد لخيال عقيم. حاولت أن تعدّه ناكر جميل جداً بحيث يهرب منها، وتذكرت الضربة القاسية التي وجّهها إليها - ولكن الذهن كان دائماً ينغلق بحركة مفاجئة. كان هنري ابنها الصغير، ولا يمكنه، بالطبع، أن يكون وضيعاً ولا خائناً. في طريقة ما، عندما يكون كل حديثه وألمه قد صعدا فوق الهواء الرقيق، فسيكون مع ذلك قريباً منها، بين قدميها بشكل لذيذ.

ذهنها الذي كان دائماً ينسلخ عن الواقع، خيالها الذي كان يتعامل بنقاء مع الظواهر الراهنة للأشياء، عادا يدللان الطفل الذي زحف وتعثّر وتعلّم الكلام. نسيت تماماً أنه مسافر بعيداً، إلى هذا الحد كانت غارقة في أحلام يقظة الماضي الفضي.

كان يجري تعميده في ثوب طويل أبيض. تجمع كل ماء التعميد

في قطرة واحدة كبيرة تدحرجت هابطةً أنفه الملوث، فمسحتها - في حرصها على الترتيب - بمنديل ثم تساءلت إن لم يكن من الضروري أن يعمّد ثانية. كان راعي الأبرشية الشاب يعرق وتخنقه الكلمات. كان قد جاء مؤخراً إلى الأبرشية، ولم يكن غير صبي محلي على أية حال. كان حقاً صغيراً جداً، كما تصورت، بحيث لا يمكن أن يعهد له بأمر على هذه الدرجة من الأهمية. ربما لن ينجح ذلك. قد يتلو الكلمات في ترتيب خاطئ، أو يفعل شيئاً من هذا القبيل. ثم - كان روبرت قد أحدث فوضى بصداره ثانية. ما كان يستطيع قط أن يضع الزر في مكانه الصحيح لينقذه. كان ذلك يجعله يبدو منهاراً كلياً إلى جانب. ينبغي أن تذهب وتخبر روبرت عن صداره قبل أن يلاحظه الناس في الكنيسة. إن أشياء صغيرة كهذه لابد أن تسبب اللغط. ولكن، أيمكنها أن تطمئن إلى أن راعي الأبرشية الأحمق الفتي هذا لن يوقع الطفل عندما تذهب.

انتهى العشاء، ونهضت غوينليانا المسنة عن المائدة لتتجاهد عائدة إلى مقعدها أمام النار. كانت تنسل بهدوء عائدة إلى مستقبلها الودود. سأل روبرت:

- «في أي وقت ستنطلق؟ غداً؟»

- «ها، حوالي السابعة، في ما أظن، يا أبي». حاول هنري أن يبدو غير مبال.

توقفت المرأة العتيقة في رحلتها ونظرت إليه بحدة. سألت:

- «الآن. إلى أين يذهب هنري؟»

- «أوه، ألا تدرين؟ سيرحل هنري بعيداً عنا في الغد، إنه ذاهب إلى جزر الهند».

- «ولن يعود ثانية؟» سألت بقلق.

- «ليس لوقت قصير، على أيّ حال. إنها مسافة بعيدة».

- «أوه ، لكن - ينبغي أن أطرح أمامه المستقبل إذن. ذلك ما يجب أن أفعله - أمامه مثل الصفحات البيضاء لكتاب مفتوح».

وصاحت في انفعال مسرور:

- «ينبغي أن أخبره بالمستقبل والأشياء التي فيه. دعني أنظر إليك، يا ولد».

مضى هنري إليها وجلس عند قدميها فيما كانت تتكلم. ثمة، حقاً، سحر في اللسان القُمري العتيق. إنه خطاب معدٌّ للنبوة. قالت غوينليانا:

- «طبيعي لو أنني عرفت بهذا لكان ينبغي أن أجلب اليوم عظم كتف من خروف مذبوح حديثاً. إنه وسيلة أعظم عراقة وقد أجيد التفكير به أفضل من مجرد النبوءة الطارئة. ومنذ أن صرت عجوزاً وصدئة وعرجاء لم أعد أستطيع التجوال لملاقاة الأرواح التي تتجول على الطريق الخارجي. وليس بمقدورك أنت أيضاً أن تفعل إن لم تكن فيك الوسيلة للسير بين الأموات المتجولين والإصغاء إلي أفكارهم. ولكنني سأعطيك حياة شاملة، يا حفيدي، ومستقبلاً من أبدع ما فكرتُ به».

تراجعت إلى وراء في كرسيها وأغمضت عينيها، ولكن إن نظر أحد ما عن كثب فلربما كان سيشاهد ومضهما تحت الجفون الذي كان يلوح على الوجه المحكم للفتى. جلست وقتاً طويلاً مسلوبة اللب، وبدا أن عقلها الشائخ كان يتدحرج فالتاً من ثنايا الماضي المتشابكة ليصنع مستقبلاً مستقيماً، يمكن الإخبار به. أخيراً، تكلمت بالصوت الخفيض، الأجش المترنم المحفوظ للأمور الرهيبة:

- «هذه هي القصة المعروفة عن (أبرِد)[1]، عندما اصطرعت الأرض والماء. ومن صدمة اصطدامهما ولدت حياة صغيرة مناضلة لتتلوى إلى أعلى عبر دوائر نحو غوينفيد[2]، (النقاء) البراق. في ذلك التخبط الأول كتب تاريخ العالم ورحلة العالم عبر الخلاء.

«وأنت - غالباً ما تركت أنّون[3] ينصب فكيه ذواتي الأنياب ليصطاد نتفة الحياة الصغيرة التي تحملها معك، ولكنك قد صنعت ممرك للالتفاف على شَركه. لقد عشتَ ألف قرن منذ أن كافحت الأرض والبحر في جيلك، وسيتعين عليك أن تجول بألف دهر في نتفة الحياة الصغيرة التي أعطيتَها، وهكذا فأنت وحدك حميته من أنون، الهيولى».

كانت دائماً تبدأ نبوءاتها على هذا النحو. كانت تلك أمور علمها إياها شاعر ملحمي جوال، وصلته، شاعراً عن شاعر ملحمي، رجوعاً رجوعاً إلى الكهنة القدامى البيض. توقفت غوينليانا لتدع كلماتها تجد مستقراً في ذهن الفتى. ثم واصلت:

- «هذه قصة تجوالك الراهن. ستصير ضياء عظيماً للسماوي، تعلم أشياء الرب». ورأت عيناها السريتان وجه الصبي يسقط في الخيبة، فصرخت:

- «ولكن انتظر لحظة! إنني أتقدم كثيراً. سيكون ثمة قتال وإراقة دماء، وسيكون السيف عروسك الأولى». أضاء وجه هنري سروراً. «سيكون اسمك المهموس أمراً جامعاً لمحاربي العالم. ستنهب مدن الكافر وتجرده من غنائمه. سيسبقك الرعب مثل نسر صائح على دروع الرجال». كانت تعرف، الآن، أن نبوءتها كانت نجاحاً، ولكنها أسرعت لتصل إلى أمجاد أعظم. واختتمت قائلة:

- «ستصير حكومة الجزر والقارات ملكك، وستقوم بتحقيق العدالة والسلام لها. ثم في الآخر، عندما تكون مطوقاً بالشرف والشهرة، ستتزوج بكراً بيضاء الروح من طبقة عظيمة - فتاة من عائلة طيبة، وغنية». واتسعت عيناها وأخذت تنظر حولها من أجل التصديق.

قالت بحزن:

- «كانت يمكنني التنبؤ أفضل، بعظم خروف، أو لو أمكنني التجوال على الطريق الخارجي بين أوان وآخر، ولكن العمر يسرق من الإنسان مباهجه الصغيرة ويتركه مع لاشيء غير الانتظار البارد، الهادئ»

فقال روبرت الشيخ:

- «آه، حسناً، يا أماه، كانت تلك نبوءة جيدة، بجودة ما سمعتك تتنبّئين. إنك لبالغة الآن قمة قوتك الخفية، في ما أظن. ولقد أبعدت رعبي وطمنتني بشأن رحيل هنري. والآن لم أعد إلا فخوراً بما سيكون ابني. في ما عدا أنني أتمنى لو أنه لا يضطر إلى قتل الناس». فقالت غوينليانا بسرور:

- «حسناً، إذن - إذا كنت ترى أنها جيدة حقاً! لقد بدا لي أن الجو كان مواتياً، وأن عيني صافيتان الليلة. ومع ذلك، كان ينبغي أن أفضل كتف خروف». وأغمضت عينيها بقناعة ومضت في الإغفاء.

الهوامش

(١) Abred
(٢) Gwynfyd
(٣) Annwn

-٦-

طوال الليل راح روبرت العجوز يتقلب بعصبية في فراشه، وبقيت زوجته تتمدد بلا حراك إلى جانبه. وأخيراً، عندما كانت الظلمة تتحول إلى رمادية فضية في النافذة، نهضت بهدوء.

- «ماذا؟ ألم تكوني نائمة، أيتها الأم؟ وإلى أين ذاهبة؟»

- «أنا ذاهبة إلى هنري، الآن. يجب أن أتكلم معه. فلربما أصغى لي». لم تمضِ غير لحظة، ثم عادت فوضعت رأسها على ذراع روبرت. قالت:

- «لقد رحل هنري»، وتصلب كل بدنها قليلاً.

- «رحل؟ ولكن كيف أمكنه أن يفعل ذلك؟ هنا جُبْنُه الأول، أيتها الأم. لقد كان يخاف أن يودعنا. ولكنني غير آسف على خوفه، لأنه يبقي تأكده من أسفه. لم يقدر أن يسمع رُهاب شعوره في الكلمات.

«عجباً، أيتها الأم!» أجفل من صمتها وبرودها. «سيعود إلينا، أيتها الأم، قريباً، ربما عندما يرتفع حشيش الربيع. سيعود إلينا بالتأكيد. أقسم على ذلك. ألا تصدقين ذلك؟ إنه ذاهب لأسبوع واحد - لبضعة أيام. أوه، صدقيني!

«لقد رحلت عنا السنون بالتأكيد، يا عزيزتي، وها نحن كما كنا -

أتذكرين؟ - أقرب فقط - أقرب فقط إلى كل الأشياء التي كانت. نحن غنيان بكل الصور الصغيرة للماضي والأشياء التي لعب بها. لايمكن أن تغادرنا أبداً فيما توجد حياة هنا».

لم تبك ولم تتحرك وبدا حتى أنها لا تتنفس. فصرخ بوحشية:

- «أوه، يا زوجتي - إليزابث - قولي إنك ستؤمنين بعودته، سريعاً جداً - سريعاً - قبل أن تفتقديه. لا تتمددي هناك صامتة وضائعة. سيكون هنا عندما يحل الربيع. ينبغي أن تؤمني بهذا، أيتها العزيزة - يا عزيزتي». وبنعومة فائقة ربت على الوجنة الساكنة القريبة منه بأصابعه الرقيقة العظمية.

-٧-

كان قد تسلل من البيت في الفجر الكاذب، وبدأ بنشاط بالسير على طريق كارديف. كان ثمة شيء متجمد، مرتعب في فؤاده، وتساؤل في ما إذا كان يريد الذهاب أصلاً. بالنسبة لذهنه كان الخوف قد حاجج بأنه لو انتظر ليودع فهو لن يكون قادراً على ترك البيت الصخري، ولا حتى إلى الجزر.

كانت السماء تستحيل رمادية فيما اجتاز المراعي حيث كان يجري ويلعب، والمقلع حيث يوجد الكهف الذي كان ورفاقه يلعبون لعبة (اللصوص) البهيجة، التي يصير فيها هنري دائماً (واگ المتوحش)[1]، وتصير (تويم شون)[2] كاتي[3]، مهللين.

انتصبت الجبال حادة أمامه، مثل أشياء من الورق المقوى، وعلى طول حوافها السفلية أهداب فضية. هبت ريح فجر خفيفة هابطة المنحدرات، طرية وحلوة الرائحة، حاملة عبق أرض مترطبة وأوراق أشجار. صهلت خيول بنغمة حادة عليه فيما كان يمر، ثم اقتربت ومسته بلطف بأنوفها الناعمة؛ وطارت أسراب صغيرة من الطيور، وهي تقتات على زواحف الليل المتخلفة في شبه العتمة، في متناوله باعتراضات مجفلة.

مع ارتفاع الشمس كانت ثمة أميال جديدة خلفه. وفيما انزلقت الكرة الصفراء خلف القمم، ملونة كل غيوم الجبال المبعثرة، أنزل هنري ستارة ثقيلة على الماضي. كان الألم والوحدة اللذان سارا معه في الظلام قد دفعا إلى وراء وتركا وراءه. كانت كارديف قدماً. كان يجيء إلى بلاد جديدة لم يرها من قبل قط، وتحت أفق الصباح، الخابي والمجيد، كان كما لو أن التاج الأخضر للجزر يشع.

اجتاز قرى كان يجهل أسماءها، عناقيد صغيرة ودودة من أكواخ بدائية، والناس يبحلقون فيه كما يفعلون بغريب. كان أمراً مفرحاً لهنري الفتي. طالما كان قد حدق إلى آخرين كانوا غرباء، حالماً بمصائرهم والغموض اللذيذ الذي كان يدفعهم إلى أمام. كان اسم (غريب) يجعلهم كائنات عظيمة لها أهداف كبيرة. وها هو الآن غريب يجب التفكير به والتحديق إليه باحترام ما. أراد أن يصيح: «أنا في طريقي إلى جزر الهند»، ليوسع لهم عيونهم الفاترة ويزيد احترامهم. مخلوقات سخيفة، لا شوكة لها، عدّهم، لا حلم ولا إرادة لهم في ترك أكواخهم غير الناجزة، المكورة.

تغيرت الأرض. كان يأتي من الجبال إلى طريق، ريف لا محدود فيه قليل من التضاريس وأراضٍ مسطحة. رأى جحوراً واسعة مثل ثقوب سناجيب أميركية هائلة، ورجالاً قذرين سوداً يخرجون منها وعلى ظهورهم أكياس فحم. أفرغ عمال المنجم أكياسهم في كومة على الأرض ثم ساروا عائدين إلى الجحور. ولاحظ أنهم كانوا يحدودبون عندما يسيرون كما كانت الحقائب الثقيلة لا تزال تجرهم إلى أدنى.

جاءت الظهيرة، وعصر طويل صحو، ولا يزال هو يواصل السير

مجهداً. كان ثمة أريج جديد في الهواء، نَفس البحر الحلو المخضع. أراد أن ينفجر، في ركضة، نحوه مثل حصان عطش. وفي وقت متأخر من العصر زحف جيش من الغيوم السوداء على السماء. انطلقت ريح في أنفاسها جليد، وانحنت أمامها الحشائش. ومع ذلك بقي ماضياً إلى العاصفة المتجمّعة حتى تسلحت بطبقة جليدية وخزت وجهه بضراوة، وحتى مضى البرد يخترق سترته. كانت ثمة بيوت مفردة على جانبي الطريق، ولكن هنري ما كان ليبحث عن مأوى وطعام في أي منها. لم يكن يعرف عادات هذا المكان، ولا أسعار الأشياء، وينبغي لباوناته الخمسة أن تبقى سالمة عندما يصل أخيراً إلى كارديف.

أخيراً، عندما ازرقت يداه وتسلخ وجهه بفعل طبقة الجليد الفظة، زحف إلى مخزن حبوب حجري منفرد، مملوء بحشيش الصيف. كان هناك دفء وهدوء بعد صراخ الريح في أذنيه. كان الحشيش حلواً بالعسل المتيبس في سيقانه. أوى هنري إلى الفراش الوثير ونام.

كان مساء مظلم عندما استيقظ. تذكر، شبه حالم، أين كان، وفجأة عادت الأفكار تزدحم، بعد أن سد الطريق عليها منذ اليوم السابق، بأصوات صاخبة عالية النغم. قالت إحداها:

- «إنك لأحمق. تذكر الغرفة الكبيرة والأسنة والنار اللامعة. أين هي الآن؟ أوه، لن تراها بعد. لقد ذهبت مثل أشياء الحلم، وأنت لاتدري أين تذهب الأحلام. إنك لأحمق!»

- «لا، لا؛ اصغ إلي. فكر بي! لِمَ لا تنتظر إليزابث؟ أكنت خائفاً؟ نعم، كنت خائفاً. هذا الولد جبان، يا إخوان. إنه يخاف من بنت صغيرة صفراء الشعر - ابنة مستأجر».

وقاطع صوت حزين، بطيء:

- «فكر بأمك، يا هنري. كانت تجلس مستقيمةً وساكنةً عندما رأيتها آخر مرة. ولم تذهب إليها. لقد اكتفيت بالنظر من المدخل فيما ذهبت. ربما كانت ماتت في كرسيها، وفي عينيها نظرة أذى. كيف يمكنك أن تعرف؟ روبرت، أبوك ذاته - أتفكر به، الآن - وحيد، حزين، وضائع. إنه فعلك، يا هنري؛ لأنك أردت أن تذهب إلى جزر الهند فإنك لم تفكر في أي أحد آخر»:

- «وماذا تعرف عن المستقبل؟»، سأل صوت بالغ الدقة، مخيف، آخر. «سيكون الجو بارداً، وربما ستتجمد. أوقد يقتلك غريب ما من أجل مالك، على رغم قلّته. لقد وقعت أمور كهذه. كان ثمة دائماً من يرعاك ويتأكد من راحتك. أوه، ستتضوّر جوعاً! ستتجمد! ستموت! أنا واثق من هذا!»

ثم تقدمت أصوات مخزن الحبوب شيئاً فشيئاً بين معذِّبيه. مرت العاصفة، ولكن نسيمها تنهد حول الزوايا بحزن شبحي لا محدود. وبين أوانٍ وآخر كان يندّ عنه نحيب صغير من الأسف. ثمة صريف من الحشيش كما لو أن كل قشة كانت تتلوى وتحاول أن تتحرك منسلّة. تطايرت خفافيش في الظلام صارفة أسنانها الصغيرة، وكانت الفئران تصرخ بشكل مرعب.

كان قد بقي وحيداً من قبل، ولكن ليس وحيداً على هذا النحو من الشمول بين أشياء جديدة، في مكان لايعرفه. كان الرعب ينمو ويتضخم في صدره. لقد صار الوقت دودة كسولة تزحف متقدمة التفاهات الأكثر تجرداً، تتوقف وتهز رأسها الأعمى، ثم تزحف ثانيةً. كان يبدو أن

الساعات مرت فوقه مثل غيوم مبحرة بطيئة. فيما كان يتمدد مرتجفاً خوفاً. وفي الأخير طارت بومة داخلة وحومت فوقه، صائحة بجنون. فرقعت أعصاب الصبي الشديدة التوتر، فركض ناشجاً من مخزن الحبوب هابطاً الطريق نحو كارديف.

الهوامش

(١) Wild Wag
(٢) Twymm Shone
(٣) Catti

الفصل الثاني

طوال أكثر من قرن كانت بريطانيا تراقب بنفاد صبر فيما كان البرتغاليون والأسبان يتقاسمون، بإجازة البابا، العالم الجديد وينظمون الدوريات لحماية ممتلكاتهم من المتطفلين. وكان أمراً مريراً لإنكلترا التي يحبسها البحر هناك. ولكن أخيراً كان دريك(*) قد حطم الحد وأبحر. في المحيطات الممنوعة في الـ (الأيكة الذهبية) خاصته. كانت السفن الأسبانية الحمراء الضخمة تعدّ دريك مجرد ذبابة صغيرة تلدغ، شيئاً يزعج ينبغي قتله لطنينه، ولكن عندما هدمت الذبابة قلاعهم العائمة، وأحرقت لهم مدينة أو اثنتين، بل حتى أنها أقامت شركاً لقافلة الكنز المقدس عبر البرزخ، اضطروا لتغيير مفهومهم. كانت الذبابة دبوراً، عقرباً، مصاص دماء، تنيناً. سمّوه إل دراك[1]، ونشأ ارتعاب من الإنكليز في العالم الجديد.

عندما سقطت الأرمادا[2] أمام الإنكليز والبحر الغاضب، ارتعبت أسبانيا من هذه القوة الجديدة التي انبعثت من جزيرة على ذلك الصغر البالغ. كان محزناً التفكير بهذه السفن المنقوشة البراقة تتمدد على القعر أو تمزق إلى شظايا على الساحل الإيرلندي.

ومدت بريطانيا يدها إلى البحر الكاريبي؛ ووقعت بعض الجزر تحت

(*) Drake ، فرانسس (١٥٤٠ ؟ - ١٥٩٦) اشهر رجال البحر في عصر إليزابث الأول ، لعب دوراً في «فتح» عدد من دول العالم الجديد وفي القضاء على الأرمادا الأسبانية .

سلطتها - جامايكا، البربادوس. صار ممكناً الآن بيع محصولات الجزيرة الأم في المستعمرات. وقد أضاف اعتباراً لبلد صغير امتلاكُه مستعمرات، شريطة أن تكون مسكونةً بشكل قوي، فبدأت إنكلترا تملأ ممتلكاتها بالسكان.

أبحر الأبناء الأصغر، المبذرون، السادة المفلسون، متجهين إلى جزر الهند. كانت طريقة رائعة للتخلص من شخص خطير. ما كان على الملك إلا منحه أرضاً في جزر الهند، ثم يعرب عن رغبته في أن يعيش على ممتلكاته ويحرث التربة الغنية هناك من أجل التاج الإنكليزي.

كانت السفن المبحرة خارجاً مزدحمة بالمستوطنين، المقامرين، مستطلعي أخبار خيول السباق، المنشقين، البابويين - الكل من أجل امتلاك الأرض، ولا أحد منهم كي يعمل عليها. لم يكن بمقدور سفن العبيد البرتغالية والهولندية أن تحرك لحماً أسود من أفريقيا بسرعة تكفي لتوفير المطالب المتزايدة لأولئك الذين يتحرقون إلى العمال.

ثم تجمع المجرمون خارج السجون، والمشردون من شوارع لندن، والشحاذون الذين كانوا يقفون طوال النهار أمام أبواب الكنائس، وأولئك المشكوك بكونهم سحرةً أو بخيانتهم أو بإصابتهم بالجذام أو بإيمانهم بالبابوية؛ وأرسل هؤلاء جميعاً للعمل في المزارع تحت أوامر عقود بالتزام. كانت خطة بارعة؛ تم توفير العمل الذي تقوم الحاجة إليه، وتلقى التاج فعلاً المال عن الأجساد عديمة القيمة لأولئك الذين أطعمهم وكساهم وشنقهم ذات يوم. كان ممكناً صنع المزيد من هذا. بيعت حزم كاملة من أوامر الإلزام العقدي، التي ختمتها الحكومة مسبقاً، تاركة أماكن خالية لكتابة الأسماء، إلى قباطنة سفن معينين. وزودوا

بتعليمات تنص على أن يعملوا بتكتم بالغ بخصوص الأسماء التي يكتبونها.

ونمت صفوف من القهوة والبرتقال والقصب والكاكاو، وازداد انتشارها في الجزر. كانت ثمة بعض المشكلات، بالطبع، عندما تناقصت عقود الالتزام. ولكن أحياء الفقراء في لندن ربّت عبيداً جدداً بسرعة كافية، علم الله! ولم يصر الملك قط في عوزٍ إلى عدد وافر من الأعداء.

كانت إنكلترا تصير قوة بحرية بحكامها وقصورها وكتبتها في العالم، وكانت سفن محملة بأشياء مصنوعة تبحر خارجة من ليفربول وبريستول بأعداد مطردة التزايد.

الهوامش

(١) El Draque

(٢) Armada : الأسطول الذي وجهه فيليپ الثاني سنة ١٥٨٨ لغزو إنكلترا ، فتصدى له الأسطول الإنكليزي وانزل به خسائر جسيمة زادتها الزوابع التي هبت في الوقت ذاته!

-١-

مع طلوع النهار، كان هنري في ضواحي كارديف، وقد زال كل رعبه واكتنفته دهشة متفتحة جديدة. لأنها كانت شيئاً لا يصدق، مدينة البيوت هذه، صفاً على صف - لا يتشابه صفان منهما تماماً - تمتد خطوطهما بلا انتهاء مثل جيش في الطين. لم يكن قد اعتبر قط حجماً كهذا عندما كان الناس يتحدثون عن المدن.

كانت الحوانيت تفتح مصاريعها، عارضة بضائعها، وراح هنري يحدق، مفتوح العينين، إلى كل من يمر. هابطاً شارعاً طويلاً، مضى حتى وصل أخيراً إلى الأرصفة بحقولها من الصواري التي تشبه حنطة نامية، وغيومها ونسيج عناكبها من تجهيزات بنيت في سعار واضح من الفوضى. كان ثمة تحميل رزم وبراميل وحيوانات مذبوحة، إلى بعض السفن، وكانت أخريات تلفظ من بطونها بضائع في صناديق وشوالات أجنبية غريبة من القش المضفور. كان نشاط هائل من الإثارة يحيا حول الأرصفة. أحس الصبي أثر العطلة ذاك الذي حل عليه عندما كان الرجال يقيمون السرادقات لإقامة معرض في موطنه.

انطلقت أغنية مرتفعة من سفينة كانت تنطلق لتوها، وكانت الكلمات واضحة للغاية، كلمات أجنبية جميلة. كان صفق الماء أبدان

السفن الناعمة فرحاً له إلى حد موجع. أحس أنه عاد ثانية إلى مكان محبوب، معروف، بعد أيام وليالٍ من هذيان الحمى المجنون. جاءت الآن أغنية عظيمة من عدة أصوات من الثكنة المتحركة، وارتفعت مرساتها من الماء، تساقط أشرعتها من الساحات وحجزت ريح الصباح. انزلقت الثكنة من منبتها وتحركت بلين هابطة القنال.

قدماً سار إلى حيث السفن تتمايل، عارضة طحالب وأحياء بحرية، تجمعت في كثير من المحيطات، تتدلى على جوانبها اللامعة. كان ثمة طَرْق قصير سريع لمواد سد الشقوق ومبارد الحديد على الخشب، وأوامر فظة تتجمع لتصير هديراً من جانب الأبواق الناطقة.

عندما ارتفعت السماء إلى موقع عال، بدأ هنري يحسّ أنه جائع. تجول بطيئاً، مولياً المدينة ظهره، باحثاً عن إفطار له، متحفظاً في ترك الأرصفة حتى بحثاً عن طعام. والآن كان المجندون بالإكراه يخرجون من جحورهم والمقامرون متنشقو مخاطهم، الذين يصطادون البحارة. وهنا وهناك، كانت امرأة شعثاء الشعر، نعسانة العينين، تعدو مسرعة نحو بيتها كما لو كانت تخشى أن تعوقها الشمس. كان البحارة المتمتعون بإجازات على الساحل يفركون عيونهم المنتفخة وينظرون إلى السماء بحثاً عن علامات الجو فيما كانوا يتسكعون مقابل الجدران، وتساءل هنري ما الذي رآه هؤلاء الرجال في أيام الإبحار في حيواتهم. تزحزح جانباً ليسمح لصف من عربات اليد وعربات المزارع المحملة بصناديق وبالات للسفن، ثم تعين عليه أن يتفادى صفاً آخر كان يتقدم، محملاً ببضائع ممّا وراء البحر.

وصل أخيراً نزلاً مزدحماً. كان يدعى «الكلاب الثلاثة»، وها هي

على الرقعة تبدو مثل ثلاثة جمال أحادية السنام مجفلة. دخل هنري ووجد مبنى واسعاً مزدحماً بالناس. وسأل رجلاً سميناً يضع مريلة إن كان بمقدوره أن يحصل على إفطار.

- «أعندك مال؟»، سأل المضيف مرتاباً.

ترك هنري الضوء يسقط على قطعة ذهبية في يده، ثم - وهو يؤدي علامة القوة - كانت المريلة تنحني وتسحبه برقة من الذراع. طلب هنري فطوره ووقف يتطلع إلى النزل.

كان ثمة كثير جداً من الناس في الغرفة يجلسون إلى موائد طويلة أو يستندون إلى الجدران؛ وكان بعضهم، حتى، يجلسون على الأرض. وكانت فتاة صغيرة تخدم، تسير بينهم حاملة صينية مشروبات. كان بعضهم إيطاليين من سفن جنوا والبندقية، جاءت بأخشاب نادرة وبهارات جرى حملها على ظهور الجمال من المحيط الهندي إلى بيزنطة. فرنسيون كانوا هناك من زوارق نبيذ بوردو وكاليه، قد يكون معهم أحياناً باسكي مربع الوجه، أزرق العينين. وكان سويديون ودانماركيون وفنلنديون من صيادي حيتان المحيط الشمالي... رجال قذرون يبعثون رائحة دهن حوت متفسخ، وعلى بعض الموائد كان هولنديون قساة يتاجرون بحمل العبيد السود من غينيا إلى البرازيل. وكان ينتشر بين هؤلاء الرجال الأجانب بعض مزارعي كامبريا، الذين يبدو عليهم أنهم مرتعبون، خجولون ووحيدون. كانوا قد جلبوا خنازير وخرافاً من الريف لتزويد السفن بالأغذية، وكانوا الآن يلفون طعامهم بحيث يمكنهم الوصول إلى بيوتهم ثانية قبل حلول الظلام. كان هؤلاء يبحثون عن الأمن لرجال ثلاث سفن بحرية يرتدون بزات الملك كانوا يتحدثون معاً عند الباب.

أضاع هنري الفتي نفسه في صخب الغرفة المحبب. كان يسمع خطاباً جديداً ويشاهد مناظر جديدة: أقراط الجنويين، سيوف الهولنديين القصيرة التي تشبه السكاكين، ألوان الوجوه من الأحمر كلحم البقر إلى البني المملوح بالشمس. كان يمكن أن يقف النهار بطوله هناك دون أن تقوم فيه معرفة لمرور الزمان.

أخذت يد كبيرة مرفقه، يد ترتدي قفاز الدُشبد(١)، ونظر هنري إلى أسفل إلى الوجه البريء الصريح، العريض، لبحار أيرلندي.

«أستبقى جالساً هنا، أيها الفتى، إلى جانب بحار شريف من (كورك) يدعى تيم؟» بينما كان يتكلم هصر بعنف جاره، دافعاً إياه جانباً وتاركاً مجالاً ضيقاً على طرف المصطبة للفتى. لا يوجد رجال يشبهون الأيرلنديين في صيرورتهم رقيقين بشكل وحشي. ولم يعرف هنري، وهو يأخذ المقعد، أن البحار القادم من كورك قد رأى قطعته الذهبية.

- «أشكرك»، قال. «وإلى أين ستذهب مبحراً؟»

- «آه! إلى أي مكان تذهب السفن أبحر»، أجاب تيم. «أنا بحار شريف من كورك لاعيب فيّ غير أن جيبي لم يرَ بريق مسكوك. وإنني أتساءل، الآن، كيف سأدفع ثمن الفطور البديع، وليست عندي لمعة واحدة»، قال ببطء وتأكيد.

- «أوه، إذا لم يكن عندك مال، فسأشتري لك الفطور - لكي تحدثني عن البحر والسفن».

- «عرفت أنك ستكون سيداً»، صاح تيم. «عرفت في الدقيقة التي حطت عيناي عليك ناعمتين مثل - مع كأس مشروب صغير

للبدء؟» ونادى طالباً مشروبه دون أن ينتظر موافقة هنري، وعندما جاء رفع المشروب البني إلى عينيه.

- «ويسكيبوه، هذا ما يدعوه الأيرلنديون. وهذا يعني ماء الحياة؛ ويدعوه الإنكليز «ويسكي» - مجرد ماء. عجباً! لو أن للماء الجسد البديع والبريق الشريف لهذا، فإن الإبحار هو ما سأتخلى عنه وأتعوّد السباحة!» وضحك بصخب وأمال الكأس إلى أعلى.

أدلى هنري، ساعياً لإعادته إلى الحديث عن البحر:

- «أنا ذاهب إلى جزر الهند».

- «جزر الهند؟ عجباً، أنا أيضاً، غداً صباحاً، انطلق إلى البربادوس مع سكاكين ومناجل وبضائع لباس للمزارع. إنها سفينة جيدة - سفينة من بريستول - ولكن السيد رجل صعب ومتصلب بالدين من مستعمرة بلايموث. إنه يزأر عليك بنار الجحيم ويسميها صلاة وتوبة، ولكنني أظن أن ثمة ابتهاجاً فيه من الاحتراق. إننا سنحترق قدماً لو تمكّن. أنا لا أفهم دينه، ليس فيه سلام مريمي[٢] قط، فكيف يمكن أن يكون ديناً أصلاً؟»

- «هل تظن - هل تظن، ربما - أن بمقدوري أن أذهب إلى سفينتك معك؟»، سأل هنري مختنقاً.

انطبقت الأجفان على عيني تيم البريئتين وقال ببطء:

- «لو كانت عشرة باونات هي ما عندك...»، ثم، وهو يرى الأسف على وجه الصبي: «خمسة، أقصد -».

- «عندي شيء فوق الأربعة، الآن»، انفجر هنري في حزن.

- «حسناً، ويمكن للأربعة أن تكفي، أيضاً. اعطني باوناتك

الأربعة، وسأكلم السيد. إنه ليس رجلاً سيئاً عندما تتعرف عليه، فقط هو غريب ومتدين. لا، لاتنظر إلي هكذا. أنت تعال معي. لا أستطيع أن أهرب بأربعة باونات تعود لصبي اشترى لي الفطور أبداً». وانفرج وجهه في ابتسامة عظيمة. قال:

- «تعال، لنشرب لكونك ذاهباً معنا في (فتاة بريستول). ويسكيبوه لي ونبيذ (أوپورتو) لك!» ثم جاء الفطور فانكبا على الأكل. وبعد بضع لقمات قال هنري:

- «اسمي هنري مورغان. ما اسمك الآخر، إضافة إلى تيم؟» فضحك البحار من القلب:

- «حسناً، لو كان لي اسم غير تيم لوجدته يرفس هنا وهناك في أخدود دولاب في كورك. أبي وأمي لم ينتظرا ليخبراني باسمي. ولكن تيم كان علي من دون إعطاء. تيم نوع من الاسم المجاني الذي يمكنك أن تأخذه، هكذا، دون أن يذكر ذلك أحد، مثل الأوراق الصغيرة التي يتركها الـ (منشقون)[٢] في الشوارع، وهم يركضون فارّين كي لا تُشاهد معهم. يمكنك أن تتنفس تيم كالهواء، ولا يمسّك أحد».

انتهى الإفطار، ذهبا إلى الشارع، مشغولين بتجارة العربات وصبيان البرتقال والعجائز الدوّارات. كانت المدينة تصرخ منادية على مشاغلها الألف، وكان يبدو أن الأشياء المرهفة من زوايا العالم البعيدة، غير الدنيوية، التي جلبتها السفن وكوّمتها مثل كتلة طينية على نُضُد كارديف المتربة: الليمون، صناديق القهوة والشاي والكاكاو، السجاجيد الشرقية البراقة، وأدوية الهند السحرية التي تجعلك ترى أشياء لا ترى، وتحس مسرات تطير مبتعدة مرة أخرى. وواقفة في الشوارع كانت براميل

وأوعية فخارية تحوي نبيذاً من ضفاف اللوار والمنحدرات البيروية.

وعادا ثانية إلى الأرصفة والسفن الجميلة. فاحت عليهما رائحة القار والقنب الذي حرقته الشمس وحلاوة البحر، من الماء. وأخيراً، إلى أقصى الطرف الأدنى من الصف، رأى هنري سفينة سوداء ضخمة، و (فتاة بريستول) منقوشة بحروف من ذهب على قيدومها. وبدت المدينة وكل السفن القديمة المسطحة قبيحة وجديرة بالازدراء إلى جانب حسناء البحر هذه. خطوطها الممتدة المقوسة، وثباتها الحسي كانا أمرين منشّطين يرسلان أنفاسك تنبهر متعة. كانت أشرعة بيض جديدة تتدلى من عوارض أشرعتها مثل شرانق نحيلة، طويلة من دود القز، وكان ثمة دهان أصفر جديد على عرشاتها. كانت تستقر هناك، مرتفعة قليلاً على موج بطيء، تعض على شكائمها، نافدة الصبر للانطلاق إلى أيّ أرض تقع في خيالك. ملكة سبئيّة سوداء كانت، بين مراكب الميناء البنية الكالحة.

- «أوه، إنها سفينة عظيمة - سفينة بديعة»، صاح هنري، وقد صعقته الدهشة.

كان تيم فخوراً:

- «ولكن اصعدها فقط، وانظر إلى التجهيزات - كلها جديدة. سأكلم الرئيس عنك».

وقف هنري في وسط السفينة فيما كان بحار ضخم يتمشى قريباً ويسحب قبعته أمام هيكل نحيل لرجل في بزة متهرئة.

- «عندي فتى»، قال، مع أن هنري لم يستطع أن يسمع: «فتى علّق فؤاده على جزر الهند، وأنا أتصور بأنك قد تأخذه، يا سيدي».

عبس الرئيس الجائع عليه.

- «أهو فتى قوي يمكن أن يكون ذا فائدة في الجزر، في بوسطن؟ إن كثيراً منهم يموتون خلال شهر، وها أنت تجد مشكلة في السفرة التالية».

- «إنه هناك، ورائي، يا سيدي. يمكنك أن تراه بنفسك، واقفاً هناك - وجيد البنية جداً ومحبوك النسج هو، أيضاً».

تملّى الرئيس الجائع هنري، مجرياً عينيه من الساقين الثابتين إلى الصدر الممتلئ. وازداد إعجابه.

- «إنه فتى قوي، صحيح، وعمل جيد لك، يا تيم. ستحصل على مال شراب وقليل من زيادة حصة الروم في البحر. ولكن أيعرف شيئاً عن الترتيب؟»

- «ولاشيء».

- «حسناً، إذن، لا تخبره. شغّله في التجذيف. سيظن أنه يشتغل لقاء توصيله. لافائدة في العراك كالقطط وإزعاج الرجال وإبعادهم عن المراقبة. دعه يكتشف عندما يصل هناك». وابتسم الرئيس، وسار مبتعداً عن تيم.

- «يمكنك أن تنطلق معنا في السفينة»، صاح البحار، فلم يستطع هنري أن يتحرك لسروره. «ولكن..»، استأنف تيم جاداً. «ليست الباونات الأربعة كافية للتوصيل. سيتعين عليك أن تشتغل قليلاً في التجذيف ونحن نبحر».

- «أي شيء»، قال هنري. «سأفعل أي شيء، فقط لأتمكن من الذهاب معكم».

- «دعنا إذن نذهب إلى الشـاطئ ونتناول نخب رحلة بديعة مجانية، ويسكيبوه لي، ومن ذلك النبيذ العظيم إياه لك».

جلسا في حانوت مترب كانت جدرانه تصطف عليها القناني من جميع الأشكال والأحجام، قوارير سمينة صغيرة إلى دامجانات عملاقة. وبعد قليل من الوقت راحا يغنيان معاً، ضابطين الإيقاع بأيديهما ومبتسمين ببلاهة أحدهما نحو الآخر. ولكن في الأخير ملأ نبيذ (أوبورتو) الدافئ الفتى بحزن مبهج. أحسّ بأن دموعاً ستنزل من عينيه، وكان منشرحاً لذلك نوعاً ما. سيبين ذلك لتيم أن عنده حسراته - أنه لم يكن مجرد فتى مغفل عنده توق شديد للذهاب إلى جزر الهند. سيكشف أعماقه. قال:

- «أتعرف يا تيم؟ كانت ثمة فتاة افترقت عنها، وكانت تدعى إليزابث. كان شعرها ذهبياً - ذهبياً كالصباح. وفي الليلة قبل أن أبتعد، زرتها وجاءت إلي في الظلام؛ كان الظلام حولنا مثل خيمة، وبارداً. بكت وبكت متوسلة أن أبقى، حتى عندما أخبرتها عن الأشياء البديعة والحلي الصغيرة والحرائر التي سأعود بها لها خلال وقت قصير. ما كان ذلك ليسليها قط، وإنه لأمر محزن لي أن أفكر في بكائها هناك على سفري». واغرورقت عيناه بالدموع.

- «أعرف». قال تيم برقة. «أعرف أنه أمر محزن للرجل أن يترك فتاة وينطلق إلى البحر. أفلم أترك أنا مئات منهن - وكلّهن جميلات؟ ولكن ها هي كأس أخرى لك، أيها الفتى. النبيذ خير للمرأة من كل فطائر فرنسا الحلوة، والرجل يشربه. النبيذ يجعل كل امرأة محبوبة. آه! لو أن العاديات منهن يضعن جرنا صغيراً من النبيذ في أبواب منازلهن

كماء الكنيسة المقدس، فستكون ثمة زيجات أكثر في المدينة. ما لرجل قط أن يعرف حاجتهن للمظاهر. ولكن خذ كأساً أخرى من النبيذ العظيم، أيها الفتى الحزين، ولربما كانت أميرة وأنت تركتها».

الهوامش

(١) مادة التئام العظام المكسورة .

(٢) سلام جبريل للعذراء : ليكن سلام لك يا مريم .

(٣) عن الكنيسة الأنجليكانية .

-٢-

كانوا ينطلقون نحو جزر الهند - جزر الهند البديعة، البعيدة، حيث تعيش أحلام الفتيان. تتمدد شمس الصباح مجاهدة وسط ضباب رمادي، وعلى العرشة يندفع البحارة بأعداد كبيرة مثل شاغلين غاضبين لقفير مكسور. كانت ثمة أوامر قصيرة وبحارة متحلقون يغنون أغنية بكرة المرساة في حين راحت المراسي ترتفع من البحر وتتدلى إلى الجوانب مثل بشّارات ناضحة، بنية.

منطلقة إلى جزر الهند - كانت الأشرعة البيض تعرف ذلك وهي تثب مهتاجة وتمتلئ برهافة مثل أشياء من حرير، وتعرفه السفينة السوداء فتعلو مزهوة المد الهارب قبل ريح صباح صغيرة طازجة. على هون زحفت (فتاة بريستول) خارجة من بين السفن وهابطة القنال الطويل.

كان الضباب يمتزج ببطء مع السماء. وأصبح ساحل كامبريا الآن أزرق فأشحب زرقة حتى تلاشى في الأفق المستقيم مثل منظرٍ مجنونٍ للصحراء. كانت الجبال السوداء غيمة، ثم شيئاً من دخان شاحب، ثم راحت كامبريا، كما لو لم تكن قط.

عبروا (پورلوك) على جانب الميناء، و (إلغراكومب)، وعديداً من القرى الباهتة المندسة في ثنايا (ديفون). واجتازت بهم الريح المعتدلة

الحلوة (ستراتون) و (كاميلفورد). كانت (كورنوال) تنسل مبتعدة خلفهم، فرسخاً على فرسخ أزرق. ثم (نهاية البر)، الذؤابة المستدقة من حنك بريطانيا، و - فيما استداروا نحو الجنوب - حل الشتاء أخيراً.

أخذ البحر يعلو عليهم ويتشابك فوقهم، فيما كانت السفينة تركض أمام كلاب البحر الصارخة، مثل أيَّل واثق قوي، تركض بشجاعة تحت المجاري والأشرعة المنشورة. عوت الريح خارجة من بيت الشتاء في الشمال، وهزأت بها (فتاة بريستول) على وجهها نحو الجنوب الغربي. كان الجو بارداً، ونبضت متوترةً حبالُ الصواري المتجمدة في الريح مثل أوتار قيثارة هائلة اقتلعها عملاق مخبول، وزأرت العوارض شكواها للأشرعة المتوترة.

طاردتهم العاصفة الملحاح أربعة أيام قاسية في البحر والسفينة مبتهجة في الصراع. تجمع البحارة في السلوقية[1] ليفخروا بسرعتها ووضعها المحكم. وفي هذا الوقت ابتهج هنري مثل إله صغير. كان سعار الريح سعاره. كان بمقدوره أن يقف على العرشة، مثبّتاً على الصاري، وجهه إلى الريحِ، قاطعاً إياها بحنكه كما يقطع القيدوم الماء، ويملأ جذلٌ مترنمٌ صدرَه حتى الانفجار - فرح كالألم. كان البرد يمسح عدستي عينيه بحيث كان يرى أوضح في الأقصى المبتعد الممتد في دائرة حوله. هنا كانت الرغبة القديمة تُكتسح برغبة جديدة، لأن الرياح جلبت اشتياقاً لأن تكون له أجنحة جارفة والسماء اللامتناهية كلها كمنظر. كانت السفينة سجناً مصوّتاً هزازاً له، هو الذي كان لولا ذلك سيطير إلى أمام وإلى أعلى. آه! أن يكون إلهاً وأن يمتطي الريح! لا أن يكون تحتها. هنا كان سكر الرياح، رغبة تشبع رغبة فيما تدفع تلهفه قدماً. بكى طلباً لأكتاف

القوة الكلية، ونفخت العناصر في عضلاته قوةً جديدةً.

ثم، وبالسرعة التي انطلق بها خدم شيطان السنة نحوهم، انسلوا مبتعدين، مغادرين بحراً نظيفاً صافياً. أبحرت السفينة بكل أشرعتها مفتوحة أمام الريح التجارية[٢] الأبدية. إنها ريح معتدلة طرية من الجنة، يتنفسها إله الملاحة للسفن الطويلة ذات الأشرعة. تركهم كل التوتر، وراح البحارة يلعبون حول العرشة مثل أطفال أقوياء متوحشين - لأن ثمة سعادة فتية في الريح التجارية.

جاء الأحد، وهو يوم خوف ونذير شر ونكد على (فتاة بريستول). أنهى هنري عمله في التجذيف وذهب إلى العرشة. كان بحار عجوز يجلس على بويب هبوط يضفر حبلين طويلين معاً. كانت أصابعه يبدو الواحد منها مخلوقاً ذكياً فطناً وهي تعمل، سيدها لم يكن ينظر إليها قط. وبدلاً من ذلك، كانت عيناه الزرقاوان الصغيرتان تنظران، كعيون البحارة، وراء نهايات الأشياء.

- «إذن، فأنت تعرف أسرار السطور؟»، قال، دون أن يبعد نظره عن الأفق. «حسناً، ليس عليك إلا أن تراقب. لقد مضى علي وقت طويل أفعل ذلك بحيث نسي رأسي العجوز كيف، إن أصابعي فقط تتذكر. لو أنني أفكر فيما أفعل لتخلبطت. أستصير بحاراً وتذهب محلّقاً ذات يوم؟»

- «حسناً، أحب ذلك، لو أنني استطعت أن أتعلم الاشغال»، قال هنري.

- «ليس صعباً كثيراً أن تتعلم الاشغال. عليك أن تتعلم أولاً أن تتحمل أشياء لم يسمع بها ناس البرّ قط. ذاك هو الأمر الأول. إنه قاس

للغاية، ولكنك لن تتركه أبداً بمجرد أن تبدأ. ها أنا أحاول أن آخذ سفينتي البطيئة القديمة إلى الساحل وأرسيها أمام نار، منذ اثنتي عشرة سنة. أريد أن أفكر هنيهة وأموت. ولكن بلا جدوى. في كل مرة أجد نفسي أركِّض ساقي كي أصعد هذه السفينة أو تلك».

قاطعه القرع الوحشي لجرس السفينة.

- «تعال»، قال. «سيحدثنا الرئيس بالحكايات الساخنة الآن».

كان الرئيس عبوس الوجه يقف أمام بحارته، مسلحاً بإلهه. كان الرجال ينظرون إليه بخوف، كما تحدق الطيور الصغيرة إلى أفعى مقتربة، لأن إيمانه كان في عينيه وكلمات الغضب تسّاقط من شفتيه الرقيقتين. صرخ:

- «لقد ضربكم الله بمجرد عنوان قوته المحطِّمة. لقد أراكم قوةَ أصبعه الأصغر كي تتوبوا قبل أن تروحوا صارخين إلى نار الجحيم. اسمعوا اسم الرب في الريح المخيفة وتوبوا عن دعارتكم وكفركم! آه! سيعاقبكم حتى على الأفكار الشريرة في رؤوسكم. ثمة رمز في البحر سيطبق على حناجركم مثل يد مجمدة ويخنقكم بالرعب. ولكن الآن، وقد مرت العاصفة، فقد نسيتموها. إنكم سعداء، والندم ليس فيكم. ولكن احذروا درس الرب. توبوا! توبوا! وإلا فسيدمركم الغضب».

لوح ذراعيه بوحشية وتحدث عن الموتى المتوحدين البائسين، الذين يعانون ويحترقون من أجل أخطاء بشرية باهضة، وأخيراً صرف رجاله والرعب يملؤهم.

- «ليس الأمر هكذا»، قال البحار العجوز لهنري بضراوة. «لا تلق بالا لكلامه المجنون. إن من صنع العاصفة - الله أو الشيطان - إنما

صنعـهـا من أجل ذاتهـا وقـد تمتع بهـا. أي كـائن يمكنه أن يقـذف الريح بحيث لا يزعـج نفسه حول شظايا مركب يعوم في الكون الفسـيح. أعرف أنني لن أفعل، لو أنني كنت ذلك الله أو الشيطان».

كـان «البوسطوني»، تيم، قد نطق آخر كلمـاته، وقد أخذ الآن ذراع هنري بحماية. وقال:

- «صحيح لك، ولكن لا تجعله يرتد إليه أنك تقول أشيـاء كهذه أو تسمعهـا بأذنيك، وإلا فسـيعرض لك قـوة الله على طرف حبـل. هو وإلهه زوج قاس إذا ما انكبا عليك، وأنت فتى تفرك القدور عند المجاذيف».

واصلت الريـح التـجـارية النفخ بلا توقف، ثم - عـندمـا أنهى هنري صقله وتقشيره، تحدث إلى رجل فيما وضع يداً على الحبال ومضى عالياً وتعلم أسماء عُدّة السفينة وأعمالها. وجده البحارة فتى هادئاً مجاملاً، له طريقة في النظر إليهم كما لو أن كلامهم كان هبة عظيمة، وهم، رجالاً حكماء لطيفين لأنهم يقدمونها له، وهكذا علموه ما وسعهم، لأن هذا الفتى، كـان من الواضح أنه خلق للبحر. تعلّم أناشيد تغيير المسار القصيرة والطويلة، واحدة سريعة وعصبية والأخرى إيقاع دوار بطيء. غنّى معهم أغاني الموت والعصيان والدم في البحر. إلى شفتيه جاءت شتائم البحارة الغريبة نظيفة، وانغسلت عبارات الوسخ والتجديف والرعب حتى النظافة، بسبب خلوها من المعنى في فمه.

وفي الليـالي كـان يتمـدد بهدوء فيـمـا يتكلم الرجـال عن عجـائب شاهدوها أو تخيلوها؛ عن ثعابين طول الواحد منها ميل تلتف حول السفن وتسحقها وتبتلعها، وسلاحف من الكبر بحيث أنها تحوي أشجاراً وجداول وقرى كاملة على ظهورها ولا تغوص إلا مرة كل خمسمئة سنة.

تحت المصابيح المتأرجحة قصّوا كيف يقدر الفنلنديون أن يصفروا فيقيموا عاصفة ميتة من أجل انتقامهم، كيف كانت ثمة فئران بحر تسبح إلى السفن وتقرض فجوات عبر الأرضيات الخشبية حتى تغرق السفن. وتحدثوا بشكل يبعث على الرجفة كيف أن المرء، إذ شاهد الأمر المرعب، وقد صار كراكناً[٢] لزجاً، قد لا يرى اليابسة ثانية بسبب اللعنة التي كانت عليه. كانت دفقات الماء في كلامهم، والأبقار الخائرة التي كانت تعيش في البحر وترضع عجولها كأبقار الأرض، وسفن الأشباح تبحر بلا نهاية حول المحيط باحثة عن مرفأ ضائع، وقد صنع عدتها بحارة كانوا مجرد هياكل مقصورة. وهنري، المطروح هناك، يتطاول مبهور الأنفاس طلباً لكلماتهم بشرهه.

في ليلة كهذه، مطّى تيم نفسه وقال:

- «أنا لا أعرف شيئاً عن حياتكم الطويلة قط، ولم أر الكراكن، غفر الله لي! ولكن عندي، أنا نفسي، نتفة من قصة لو كنتم تصغون.

«جرى ذلك عندما كنت صبياً مثل هذا الصغير هنا، وأنا أبحر في سفينة حرة تطوي المحيط نلتقط من هنا ومن هناك - بعض الأحيان بضعة عبيد سود وبين آونة وأخرى خاتم ذهب من صنعة أسبانية لم تستطع مساعدة نفسها - ما تمكنا أن نحصل عليه. كان عندنا رئيس منتخب ولا أوراق قط، ولكن كان ثمة أنواع مختلفة من الرايات، وهي على الجسر، لو كنا نميز سفينة حرب في المنظار، كنا نجري نحوها.

«حسناً، على أية حال، كما أخبرتكم، ذات صباح كان ثمة مركب صغير ثلاثي الصواري على الميمنة، ونحن نرطِّب الشراع كي نسحبه إلى أسفل، وقد فعلنا ذلك، أيضاً. أسبانية، كانت، وفيها شيء قليل عدا

الملح والجلود الخام الرطبة. ولكن عندما قلبنا المقصورة كانت ثمة امرأة مستقيمة فارعة الطول لها شعر أسود، وجبهة بيضاء طويلة، وأنحف أصابع نظرت إليها بعينيّ. وهكذا أخذناها إلى سفينتنا ولم نأخذ الباقين. كان القبطان يرى قيادة المرأة إلى سطح المؤخرة إلى جانبه، عندما تدخل بوسطني.

«نحن بحارة أحرار»، يقول. «وأنت الرئيس بالانتخاب. نحن أيضاً نريد المرأة»، يقول، «وإن لم نحصل عليها سيقع بعض العصيان خلال دقيقة». عبس القبطان فيمن حوله، ولكن كان ثمة البحارة معبسين رداً عليه، وهكذا سحب كتفيه وضحك - نوعاً بغيضاً من الضحك.

«كيف ستقررون؟» سأل، ظاناً أن قتالاً كبيراً سينشب على المرأة. ولكن البوسطني استل قطع زهر من جيبه ورماها على العرشة.

«سنستخدم هذه!» كان يقول، وخلال دقيقة واحدة كان كل واحد من البحارة راكعاً ماداً يده نحو الزهر. ولكنني كنت أتملى المرأة الواقفة هناك بمفردها بنظرة طويلة. أقول لنفسي «ذلك نوع صلب من النساء، ونوع يمكن أن يقوم بأشياء قاسية لإيذاء الرجل الذي تكرهه. لا، يا بني»، كنت أقول، «الأفضل لك ألا تدخل هذه اللعبة».

«ولكن عندئذ بالضبط ركضت المرأة السمراء إلى الحاجز والتقطت كرة حديدية مستديرة ثقيلة من الحوامل وقفزت عابرة وهي تحتضنها بين ذراعيها. ذلك كان كل شيء! ركضنا إلى الحاجز وتطلعنا - ولكن لم يكن مرئياً غير قليل من الفقاعات.

«حسناً، وبعد ليلتين، إذ كان مراقب المؤخرة على وشك أن يمضي إلى المقدمة حين قف الشعر على رأسه. «ثمة شيء أبيض، وهو يسبح

ورا ءنا »، يقول. «والمظهر الذي عليه يشبه المرأة التي مضت متسلقة سطح السفينة».

«بالطبع ركضنا ونظرنا من فوق أعلى المؤخرة، وأنا لم أر شيئاً قط، ولكن الآخرين قالوا إنه كان ثمة شيء له يدان بيضاوان تمتدان لتنوشا القائم الخلفي لمركبنا، ليس سابحاً وإنما مجرد مجرور ورا ءنا كما لو كانت السفينة حجر مغناطيس وهو قطعة حديد. يمكنكم أن تعرفوا أنه كان ثمة نوم قليل تلك الليلة. ولكن أولئك الذين ناموا قليلاً انتحبوا في نومهم، ولا حاجة لي إلى أن أخبركم إلى ما يؤشر ذلك الشيء بالذات.

«في الليلة التالية، صعد البوسطني من العنبر زاعقاً مثل مجنون، وقد استحال الشعر في رأسه رمادياً كله. أمسكنا به ولاطفناه لفترة، وأخيراً تمكن أن يهمس:

« (رأيتها! أوه، يا إلهي، لقد رأيتها! كانت ثمة يدان ناعمتا المظهر، بيضاوان، طويلتان، أصابعهما نحيلة - وقد جاءتا عبر الجانب وبدأتا تشرطان الألواح كما لو كانت ورقا. أوه، يا إلهي! خلصني!).

«ثم أحسسنا السفينة تصاب بانحراف وتبدأ بالهبوط إلى أدنى.

«حسناً، جاء ثلاثة منا عائمين إلى الساحل على قائم إضافي وتخبل اثنان منهم - المسكينان - وكانوا متوحشين كالقطط. لم أسمع قط إن كان آخرون قد أنقذوا أم لا، ولكنني أظن أن لا. وذلك أقرب ما رأيت بعيني الأشياء التي تتحدثون عنها. ولكن يقولون إنه في الليالي الصاحية في المحيط الهندي يمكنك أن ترى الأشباح الهندية المغتالة المسكينة تطارد (داغاما)[٤] الميت في السماء. ولقد سمعت بأن هؤلاء الهنود أنفسهم شعب لا يجدي اختياره، وأنك تذهب بهذا إلى الموت.

*

منذ اليوم الأول، أخذ الطباخ على عاتقه أن يوجه هنري. بدا الرجل متلهفاً على إعطاء المعلومات. كان تعليماً كئيباً، كما لو أنه كان يخشى في كل دقيقة أن يُعارَض. كان رجلاً رمادياً، الطباخ، له عينان بنيتان حزينتان مثل عيني كلب. كان فيه شيء من مظهر قسيس، وشيء من محاضر كئيب، وشيء من سفّاح. كان في حديثه الجامعة، وفي عاداته غير النظيفة أزقة لندن المرة السوداء. كان رقيقاً ورؤوفاً وغير مخلص باختلاس. ما كان أحد قط ليعطيه فرصة البرهان على أنه جدير بالثقة، لأنه يبدو أن الهمس كان يدور عنه أنه يخون عند أتفه منفعة.

لقد أبحروا الآن وسط بحر دافئ، وكانت ريح دافئة تسوقهم. كان هنري والطباخ يقفان عند الحاجز، يراقبان الزعانف المثلثة لسمك القرش تشق طريقها إلى وراء وإلى أمام عبر أثرهم بانتظار الفضلات. وشاهدوا عناقيد بنية صغيرة من الطحالب تمر عائمة، وسمك الزامور يسبح، متمهلاً، باستقامة على خط القيدوم. ذات مرة أشار الطباخ إلى الطيور البنية ذات الأجنحة النحيفة الطويلة، التي كانت تتبعهم؛ ملتصقة، محومة، غاطسة، متمايلة، طائرة دائماً، غير مرتاحة قط.

- «انظر إلى هذه غير المستقرة»، قال الرجل. «مثل أرواح باحثة هي، حقاً؛ ويقول بعضهم إنها أرواح بحارة غرقوا، أرواح مثقلة بالخطايا بحيث أنها لن ترتاح من سنة إلى أخرى. ويقسم آخرون إن هذه الطيور تضع بيضها في أعشاش عائمة تبنى على ألواح أخشاب سفن ضالة، أما غيرهم فيقولون إنها لا أعشاش لها وإنما تولد كاملة النمو من الشفة البيضاء لموجة وتبدأ على الفور طيرانها السرمدي. أي! معدومة الراحة».

أجفلت السفينة سربَ طيور تتواثب مرحة على قمم الجبال مثل مسكوكات معدنية مشعة.

- «هذه أشباح كنوز فقدت في البحر»، واصل الطباخ: «أشياء القتل، زمرد وماس وذهب، خطايا الرجال، التي ارتكبوها من أجلها، تلصق بها وتجعلها تسكن المحيط. آه! إنه لأمر بائس لو أن بحاراً لم يصنع قصة عظيمة منها».

أشار هنري إلى سلحفاة عظيمة نائمة على السطح، وسأل:

- «وما قصة السلاحف؟»

- «لاشيء، مجرد الطعام. لا يحتمل أن يصنع الإنسان روايات عن الشيء الذي يأكل. إن مثل هذه الأشياء قريبة جداً منه، وقد تسللت الغرابة إلى خارجها. ولكن هذه الحيوانات ذاتها هي طليقة سفن عديدة، ووسيلة اقتيات بعضها، ربما كانت ستصير، لولا ذلك، عظاماً بيضاء على عرشة مهجورة في عرض البحر. لحم السلاحف حلو وجيد. في بعض الأحيان عندما لا يتاح للقراصنة أن يحصلوا على لحم بقر خام، يملؤون سفنهم بهذه، وهكذا يبحرون».

كانت الشمس قد اندفعت تحت الماء فيما كانا يتحدثان. وإلى البعيد، خفقت غيمة سوداء واحدة لساناً بعد لسان من النور الباهر، ولكن السماء كلها عدا تلك النقطة الوحيدة كانت سوداء - مزرقة بترف، تتناثر فوقها حشود من النجوم.

- «لقد وعدت أن تحدثني عن أولئك القراصنة ذاتهم»، توسل هنري: «أولئك الذين تسميهم أخوة الساحل. خبرني، هل أبحرت معهم مرة؟»

تململ الطباخ باضطراب، وقال:

- «ثمة سلام بين أسبانيا وانكلترا، ولن أخرق سلام الملك. كلا، لم أبحر معهم، لا. ولكنني سمعت أشياء ربما تكون صحيحة. لقد سمعت أن القراصنة بالغو الحمق. إنهم ينهبون جوائز سنيّة ثم يلقون بمكاسبهم عنهم إلى مضيفي الخمارات وأصحاب المواخير عندما يملون اللعب. أوه! بالغو الحمق، أظن».

- «ولكن ألم يأخذ أحدهم قط مدينة؟» سأل هنري.

- «لقد سقطت قرية أو نحوها في أيديهم، ولكن ليس لديهم قادة لشيء من هذا النوع».

فألح هنري:

- «ولكن مدينة عظيمة فيها كنز؟»

- «لا، لم يفعلوا ذلك قط. إنهم أطفال، أقول لك - أطفال شجعان، أقوياء».

- «ألا يستطيع رجل يفكر ويخطط بدقة أن يأخذ مدينة أسبانية؟»

- «هو!»، ضحك الطباخ، «وهل ستصير قرصاناً[(٥)]؟»

- «ولكن إذا خطط رجل بدقة؟»

- «حسناً، لو كان ثمة قرصان يمكنه أن يخطط أصلاً، بدقة أو بدونها، يمكن القيام بذلك، ولكن لا يوجد قراصنة من هذا النوع. إنهم أطفال صغار يمكنهم أن يقاتلوا كالجحيم ويموتوا بشكل لطيف جداً - ولكنهم حمقى. إنهم قد يغرقون سفينة من أجل كأس نبيذ، في حين يمكنهم أن يبيعوا السفينة».

- «لو أن رجلاً تأمل بعناية وقاس فرصة ووزن الرجال الذين عنده، فربما...»

- «نعم، أتصور أنه ربما».

- «كان ثمة واحد يدعى پيير‌لا غراند لم يكن أحمق».

- «آه، ولكن پيير أخذ سفينة ثرية ثم فر عائداً إلى فرنسا! كان مقامراً مخيفاً، لا رجلاً حكيماً. وهو ربما لن يعود إلى الساحل فيخسرها ورأسه أيضاً».

فقال هنري بقطعية متنامية:

- «مع ذلك، أظن ذلك يمكن القيام به، ما أن يفكر فيه رجل ويتأمله.

خلال أيام كانوا يقتربون من اليابسة. ذات صباح كان الشبح الشاحب لجبل يجلس على حافة الدائرة. راحت جذوع الأشجار وأغصانها تمضي عائمة بين آونة وأخرى، وطيور اليابسة تطير نحوهم وترتاح في حبال الأشرعة والصواري.

لقد بلغوا منزل الصيف، من حيث يذهب في كل عام إلى المناطق الشمالية. في النهار كانت الشمس صنجاً برونزياً متوهجاً، والسماء مغسولة وشاحبة حولها، وفي الليل يسبح السمك الكبار حول السفينة وأنهار منحنية من النار الشاحبة تجري وراءه. من خارج المخزن الأمامي كانت تندفع ملايين الماسات الطائرة إلى جانب القيدوم الثائر. كان البحر بحيرة مستديرة من التماوج الهادئ، مغطى بجلد حريري. بطيئاً، بطيئاً، مارا إلى وراء، كان الماء يقيم تنويماً مغناطيسياً بهيجاً في الدماغ. كان الأمر يشبه النظر إلى النار. لا يرى المرء شيئاً، ومع ذلك لا يستطيع تحريك عينيه إلا بكفاح غير محدود، وأخيراً كان دماغه يحلم، مع أنه لم يكن نائماً.

ثمة سلام في المحيطات الاستوائية يتجاوز الرغبة في الفهم. لم يعد المصير غاية، وإنما مجرد أن يبحروا، يبحروا، خارج مملكة الزمان. كان يبدو أنهم انزلقوا قُدُماً شهوراً وسنين، ولكن لم يكن ثمة نفاد صبر عند البحارة. لقد أدوا عملهم، وتمددوا حول العرشة في نعاس سعيد غريب.

ذات يوم كانت ثمة جزيرة صغيرة عائمة في البحر، متشكلة مثل كومة قش وخضراء مثل نصول الشعير الأولى. كانت مغطاة بسماكة بنحو بغيض، مشربك؛ كروم وزواحف وبعض الأشجار الداكنة. رآها هنري بعينين تتطلعان إلى الانسحار. اجتازوا تلك الجزيرة، وأخرى ثم أخرى، حتى وصلت السفينة أخيراً، في سواد صباح استوائي باكر، إلى البربادوس. أسقطت مراسيها إلى البحر ومضت تصارع هابطة وحبل ربط السفينة يطير وراءهم.

على الشواطئ كانت ثمة غابة بخضرة الخس كما على الجزر الصغيرة، وأبعد إلى الخلف كانت المزارع ذات الصفوف الممدودة مستقيمة والبيوت البيضاء ذوات السقوف الحمراء، وأبعد منها أيضاً، التربة الحمراء تبدو مثل جروح عبر غابة التلال، وأبعد منها، ترتفع الجبال حادة صلبة لها مظهر أسنان رمادية قوية.

جاءت زوارق شجرية[٦] صغيرة نحوهم، حاملة فواكه ثرية وأكواماً من الطيور المكتوفة. جاءت تبيع، ولكي تشتري أو تسرق ما تحمله السفينة. كان رجال سود لماعون يغنون تراتيل موقّعة غنية، فيما هم يجذفون، وقد ابتهج هنري، الذي كان يتكئ قريباً من الحاجز، بالأرض الجديدة. كانت أكثر مما كان يرجو. وجلب المنظر دموعاً حمقاء سعيدة إلى عينيه.

كان تيم يقف قريباً. يبدو مخزِيًّا وحزيناً. وأخيراً جاء فوقف أمام هنري. وقال:

- «إنه ليحزنني أن أؤذي فتى بديعاً اشترى لي إفطاري. يحزنني بحيث أني لا أنام».

فصاح هنري:

- «ولكنك لم تؤذني. لقد جئت بي إلى جزر الهند حيث كنت أريد بلهفة أن أكون».

- «آه!»، قال تيم بأسف. «لو كان عندي دين كالرئيس فلربما قلت: إنها مشيئة الله - وبعد ذلك أنسى الأمر. ولو كان عندي شغل أو منصب لربما تحدثت كيف يجب أن يعيش الإنسان. ولكن لا دين عندي قط، فيما عدا السلام المريمي أو المزمور الخمسين الرباني في العواصف؛ أما بالنسبة للمنصب، حسناً، أنا مجرد بحار فقير قادم من كورك، وإنه ليحزنني أن أؤذي صبياً اشترى لي إفطاري، أنا الغريب». كان يراقب (كنو)[٧] طويلاً يقترب منهم، يجذفه ستة من الكاريبيين الأقوياء. في المؤخرة كان يجلس إنكليزي صغير الجثة عصبي، لم تلوّح وجهه السنوات وإنما ازداد حمرة حتى بدت العروق الدقيقة وكأنها تنفر من وجهه. وفي عيني الرجل الدقيق الشاحبتين كان ثمة بريق عدم قرار وحيرة سرمدية. صدم الكنو بجانب السفينة ثم تسلق ببطء إليها ومضى مباشرة إلى الرئيس. صاح تيم:

- «حل الأمر الآن، ولن تفكر بسوء شديد فيّ، أليس كذلك يا هنري؟ - وأنت ترى الحزن الذي يتملكني؟»

كان الرئيس ينادي:

- «يا فتى المجاذيف! هي، يا فتى التجذيف! يا مورغان! اقترب!».

تراجع هنري إلى حيث كان الإنكليزي والقبطان يقفان. وقد تعجب عندما أخذ المستوطن الدقيق يتحسس بحيوية ذراعيه وكتفيه.

- «يمكن أن أدفع عشرة»، قال للقبطان.

- «اثنا عشر!»، رد القبطان بحدة.

- «ولكن أتظنه حقاً يستحقها؟ أنا لست ثرياً، كما ترى، ولقد تصورت أن عشر...»

- «حسناً، يمكنك أن تأخذه لقاء أحد عشر، ولكن، كما يراني الله إنه يستحق أكثر. انظر إلى تماسكه والكتفين العريضتين. إنه لن يموت مثل آخرين كثيرين. لا، يا سيدي، إنه يستحق أكثر، ولكن يمكنك أن تأخذه لقاء أحد عشر».

- «حسناً، إن كنت تظن ذلك حقاً»، قال المزارع متردداً، وبدأ يسحب النقود من جيوبه، نقوداً كانت مخلوطة بسلك متشابك، وقطع من الطباشير، وقطعة قلم ريش، ومفتاح مكسور.

سحب الرئيس ورقة من جيبه وأراها للغلام - أمر التزام لمدة خمس سنوات، واسم هنري مورغان مكتوب فيه بشكل لطيف، والختم البريطاني في أدناه.

فصاح هنري:

- «ولكنني لا أريد أن أباع. أنا لم أجئ كي أباع. أريد أن أحقق مصيري وأصير بحاراً».

- «ستفعل ذلك»، أجاب الرئيس بعطف، كما لو كان يمنحه الإذن،

«بعد خمس سنوات. اذهب الآن مع السيد ولا تجعلنا نقوم بنزو القطط. أتظن أن بمقدوري أن أدير هذه السفينة لمجرد نقل الصبيان الذين يريدون المجيء إلى جزر الهند؟ قم بعملك وثق بالله، وربما سيكون الأمر جيداً جداً بالنسبة لك. إن التجربة لا تضيع سدى أبداً على الروح الذكية وإن كانت متواضعة». ودفع هنري بتسكين على طول العرشة أمامه.

أخيراً وجد الفتى صوته، فصاح:

- «تيم، تيم، إنهم يبيعونني. تيم. أوه، تعال، تعال إلي!»، ولكن لم يكن ثمة جواب. سمع تيم، وكان ينتحب في أرجوحة نومه مثل طفل صغير مجلود.

ولم يحس هنري، وهو يتسلق الجانب أمام سيده الجديد، شيئاً على الإطلاق. ولكن، ما عدا انقباضاً صغيراً في حنجرته، لم يكن فيه إحساس حاد - مجرد بلادة مفرطة، ثقيلة.

الهوامش

(١) مقدم السفينة ، حيث يبيتون .

(٢) الهابة دائماً باتجاه خط الاستواء .

(٣) وحش بحري خرافي اسكنديناڤي .

(٤) Da Gama

(٥) الاسم الذي يطلقه الكاتب عليهم هو boucaneers وليس Pirates . وسيجيء في النص سبب التسمية .

(٦) مصنوعة عن طريق تجويف جذع شجرة .

(٧) Canoe : زورق طويل خفيف .

-٣-

هكذا كان أن أقام هنري مورغان في البربادوس بموجب سلطة ورقة بيضاء أجبرت حياته وروحه وجسده على أن تركع أمام مسرّة (جيمس فلاور) ما، مزارع.

لم يكن جيمس فلاور رجلاً صعباً، وهو بالتأكيد لم يكن رجلاً ذكياً. كان طوال حياته توقٌ للأفكار - أيّ أفكار - خَلْقها. كان يريد تصور أفكار، أن يدفئها لتحل فيها حياة نابضة، ثم قذفها إلى عالم مندهش. عندئذ كانت تمضي مكبلة مثل صخور بدأت من أسفل تل طويل، موقظة فيوضاً من الإعجاب. ولكن لم تؤاته أيّ أفكار.

كان أبوه راعي أبرشية إنكليزية عنيداً يكتب قداسات عنيدة كانت تطبع، في الواقع، مع أن قلة ضئيلة فقط كانت تشتريها. وكانت أمه تكتب شعراً هو نوع من التلخيص للقداسات. وكانت أشعارها ملحقة بمجلد تعليمات قويمة كالحة. وكان لأبيه وأمه كليهما أفكار. وكانا كلاهما خالقين بطريقة صغيرة.

وقد جرت تربية جيمس فلاور في جو من - «ينبغي أن أكون ماشياً إلى ناشري، يا هيلين»، «ولكن، يا وليام، لقد انبثق شيء مجيد عليّ هذا الصباح فيما كنت أرتب شَعري - يا للمفهوم! لقد جاء

بالتأكيد من الله. ستتم صياغته في دوبيتات، كما أظن. أوه! مجيد! وهو يتناسب تماماً مع كلماتك البهيجة تلك حول المذلة».

«آه، حسناً؛ ينبغي أن أكون ماشياً إلى محل ناشري الآن، لأرى كيف تمضي القداسات. لقد أرسلت نسخة إلى المطران، وربما كان تكلم عنها. إن شيئاً كهذا سيبدأ مبيعات عظيمة، فيما أظن».

نعم، كانا أناساً ذوي أفكار، وغالباً ما كانا يهزان رأسيهما على ابنهما البليد. كان ينظر إليهما في رعب، كان مرتعباً من عظمتهما وخجلاً من نفسه. وهكذا، كان قد اتخذ تصميماً في مطلع حياته أن تكون له أفكار. كانت قراءاته ضخمة. وقع في يده كتاب الملك جيمس «دفاع السحر»، فشرع في البرهان على صحته. حاول، بمعونة تجسيدات عتيقة وغسول أسود يحتوي على عدد من المكونات النجسة بالإضافة إلى كمية كبيرة من الحشيش، أن يطير من سطح منزلهم. وأثناء ما كان ساقاه المكسوران يلتئمان صادف «اكتشافات السحر» لـ (سكوت).

كان نظام ديكارت يسبب إثارة بين المتعلمين، فقرر جيمس فلاور، أيضاً، أن يقلص كل فلسفته إلى مسلَّم أساسي. وضع ورقة وعدداً من الأقلام الدقيقة إلى جانبه، ولكنه لم يستطع قط أن يتوصل إلى مسلَّمة. قال: «أنا أفكر، لذا فأنا موجود، على الأقل، أظن أنني موجود». ولكن هذا أدى به إلى حلقة مغلقة ولم يوصله إلى أي مكان. بتجارب مثابرة أحرق أصابعه، وحاول أن يقطع البرسيم بالشعير، وقلع السيقان عمّا لا يعد من الحشرات، مكافحاً أن يكتشف شيئاً - كل شيء تقريباً، ولكنه لم يكتشف قط. ولما كان عنده دخل متواضع من مال تركه له خال ما، فقد كانت تجاربه مختلفة وشاملة.

كان (انفصاليٌّ) ما ذو حدة تعصبية قد كتب كتاباً عنيفاً بأفضل وضع علمي - «تأثير الأرواح الكحولية: الآني والدائمي». ووقع هذا المؤلَّف بين يدي جيمس فلاور. فانطلق ذات أمسية للتحقق من بعض نظرياته الأكثر فنطازية. في منتصف بحثه تركته روح الاستقراء فهاجم، دون سبب أو تحذير، أحد حراس صاحب الجلالة بزرع في أصيص. لو أنه كان قد عرف، فإن تلك كانت الفكرة العفوية الوحيدة في حياته. وتم التستر على الأمر من جانب رئيس شمامسة يقرب لأمه. جرى استثمار ثروة جيمس فلاور الصغيرة في مزرعة في باربادوس، وقد أرسل كي يعيش هناك. من الواضح أنه كان لا ينسجم مع التمسك الشديد بالدين ومع الخماسيات.

وهكذا، فقد شاخ كآبةً، على الجزيرة. كانت مكتبته الأبدع في جزر الهند، وبقدر ما أتيح من معلومات، كان أكثر الناس تعلماً في الأنحاء المحيطة. ولكن تعليمه لم يشكل أي تصميم للكلي. لقد تعلم دون امتصاص، تذكر دون تمثل. كان ذهنه كتلة حزينة من حقائق ونظريات غير مترابطة. في ذهنه، كما في رفوفه، كانت (تعليقات قيصر) تقف كتفاً إلى كتف مع ديمقرطس ورسالة عن التوليد العفوي. وصار جيمس فلاور، الذي كان يبكي ليصير خالقاً، سيداً صغيراً رقيقاً، هادئاً، غير فعال نوعاً ما وغير كفؤ جداً. وفي سنواته الأخيرة كان قد بدأ يغلط باعتباره المعتقدات أفكاراً. لو أن أحداً طرح أي اعتقاد بصوت عال نوعاً ما كان يخيف جيمس فلاور، لأنه كان يقول لنفسه «ها هو أحد تلك المخلوقات التي أوقفت إلهياً، التي تسيطر على النار التي أفتقر إليها تماماً».

-٤-

كان ثمة قليل من الرجال البيض على المزرعة الخضراء العظيمة، وكان أولئك الذين يكدحون هناك بائسين في أسمال، كئيبين، يخدمون بسبب جناية منسية ضد التاج. في أجسادهم كانت تستقر الحمى مثل خفيف نوم يستيقظ فيزمجر، ثم ينام مجدداً وإحدى عينيه الماكرتين غير مغلقة. كانوا يجبلون التربة في الحقول بأصابعهم، وفيما كانت سنوات عبوديتهم تزحف كانت عيونهم تموت، وأكتافهم تتهدّل، وتمطّي حماقةٌ بليدة متعبة شراكاً متسعة في أدمغتهم. كانت لغتهم رطانة لندنية نغلة، فيها قليل من العبارات الزنجية الغينية وقليل من العبارات الكاريبية المصلصلة. عندما أطلق هؤلاء الرجال من العبودية، تجولوا بفتور همة في الأنحاء مدة، وراقبوا الآخرين يذهبون إلى العمل بشيء من الاشتياق. ثم، بعد قليل، إما أنهم وقعوا أوراق التزام جديدة وإما أنهم مضوا يغزون مثل نمور من قفص محطم.

كان المراقب واحداً منهم، وإذ صار الآن يأمر أولئك الذين كانوا زملاءه، فقد كان إيقاع المعاناة في الذاكرة من ألمه الخاص.

جلب جيمس فلاور هنري إلى الشاطئ، وأثر شيءٌ في التعاسة الصامتة للفتى المزارع. لم يكن قادراً قط على التفكير في عبيده

بوصفهم ناساً، قبلا. لقد تبع، بعمى، توجيهات الـ (كاتو)[1] الأكبر القاسية في معاملة عبيده. ولكن هنا كان واحد واضح تماماً أنه إنساني، وربما سيد. كان هذا الفتى قد صرخ أنه لا يريد أن يكون عبداً. كان الآخرون ينزلون إلى الشاطئ دائماً وهم يعرفون مصيرهم، ويعرضون ضغينة عنيدة كان لابد من ضربهم لإخراجها منهم على الصليب. قال المزارع:

- «لا تتألم كثيراً، أيها الطفل. إنك صغير جداً على المجيء إلى جزر الهند. خلال سنوات قليلة ستصير رجلاً، وقوياً».

- «ولكن كان عليّ أن أصير قرصاناً»، قال هنري بفتور. «لقد خرجت إلى البحر لأصنع مصيري واسمي. وكيف أستطيع أن أصنع هذين الأمرين إن كنت عبداً أكدح في الحقول؟»

- «أنا لا أنوي أن تكدح في الحقول. أردتك - أردت صبياً يبقى حول البيت الآن وقد كبرتُ. أردت - نوعاً من صاحب يمكن أن يكلمني ويسمعني أتكلم. إن المزارعين الآخرين يأتون إلى البيت ويشربون نبيذي، ولكن عندما ينصرفون أظنهم يضحكون علي ويضحكون على منظري - وكتبي الحبيبة. وهكذا، فستجلس معي في الأماسي، ربما، وسنتحدث عن الأشياء التي في الكتب. كان أبوك سيداً، كما أظن. فلك مظهر ذلك».

واصل جيمس فلاور برقة:

- «والآن، عندنا اليوم شنق، وعليّ أن أسرع كي أكون هناك. لا أدري بالضبط ما فعله الرجل، ولكنه كان كافياً. وماذا يقول - أوه! ما اسمه؟ لقد قرأته، على أيٍّ حال - «إن القيمة الرئيسة للعقاب العنيف

تستقر عند أولئك الذين قد يقع عليهم الشيء نفسه». نعم، أعتقد أن من الجيد أن يشنق أحدهم بين وقت وآخر. إنه مكلّف، ولكنه يفضي بسعة إلى السلوك الطيب بين الآخرين. ولكن مراقبي هو الذي يعنى بكل تلك الأمور. أتدري، أظنه يتمتع بذلك حقاً».

قاد الصبي إلى مربع من الأكواخ الطينية ذات السقوف القشية، المبني أحدها قريباً من الآخر، والتي ينفتح باب الواحد منها على نوع من الساحة العامة. وفي وسط المربع، مثل صنم مرعب، كانت تنتصب مشنقة عالية مصنوعة من الخشب الأسود وملمعة بالزيت بحيث صارت تلمع في ضوء الشمس. كانت موضوعة بحيث لم يكن بمقدور أي عبد أن ينظر خارج زريبته دون أن يرى الرعب الأسود الذي يمكن أن يصير مصيره. كان هذا عمل المراقب. بيديه الاثنتين مسح الخشب الغامق حتى صار يلمع. كان متعوّداً على الوقوف والتحديق إليها، ورأسه ممال جانباً، كما قد ينظر فنان إلى عمله المنجز حديثاً.

جلس المزارع والغلام. سيق العبيد إلى المربع. ورأى هنري شخصاً أسود عارياً يتلوى ويتمعج عند طرف حبل فيما كان الزنوج يؤرجحون أنفسهم إلى وراء وإلى أمام على الأرض وينوحون، فيما كان العبيد البيض يصرون أسنانهم ويلعنون بفظاظة ليمتنعوا عن الزعيق. وأقعى الكاريبيون على مآبضهم وجعلوا يراقبون بلا اهتمام خاص وبلا خوف. هكذا يمكن أن يقعوا ويراقبوا النار التي تطبخ طعامهم.

عندما انتهى الأمر، وتدلى الضحية الأسود بارتخاء من رقبته المعقوفة، نظر المزارع إلى أدنى فرأى أن هنري كان يبكي بعصبية، فقال برقة:

- «أدري أن ذلك سيئ في المرة الأولى. عندما رأيته أنا أولاً، لم أستطع النوم مدة طويلة. ولكن بعد بعض الوقت، عندما تكون قد رأيت خمسةً - عشرةً- دزينةً يمضون على هذا النحو، لن يعود يصير عندك أي شعور حول الأمر، ولا تفكير فيه أكثر مما في فروج يتخبط ملوي الرقبة.

كانت أنفاس هنري لاتزال تخرج من اختناقات تعسة صغيرة:

- «يمكنني أن أريك في مؤلفات هولمران عن ممارسات محاكم التفتيش، بحثاً عن هذا الشيء الذي تحسّه بالذات. يقول «عندما يرى المرء للمرة الأولى إنساناً يتعذب، فذلك أمر غير طبيعي، لأن الناس المرتاحين، رابطي الجأش - في تجربة الإنسان - هم القاعدة. ولكن، بعد عدد من مثل هذه التجارب، يصير منظر التعذيب شيئاً اعتيادياً، ويستطيبه البشر الأسوياء إلى مديات مختلفة». ذكّرني كي أريك المقطع في وقت ما؛ مع أنني يجب أن أقول إنني لم أتمكن من استساغة الأمر قط».

في أمسيات الشهور التي تلت، كانا يجلسان كلاهما في الأعماق المظلمة من الشرفة، وكان جيمس فلاور يصب حقائقه غير المحكية إلى آذان هنري مورغان الفتي. كان الغلام يصغي بلهفة، لأن المزارع كان غالباً ما يتحدث عن الحروب القديمة وإدارتها.

- «وهل هذه موجودة في الكتب التي تكسو الجدران؟»، سأل هنري ذات ليلة.

- «كل هذه الأشياء، و - أوه! عدة آلاف من الأشياء الأخرى».

بعد مدة، توسل هنري:

- «هل لك أن تعلمني لغات الكتب أيضاً، يا سيدي؟ لابد أن ثمة

أموراً ينبغي أن أراها بنفسي».

سرّ جيمس فلاور. في تعليم هذا الصبي الأشياء التي كان قرأها، اقترب من الإرضاء أكثر مما فعل قبلاً. كان فؤاده دافئاً تجاه العبد الصغير. صاح بحماس:

- «اللاتينية والإغريقية! ستتعلمها مني، والعبرية أيضاً، إذا رغبت».

- «أريد أن أقرأ كتب الحرب والإبحار»، قال هنري الفتي. «أريد أن أقرأ عن تلك الحروب القديمة التي تتحدث عنها، لأنني سأصير يوماً قرصاناً وآخذ مدينة أسبانية».

وفي الأشهر التي تلت، تعلم اللغات بسرعة فائقة بسبب رغبته في قراءة الكتب.

غاص جيمس فلاور في مجلداته أعمق من السابق، لأن دوره الجديد كمعلم كان تجربة عزيزة جداً عليه.

بعد فترة قصيرة، كان يقول:

- «هنري، هل لك أن تخبر المراقب بأن يجمع دبس السكر على الساحل؟ ثمة سفينة ستشتريه». وبعد ذلك أيضاً:

- «هنري، أثمة ما ينبغي أن أفعله اليوم؟»

- «حسناً، يا سيدي، ثمة سفينة كبرى هناك، قادمة من الأراضي المنخفضة. نحن في حاجة ماسة إلى مناجل. لقد سرق الكاريبيون القديمة كلّها تقريباً ليصنعوا منها سيوفاً. ستكون لنا مشكلات مع هؤلاء الكاريبيين ذات يوم، يا سيدي».

- «حسناً، اهتمّ بالمناجل، أستفعل يا هنري؟ أكره أن أتحرك في

هذه الشمس. وأجعل الهنود يعاقَبون إن هم سرقوا أشياء. اهتمّ بذلك، أيضاً، ها؟»

قليلاً قليلاً كان هنري يمتص إدارة المزرعة.

ذات ليلة، بعد أن مضى على وجود هنري هناك سنة، حصل على احترام جيمس فلاور الأسمى، احتراماً كئيباً نوعاً ما، مع أنه لم يفقد شيئاً من المحبة في سبيله. سأل هنري:

- «هل تأملت هذه الحروب القديمة؟ كنت أقرأ الإسكندر وكزينوفون وقيصر في حروبهم. وقد تملكتني الفكرة - أن المعركة والتكتيكات - التكتيكات الناجحة بالطبع - ليست أكثر من احتيال معظَّم. القوة ضرورية، والسلاح - بالطبع، لكن الحرب يكسبها حقاً الإنسان الذي يجلس مستريحاً، كذلك الذي يغش في الورق، ويربك العدو بحيلته. هل تأملت في ذلك، يا سيدي؟ كل من يستطيع أن يحزر عقول القادة الاعتياديين، كما أستطيع أنا أن أحزر أذهان العبيد، يمكنه أن يكسب المعارك. ما على رجل كهذا إلا أن يجتنب ما هو متوقع منه. أليس ذلك سرّ التكتيك، يا سيدي؟»

- «لم يسبق أن فكرت في ذلك»، قال جيمس فلاور بشيء قليل من الحسد. ومضى ذلك الخوف، الذي كان يحسّه من الناس ذوي الأفكار، إلى هنري. ولكن المزارع أحس ارتياحاً عظيماً في إعلام نفسه أنه هو الذي كان، بعد كل شيء، المعلم الذي أيقظ هذه الأفكار.

بعد سنتين من مجيء هنري، أفرج عن المراقب بانقضاء سنوات التزامه. وجد حريته مخدِّراً أقوى على الذهن الذي اعتاد السيطرة

الخارجية. انهار ذلك الذهن، واستولى عليه الغضب الشديد، حتى مضى يصرخ في الطرقات، ضارباً كل عابر. في الليل كان جنونه يصير شيئاً رهيباً، مسعوراً. كان يتدحرج على الأرض تحت مشنقته، ويسيل الزبد الدامي من فمه فيما ينظر إليه العبيد مرتعبين، وفي الآخر كان ينهض، أشعث الشعر ملتهب العينين مجنونهما. كان يمسك مشعلاً وينطلق إلى الحقول. وأطلق هنري مورغان عليه النار فقتله فيما دخل الصفوف النامية بكثافة من القصب.

- «من يعرف العمل بالجودة التي أعرفها، وبمن تستطيع أن تثق أكثر، يا سيدي؟»، سأل هنري الفتي المزارع. «لقد تعلمت الأشياء التي في الكتب ومن مراقبتي أشياء ستجعل هذه المزرعة أكثر إنتاجية مئة مرة».

وهكذا صار أكثر بكثير من المراقب.

نقل هنري المشنقة من الساحة، ومن بعد ذلك صار الشنق يتم سراً، في الليل. لم يكن ذلك رأفة. كان يعرف، من تفكيره، أن الشيء المجهول لايمكن قط أن يصير الشيء الاعتيادي، العقوبات غير المشهودة يمكن أن تكون أكثر رهبة للعبيد الباقين من تلك التي يرونها تحت ضوء الشمس.

كان هنري قد تعلم العديد من الأشياء في التعامل مع العبيد. تعلم أنه لاينبغي أبداً أن يدعهم يرون فيم كان يفكر، لأنهم، عندئذ، كانوا - بطريقة ما لا توصف - ستكون لهم سطوة عليه سيكون من الصعب إبعادها. ينبغي أن يكون بارداً وبعيداً ومهيناً لمن هم دونه. فيما عدا بعض الاستثناءات، سيتلقون الإهانة على أنها علامة على تفوقه. كان

الناس يصدقون دائماً أنه ما يبدو عليه، وكان بمقدوره أن يبدو كل شيء تقريباً.

لو أن أحداً يلبس لباساً فاخراً فسيتصور كل الناس أنه غني وقوي، ويعاملونه وفقاً لذلك. وعندما يقول أشياء وكأنه يعنيها، فالجميع تقريباً يتصرفون وكأنه يعنيها. و - كان هذا أهم دروسه - لو أنه كان صادقاً تماماً وقدم تقريراً دقيقاً في تسع معاملات متعاقبة، يمكنه أن يسرق بقدر ما يشاء في العاشرة ولن يحلم أحد في الشك فيه، وكل ما عليه هو أن يضع المرات التسع تحت أنظار كل الناس.

وقد أعطى برهاناً وافياً على فاعلية هذا الدرس الأخير الكومُ المزداد ارتفاعاً من المسكوكات الذهبية في صندوق تحت سريره. وكان يتبع كل تعليماته. لم يعط أي إنسان قط أي ممسك عليه، ولا مجال نظر إلى دوافعه ووسائله وقدراته ونقاط ضعفه. بما أن أغلب الناس لا يؤمنون بأنفسهم، فإنهم لن يؤمنوا بأي امرئ يعرفون أنه مثلهم.

هذه القواعد جمعها من حياته، حتى صار سيد المزرعة، حتى ارتكأ جيمس فلاور بشكل يرثى له على نصيحته وقناعاته، وحتى كرهه الكاريبيون والسود والرجال البيض المجرمون وهابوه، ومع ذلك ما كان بمقدورهم أن يحدثوا أي غور في كيانه - ما كان يمكنهم أن يمسكوه بحيث يؤذونه.

كان جيمس فلاور سعيداً بلذة - أسعد من أي وقت مضى - لأن هذا الصبي قد رفع عبء المزرعة البشع عن عاتقه. ما عاد بحاجة إلى أن يفكر أكثر بأمور حرث التربة. صار يتمدد أكثر فأكثر غارقاً في كتبه. وراح يقرأ، إذ كان يزداد تقدماً في السن، الكتب نفسها مراراً وتكراراً

دون أن يعرف ذلك. وغالباً ما كان يحس انزعاجاً بسيطاً من الشخص اللا أبالي الذي وضع ملاحظات في هوامشه وثنى أطراف الصفحات.

وحصل هنري مورغان لنفسه على مزرعة عظيمة وقوة عظيمة. تحت سلطته أزهرت الأرض وازدادت. كان يجعل الأرض تعطي أربعة أمثال ما كانت تعطيه سابقاً. وعمل العبيد بهياج تحت السياط التي كانت تطاردهم إلى الحقول، ولكن لم يكن ثمة أمر شخصي في السياط. كان المراقب القديم ينشرح بالعقاب، ولكن هنري مورغان لم يكن قاسياً. كان بلا شفقة. كل ما هنالك أنه كان يعجّل دواليب معمله. ليس بمقدور المرء أن يكون عطوفاً على ضرس ترس أو دولاب موازنة، وما كان هذا الصبي يستطيع أن يفكر في مداراة عبيده.

كان هنري ينتزع المال من الأرض. ومنها كان يضيف إلى ذخيرته في الصندوق تحت سريره - قليلاً من مبيعات الفصل من القصب وشيئاً من شراء ماشية جديدة. لم يكن ذلك سرقة، وإنما هو نوع من العمولة لنجاحه. وازدادت كومة المسكوكات الذهبية الصغيرة ونمت من أجل الوقت الذي سيذهب فيه هنري مورغان يقرصن ويستولي على مدينة أسبانية.

الهوامش

(١) Cato : (٢٣٤ - ١٤٩ق .م) . سياسي وخطيب روماني محافظ للغاية . لقب بالأكبر أو الأرشد The Elder .

-٥-

كـان هنري قـد اشـتـغل ثلاث سنوات ثم، مع أنـه كـان في الثـامنة عـشرة فقط، كـان ضخماً وقـوياً. كـان شعـره الأسود المجعد يبدو ملتفاً أكثر إلى رأسه، وفمه - لتعامله مع العبيد - أشد ثباتاً مما كان. كان ينظر محدقاً في ما حوله ويعرف أنه يجب أن يكون راضياً، ولكن عينيه لم تفقدا قط حيلة النظر خلف البعيد وفوق حافة الحاضر. كانت رغبة متغطرسة نوعاً ما عبر سهره وحلمه مثل خط أحمر رقيق. ينبغي أن يعود إلى البحر والسفن. كان البحر أمه وعشيقته، والإلهة التي ربما تأمره وتجده مستعداً وجاهزاً للخدمة. عجباً، إن مجرد اسمه، في اللسان البريطاني القديم، يعني شخصاً يعيش عند البحر. نعم، كانت السفن تناديه بقسوة الآن. كان قلبه يبحر خارجاً، بعيداً عنه مع كل سفينة تجارية عابرة.

في المنزل الكبير كان قد درس واعتبر ما كان موجوداً عن الملاحة في الكتب، وفي المركب الشراعي وحيد الصاري، الصغير، للمزرعة كان قد مضى يطوف في المياه القريبة. ولكن هذه كانت لعبة طفل، كما كان يظن، ولم تكن تهيئه ليصير بحاراً خبيراً. كان ضرورياً له أن يتعلم بشره، لأنه في المستقبل القريب سيمضي مقرصناً ويستولي على مدينة أسبانية. كانت هذه العرش الفضي لكل رغبته.

وهكذا، فذات ليلة -

- «ثمة شيء عليّ أن أتحدث حوله، يا سيدي».

رفع جيمس فلاور عينيه عن كتابه وأوكأ رأسه على الكرسي إلى وراء.

- «لو كانت عندنا سفينة تحمل محصولنا إلى جامايكا»، واصل هنري «فإننا سنوفر مقداراً كبيراً في أجور الشحن. إن كلفة سفينة كهذه سرعان ما ستأكلها الفوائد. وكذلك، فقد نحمل أيضاً محصول المزارع الأخرى بأجر أقل مما تطلبه السفن التجارية». فاستفسر جيمس فلاور:

- «ولكن أين يمكن أن يلاقي المرء سفينةً كهذه؟»

- «هناك واحدة في الميناء الآن، واحدة ذات صاريين و ـــــ».

- «اشترها إذاً، اشترها، واهتم بأمرها. إنك تعرف عن هذه الأمور أكثر مني. وعلى فكرة، ثمة حدس يلفت النظر عن سكان القمر. وقرأ «إنهم قد يكونون مختلفين كلياً عن الكائنات البشرية. إن رقابهم يمكن بسهولة أن ـــــ».

- «ستكلف سبعمئة باون يا سيدي».

- «ما التي ستكون بسبعمئة باون؟ يبدو أنك لا تصغي كما كنت تفعل، يا هنري. اصغ إلى هذا المقطع، إنه مسلٍ ومعلم معاً ـــــ».

أمال هنري السفينة ونظفها، وعندما كان قد أتم حكها وصبغها، سمّاها إليزابث ووضعها في البحر. كان عنده ما يعرف بـ (الأيدي) بالنسبة للفارس، إحساس دافئ بشخصية مركبه. ينبغي أن يتعلم قواعد الملاحة، بالطبع، ولكن حتى قبل ذلك زحف شيء من روح السفينة إلى

روحه، وعاد شيء منه إليها. كان حباً راسخاً، فهماً مستقراً للبحر. باهتزاز سطحها واللمسة الناعمة للعجلة، عرف بغريزته إلى أي قرب يمكنه أن يجلبها إلى الريح. لقد كان مثل رجل يقرأ، وهو يضع رأسه على صدر عشيقته، جريان عواطفها في تنفسها.

الآن صار بمقدوره أن يهرب من البربادوس ويذهب لينهب في إليزابث الصامدة أمام المياه، ولكن لم تكن ثمة حاجة إلى ذلك. لم تكن مؤونته عظيمة بما يكفي، وهو كان فتياً جداً، وبالإضافة إلى ذلك، كان يحس حباً خجولاً، غريباً، لجيمس فلاور.

كان هنري قانعاً لفترة قصيرة. إن الشهوة التي يمتلكها كل الرجال في درجات متفاوتة - البعض لالتماع الورق، والبعض للنبيذ، والبعض لأجساد النساء - كان، في هنري مورغان، يشبع باندفاع العرشة والمسافة بين التروس وشق الجنفاص الضيق. كانت الريح، وهي تهب من السماء المخيفة السوداء، كأس نبيذ بالنسبة له، وتحدياً، وعناقاً عاطفياً.

أبحر إلى جامايكا مع المحاصيل وحام بين الجزر. ازدادت عائدات المزرعة، وكان صندوق مسكوكات هنري يزداد ثقلاً.

ولكن بعد بضعة أشهر، جاءته رغبة معذبة غير واضحة. كانت لهفة ولد صغير، انتعشت وقويت. لقد أشبعت إليزابث شهوته القديمة وتركت أخرى جديدة. تصوّر أن النهب هو ما يدعوه: جمال الأشياء الحريرية والذهبية وإعجاب الرجال، وعلى هذه استقر فؤاده بحماس أكثر من أي وقت مضى.

كان هنري يذهب إلى النسوة السمراوات والسوداوات في أكواخ العبيد، مكافحاً لتسكين جوعه إن لم يستطع إشباعه، وقد كن يتلقينه،

فائقات العيون ومستسلمات، متلهفات على الإرضاء. كن يرجَوْن أن يحصلن بفضله على طعام أكثر أو إبريق روم كهدية. وفي كل مرة، كان يبتعد بنفور وبقليل من الشفقة على عهرهن الراجي البائس.

ذات مرة، في رصيف العبيد في (پورت رويال)، وجد (پوليت) واشتراها كخادم للبيت. كانت رشيقة، ومع ذلك مدورة، ضارية ورقيقة في آن. كانت عبدة الدماء المختلطة المسكينة أسبانية وكاريبية وزنجية وفرنسية. وكان ميراث هذه الأعراق السلفية المجمعة شعراً مثل شلال من الماء الأسود، وعينين بمثل زرقة البحر، مستقرتين في شقين شرقيين، وبشرة ذهبية ذهبية. كان جمالها جمالاً حسياً، عاطفياً - الأطراف التي تومض مثل شعلات ذهبية. وكان بمقدور شفتيها أن تتمعجا مثل أفعوانين منجدلين نحيلين، أو أن يتفتحا مثل زهور حمراء. كانت طفلة صغيرة، ومع ذلك كبيرة في الحياة. كانت مسيحية، ولكنها كانت تعبد أرواحاً خشبية وتغني تراتيل خفيضة على شرف (الأفعى الأعظم).

كان هنري يعدّها ماكنة دقيقة صنعت تماماً للمتعة، أداة جنسية. كانت مثل نساء الليل الباردات الطويلات أولئك، اللاتي يركبن بأجنحة النوم - الأجساد عديمة الأرواح - أجساد الأحلام العاطفية. بنى لها منزلاً مغطى بالكروم، صغيراً، مسقوفاً بأوراق الموز، وهناك كان يلعب بالحب.

في البدء كانت پوليت مجرد ممتنة له لجلبه إياها إلى حياة لينة كسول، مع راحة وأيام عمل قليلة، ولكنها وقعت، فيما بعد، في غرامه بشكل مسعور. كانت تراقب وجهه مثل تَرْيَر[1] سريع، ينتظر أن يقفز

ببهجة وحشية عند سماع كلمة واحدة أو يسقط متودداً في التراب عند أخرى.

عندما كان هنري يصير جدياً أو ذاهلاً، كانت تخاف، ثم كانت تركع أمام تمثالها الأبنوسي الصغير لإله الغابة وتصلي للعذراء من أجل حبه. وفي بعض الأحيان كانت تضع خارجاً كؤوس حليب لـ (جن - جو - بي) المجنح الذي يُبقي الرجال صادقين. كانت تكافح، بالفنون الرقيقة المسعورة لدمائها المخلوطة، لإبقائه تحت أنظارها بالتأكيد. من جسدها ومن شعرها كانت تنبعث رائحة شرقية ثرية، لأنها كانت تفرك نفسها بخشب الصندل وصمغ المر.

وعندما يكون عابساً -

- «أتحب پوليت؟»، كانت تسأله. «هل تحب پوليت؟ أأنت متأكد أنك تحب پوليت؟»

- «عجباً، بالتأكيد، أحب پوليت. كيف يمكن لرجل أن يرى پوليت، پوليت العزيزة الصغيرة - كيف يلمس شفتي پوليت الحلوة - ولا يحبها؟» وكانت عيناه تمضيان متجولتين في البحر إلى أدنى، باحثتين وباحثتين على طول الشاطئ المنحني.

- «ولكن هل تحب بالتأكيد، بالتأكيد پوليت؟ تعال قبّل ثديي پوليتك الصغيرة».

- «نعم، بالتأكيد أحب پوليت. هاك! لقد قبلتهما وتم السحر. والآن، كوني ساكنة قليلاً. اسمعي تصويت الضفادع. إنني لأتعجب ما الذي أيقظ القرد الملتحي العجوز في الشجرة هناك؛ عبد ما، ربما، خارج ليسرق بعض الثمار». وكانت عيناه تمضيان للتجوال بقلق في البحر.

فيما انقضت السنة، نشرت تربة حبها كروماً قوية من الخوف الخانق. كانت تعرف أنه عندما سيهجرها أخيراً ستكون أكثر من مجرد وحيدة. قد تضطر للركوع في صفوف الحقل وتحفر بحثاً عن النبتات بأصابعها كما كانت النسوة الأخريات يفعلن. ثم، ذات يوم، ستقاد إلى كوخ زنجي ضخم قوي العضلات، وسوف ينرضّ جسدها الذهبي الصغير بقبضة الوحش التي له ويُحبلها بطفل أسود - طفل أسود قوي يمكنه أن يكدح وينصهر في الشمس عندما يكبر. هذا ما كان يحدث لكل جواري الجزيرة الأخريات. إن نصف دماغها الذي كان عجوزاً جداً كان يرتجف من هذه الفكرة، وكان ذلك الذهن العجوز نفسه يعرف أن هنري سيتركها ذات يوم.

ثم، ظهر لعقلها الطفلي المخرج من مر خوفها. لو أنه تزوجها فقط - مع أن ذلك يبدو مستحيلاً، ولكن أموراً أغرب وقعت - لو أنه يتزوجها فقط، فلن يكون عليها أن تخاف. لأن هاته الكائنات الغريبة، الزوجات، كن - بطريقة غريبة، بموجب هدف إلهي ما - محميات من الأمور القبيحة وغير المريحة. آه! لقد شاهدتهن في پورت رويال، محوطات برجالهن ليبعدوا التماس الداعر، يتنفسن عبر أقمشة معطرة لينمن الروائح الكريهة، واضعات في بعض الأحيان كريات صغيرة من القطن في آذانهن ليمنعن شتائم الشوارع من الدخول. وكانت پوليت تعرف - أفلم يخبروها؟ - أنهن، في بيوتهن، يرقدن في أسرّة لينة كبيرة، ويصدرن بفتور أوامر إلى عبيدهن.

كانت هذه هي الحالة المباركة التي جرؤت على الأمل فيها. وكانت تعلم أن جسدها غير كاف. غالباً ما كان يفشل في كفاءته الناعمة. لو

أنها أشبعته بالحب، فهو ما كان يعود إلى عشها زمناً، وعندما كانت ترفضه لكي تجعل عاطفته تزداد، كان إما يبتعد معانداً وإمّا يضحك ويطرحها بفظاظة على أريكة السعف المنخفضة. ينبغي أن تفتش عن قوة قاهرة ما، وسيلة قوية جداً كي تجعله يتزوجها.

عندما مضى هنري بالكاكاو إلى پورت رويال، كادت أن تجن. كانت تعرف غرامه بالسفينة، عاطفته للبحر، وكانت غيوراً بغضب منهما. رأته في ذهنها يلاطف العجلة باللمسة العزيزة القوية لأصابع محب. آه! إن بإمكانها أن تخمش وتمزق تلك العجلة التي سرقتها.

ينبغي أن تجعله يعشق پوليت أكثر من السفينة، أكثر من البحر، أو أي شيء على الأرض، لكي يتزوجها. ثم ستتمكن أن تسير متغطرسة بين الأكواخ وتبصق على العبيد؛ ثم لن تحتاج للتفكير في عزق الأرض أو حمل أطفال سود أقوياء، ثم ستكون لها ملابس حمراء ترتديها، وسلسلة فضية تحيط بعنقها. وكان يمكن حتى أن يُجلب لها عشاؤها، بين آنٍ وآخر، بينما تتمدّد في الفراش، متظاهرة بأنها مريضة. لوت أصابع رجليها بسرور عند هذه الفكرة، وهيأت الأشياء المهينة التي يمكن أن تقولها لزنجية سمينة ما ذات لسان مغيظ، عندما تصير زوجة. لقد دعت تلك الحقيرة السمينة العجوز پوليت مومساً أمام تجمع ما. كانت پوليت قد اقتلعت كميات كبيرة من الشعر قبل أن تُمسَك فيثبَّت ذراعاها إلى جانبيها - ولكن لابد أن ترى تلك السوداء، مع ذلك، ذات يوم. ستجعلها پوليت تجلد على الصليب.

عندما كان هنري بعيداً جاءت إلى الميناء سفينة تجارية، وذهبت پوليت إلى الساحل لترى الأشياء التي جلبتها وتراقب البحارة الذين

لوحتهم الشمس يأتون إلى الساحل. ولاحقها أحدهم، وهو أيرلندي عريض ضخم، محمل بالروم الأسود، وأمسك بها حاصراً إياها بكومة من الصناديق. لكونها قويةً وسريعةً، قاومت لتتخلص منه، ولكنه كان يمسك بها قوياً، رغم كونه يتمايل. ضحك:

- «لقد أمسكت جنية لتصلح أحذيتي»، وأنعم النظر إلى وجهها. «بالتأكيد، هي جنية».

ثم رأى أنها صغيرة وجميلة جداً، فراح يتكلم برقة وبصوت خفيض.

- «إنك جنية رائعة - أروع مما رأت عيْني في أي حين. أيمكن لجسد صغير نحيل مثلك أن يفكر بأي شيء عن هيكل ضخم قبيح مثلي؟ إنني لأتساءل. تعالي وتزوجيني، وستنالين كل شيء في طاقة بحار أن يعطيك إياه». فصرخت:

- «كلا! كلا»، وانسلت من تحت ذراعه وابتعدت. جلس البحار في الرمل محدقاً ببلادة أمامه. وهمس:

- «كانت حلماً، كانت مجرد حلم من الأرواح. ليس ثمة شيء كهذا يحدث لبحار بائس. لا؛ للبحارة ثمة جنيات جميلات لها عيون صلبة حادة تقول [تعال، المال أولاً، يا حبيبي]».

ولكن پوليت وجدت الآن الطريق لجعل هنري يتزوجها. ستحتال لتسلط السكر عليه، ستوقعه في شرك النبيذ، وسيكون ثمة قسيس قريب يأتي عند دعوتها المكتومة. أوه، بالتأكيد، لقد وقعت أمور أغرب!

نصبت أحبولتها عليه في ليلته الأولى بعد عودته من البحر - قنينة حجرية كبيرة مملوءة بنبيذ بيرو، وقسيس - رشي بمسكوكة مسروقة

- ينتظر في ظل شجرة. كان هنري متعباً جداً. كان قد خرج قليل العمال فساعد بنفسه في العمل في السفينة. كان الكوخ المغطى بالكروم، الصغير، مكاناً سعيداً مريحاً له. ألقى بدر أبيض بقعاً فضية في البحر إلى الأسفل وكسا الأرض بلفاعات من الضياء الأرجواني. بحلاوة كان نسيم غابي صغير يغني بين النخيل.

جلبت النبيذ وملأت له كأساً.

- «أتحب بوليت؟»

- «آه، نعم! كما يراني الله، أحب بوليت، بوليت الحلوة العزيزة».

كأس أخرى، وأيضاً، بمثابرة -

- «أأنت واثق جداً من أنك تحب بوليت؟»

- «إن بوليت نجمة صغيرة تتدلى من صدري بسلسلة فضية».

وكأس أخرى.

- «ألا تحب أخرى عدا بوليت؟»

- «لقد جئت مشتاقاً كي أرى بوليت؛ لقد أبحر التفكير بها في البحر معي». وانطبق ذراعاه بشدة على خصرها الذهبي الصغير.

أخرى وأخرى وأخرى؛ ثم سقط ذراعاه بعيداً عنها وانطبقت يداه. بكت الفتاة خوفاً.

- «أوه! أتحب بوليت؟»، لأن هنري صار نكد المزاج وغريباً وبارداً.

- «سأخبرك عن زمن ما مضى»، قال بصوت أجش. «كنت صبياً صغيراً، ولداً صغيراً سعيداً، ومع ذلك كبيراً بما يكفي لأعشق. كانت هناك فتاة - وكانت تدعى إليزابث - ابنة ملاك ثري. آه! كانت بديعة كهذه الليلة حولنا، هادئة ورائعة كتلك النخلة النحيلة تحت القمر. لقد

أحببتها بذلك الحب الذي يمكن للرجل أن يمارسه مرة فقط. حتى قلبانا كانا يبدوان ماضيين يداً بيد. كيف أتذكر الخطط المقدام التي تحدثنا عنها - هي وأنا، هناك، ونحن نجلس على سفح التل في الليل. كنا سنعيش في بيت ضخم ويكون لنا أطفال أعزاء يكبرون حولنا. لا يمكنك أن تعرفي حباً كهذا، يا پوليت.

«آه، حسناً! لم يكن يمكنه أن يدوم. إن الآلهة تذبح السعادة غيرةً. لايمكن لشيء جيد أن يدوم. كانت عصابة من البحارة أولاد الحرام خلال الجزيرة وحملوني - وأنا صبي صغير ليبيعوني عبداً في جزر الهند. كان أمراً مريراً فقدان إليزابث - أمراً مريراً لا يمكن أن تنساه السنون»، وكان يبكي بنعومة إلى جانبها.

انذهلت پوليت بالتغيير الذي طرأ عليه. مسدت شعره وعينيه، حتى صار تنفسه هادئاً. ثم بدأت من جديد، بصبر يائس تقريباً، مثل معلم يستجوب تلميذاً بليداً.

- «ولكن - أتحب پوليت؟»

وثب وحملق مغضباً نحوها.

- «أنت؟ أحبك؟ عجباً، إنك مجرد حيوان صغير! حيوان ذهبي صغير جميل، بالتأكيد، ولكن شكل من لحم - لا أكثر. هل يمكن لامرئ أن يعبد إلهاً لا لشيء إلا لأنه كبير، أو يعز أرضاً لا فضيلة لها عدا اتساعها، أو يحب امرأة عالمها الوحيد هو جسدها؟ آه، يا پوليت! أنت لا روح عندك قط! كان لإليزابث روح مجنحة بيضاء. إنني أحبك - نعم - بما يتعين أن تُحبّي من أجله - الجسد. ولكن إليزابث - لقد عشقت إليزابث بروحي».

كانت پوليت متحيرة.

- «ما هذه الروح؟»، سألت. «وكيف يمكنني أن أحصل على واحدة منها؟ وأين هي روحك التي لم أرها ولم أسمع بها قط؟ وإن لم يكن ممكناً رؤيتها، أو سماعها، أو لمسها، فكيف تعرف أنها كانت لها روح؟». فصرخ غاضباً:

- «إش! إش! وإلا فسألكم فمك وأجعلك تجلدين على الصليب. إنك تتكلمين عن أشياء خارج مجالك. ماذا يمكنك أن تعرفي عن الحب الذي يستقر دون شعوذتك الجسدية؟».

الهوامش

(١) Terrier : كلب صغير نشيط ، من كلاب الصيد ، ذكي .

-٦-

جاء عيد الميلاد إلى (المناطق الاستوائية الحارة)، عيد الميلاد الرابع لعبودية هنري. وجلب له جيمس فلاور صندوقاً صغيراً مزخرفاً بسلك ملون. قال:

- «إنه هدية الموسم»، وشعت عيناه بهجةً حين فك هنري الرزمة. كان ثمة صندوق صغير من خشب الساج، وفي داخله، مستقرة على الحرير القرمزي لبطانته، كانت النُتَف المزقة لعبوديته. تناول هنري قطع الورق من الصندوق وحدق إليها، ثم ضحك بشكل متقطع وخفض رأسه إلى يديه. قال المزارع:

- «لم تعد خادماً، بل ابني. أنت الآن ابني، الذي علمته معارف غريبة - وسأعلمك المزيد، كثيراً من المزيد. سنعيش هنا دائماً ونتحدث معاً في الأماسي».

رفع هنري رأسه.

- «أوه! ولكنني لا أستطيع، لا أستطيع البقاء. ينبغي أن أنطلق لأصير قرصاناً».

- «أنت - أنت لا تستطيع البقاء؟ ولكن، يا هنري، لقد خططت حياتنا. لن تتركني هنا وحيداً». فقال هنري:

- «ياسيدي. ينبغي أن أذهب مقرصنا. عجبا، طوال سنواتي كان ذلك هدفي الوحيد. ينبغي أن أذهب، يا سيدي».

- «ولكن يا هنري، يا عزيزي هنري، سيكون لك نصف مزرعتي، وكلها عندما أموت - لو أنك فقط بقيت معي». فصاح هنري الفتي:

- «هذا لن يكون. ينبغي أن أرحل لأصنع اسمي. لست محكوماً بأن أعيش مزارعاً. يا سيدي، ثمة مخططات في رأسي تكاملت بالتأمل. ولن يُسمح لشيء ما بأن يتدخل فيها».

تداعى جيمس فلاور إلى أمام في كرسيه.

- «سأحسّ وحدةً شديدةً هنا من دونك. لست أدري تماماً ماذا سأفعل من دونك».

حمل فكرُ هنري إياه عائداً به إلى الزمن القديم، إذ روبرت يبتسم في النار ويقول هذه الكلمات ذاتها - «سأحس وحدة شديدة هنا من دونك، يا بني». وتساءل فيما إذا كانت أمه لاتزال تجلس ببرود منتصبةً وصامتةً. لابد أنها تغلبت على ذلك بالتأكيد. إن الناس يتغلبون دائماً على الأشياء التي يخشونها كثيراً جداً. ثم فكر في پوليت الصغيرة التي ستبكي فزعاً في كوخها عندما يخبرها. قال:

- «هناك خادمة صغيرة، پوليت الصغيرة. لقد حميتها. ولو أنني وفرت لك المسرة، فهل ستقوم بهذه الأمور لي؟ دائماً، دائماً احتفظ بها في المنزل ولا تسمح قط بإرسالها إلى الحقول، ولا تعريضها للجلد، ولا للزواج من أحد السود. هل ستفعل ذلك من أجلي بالتأكيد؟». فقال جيمس فلاور:

- «بالطبع سأفعل. آه، ولكن كان طيباً وجودك هنا، يا هنري -

جيداً سماع صوتك مساء. ماذا سأفعل في المساء الآن؟ ليس ثمة من يأخذ مكانك، لأنك كنت ابني حقاً. سأحس وحدة شديدة هنا من دونك، يا ولدي». فقال هنري:

- «إن الكدح الذي قمت به في خدمتك قد تم سداده، بأكثر من قيمته، بالمعرفة التي صببتها في أذني في هذه الأمسيات ذاتها. وسأفتقدك، يا سيدي، أكثر مما أستطيع التعبير. ولكن ألا يمكنك أن تدرك؟ ينبغي أن أذهب للقرصنة وأستولي على مدينة أسبانية، لأنني مقتنع أن الإنسان إذا خطط بعناية، وتأمل فرصه والرجال الذين تحت إمرته، يمكن القيام بالأمر جيداً. لقد درست الحروب القديمة، ويجب أن أحقق اسماً لنفسي ومستقبلاً. ثم، عندما أفوز بإعجاب الرجال، فربما سأعود إليك، يا سيدي، وسنجلس ونتحدث مرة أخرى في الأمسيات. أستتذكر رغبتي بخصوص پوليت». فسأل المزارع:

- «من هي پوليت؟»

- «عجباً، الخادمة التي ذكرتها. لا تجعلها تذهب مع العبيد، لأنني مولع بها».

- «آه، نعم! أتذكر! وإلى أين أنت ذاهب الآن، يا هنري؟»

- «إلى جامايكا. لقد كان عمي، السير إدوارد، نائب حاكم منذ زمن طويل في پورت رويال. ولكنني لم يسبق أن رأيته قط - حسناً، لأنني كنت خادماً مملوكاً، وكان هو سيداً رفيع الشأن. عندي رسالة إليه أعطاني إياها أبي قبل سنوات. ربما سيساعدني في شراء سفينة لغاراتي».

- «سأساعدك في شراء سفينة. لقد كنت بالغ الطيبة نحوي»، قال المزارع راجياً.

غاص هنري الآن في نوع من الخجل، لأن في الصندوق الذي تحت

سريره يلتمع كوم من المسكوكات الذهبية - أكثر من ألف باون. فقال:

- «كلا، كلا، لقد تلقيت في تعليمك وفي الأب الذي كنته لي أكثر بكثير مما يستطيع المال أن يساويه». الآن وهو راحل، فقد كان هنري يعرف أنه أنشأ حباً لهذا الرجل الكئيب أحمر الوجه.

كان سود أقوياء براقون يجذفون الكَنو، فمضى ينزلق نحو سفينة راسية، سفينة مجازة من قائد الولايات لحمل العبيد السود من غينيا إلى جزر الهند. وكان جيمس فلاور، الجالس في مؤخر الكنو، أحمر جداً وصامتاً كثيراً. ولكن فيما اقتربوا من جانب السفينة، رفع رأسه وتحدث بتوسل إلى هنري.

- «ثمة كتب على الرفوف لم تقرأها قط».
- «سأعود، ذات يوم، وأقرؤها».
- «ثمة أشياء في ذهني لم أخبرك بها، يا ولدي».
- «عندما أنال إعجاب الرجال، سآتي إليك وستخبرني بها».
- «أتقسم على ذلك؟»
- «حسناً - نعم، أقسم».
- «وكم سيستغرق منك القيام بهذه الأمور، يا هنري؟»
- «لا أستطيع القول؛ سنة - أو عشر سنوات - أو عشرين. يجب أن أحقق اسماً باهراً جداً». كان هنري يتسلق جانب السفينة.
- «سأحس وحدة في الأمسيات، يا بني».
- «وأنا أيضاً، يا سيدي. انظر! إننا سنرحل! وداعاً، يا سيدي. ستتذكر پوليت؟».
- «پوليت؟ - پوليت؟ - آه، نعم؛ سأتذكر».

-٧-

وصل هنري مورغان إلى مدينة پورت رويال الإنكليزية وترك متاعه على الشاطئ، فيما ذهب يبحث عن عمه. كان سأل في الشوارع:

- «أتعرف أين يمكنني أن أجد نائب الحاكم؟»

- «قصره هناك، أيها الشاب، ومن يدري إن كان هو فيه».

قصره - كان مثل سيد إنكليزي يصير موظفاً بعيداً عن بلاده. كان القصر يشبه الرجل الذي سبق أن وصفه روبرت مورغان. وكانت رسائل الرجل يرجع تاريخها إلى قصر نائب الحاكم. وجد هنري القصر، وهو منزل حقير، خفيض، له جدران من طين مبيض وسقف من القرميد الأحمر سيئ القولبة. كان ثمة حامل مِطرد[1] مبهرج ينتصب على الأرض، ممسكاً أمامه بسلاحه غير الفعال، العظيم، بتخشب أمامه، فيما كان يبقى حاملاً لياقة معذَّبة على وجهه بسبب خشرم من ذباب معاد.

انخفض المطرد عبر الممر فيما اقترب هنري.

- «إنني أبحث عن السير إدوارد مورغان».

- «ما عندك مع سعادته؟»

- «آه، لاحظ يا سيدي، أنه عمي، وأنا أرغب في الحديث معه».

قطب الجندي حاجبيه مرتاباً وشدد قبضته على المطرد. ثم تذكر

هنري دروسه من المزرعة. ربما كان هذا الرجل، برغم سترته الحمراء كلها، لا يزيد على عبد. فصرخ:

- «أبعد عن طريقي، أيها الجرو اللعين. أبعد عن طريقي وإلا رأيتك مشنوقاً».

انكمش الرجل مرتعداً وأوشك أن يوقع سلاحه.

- «نعم يا سيدي، سأرسل خبرك يا سيدي». ونفخ أداة مصوِّتة فضية صغيرة، وعندما نزل خادم بشريط زينة أخضر إلى الباب، قال:

- «شاب لرؤية سعادته».

اقتيد هنري إلى داخل غرفة صغيرة مظلمة بمدلَّيات رمادية، سميكة، مسجفة بذهب باهت. كانت ثمة ثلاث لوحات باهتة على الجدران، في أطر سوداء؛ فارسان في قبعات مريشة، يمسكان سيفيهما أفقياً بحيث كانا يبدوان مثل ذيلين نحيلين متصلبين، وسيدة حسناء لها شعر مذرور ووشاح حريري يترك كتفيها ونصف ثدييها غير مغطاة.

من مكان ما خلف المدخل المستّر جاء رنين رفيع لقيثارة تشد ببطء. أخذ خادم رسالة هنري وتركه وحيداً.

وأحسّ وحدةً شديدةً. كان منزلاً للمماحكة الدقيقة، الباردة. إن المرء يحسّ احتقاراً مؤدباً حتى في الوجوه المصورة على الجدار. كان الشعار البريطاني مطرزاً على ستائر الباب، الأسد على جانب، ممسكاً نصف ترس، وأحادي القرن، مع نصفه، على الجانب الآخر. عندما كانت الستائر تتدلى مستقيمة كان التصميم يكتمل. في هذه الغرفة، بدأ هنري يخشى عمه.

ولكن كل أفكاره هذه انطردت من ذهنه عندما ظهر السير إدوارد.

كان أباه كما يتذكره، ومع ذلك ليس بأبيه قط. ما كان لروبرت العجوز قط أن يضع شارباً مثل هدب عين، وما كان شيء في حياة روبرت يجعله يزم شفتيه معاً حتى تصيرا برقة الشارب. قد يكون هذان الاثنان ولدا كحبة فول، ولكن كلا منهما قد خلق شاربه.

كان روبرت قد قال الحق؛ كان هذا الرجل نسخته المطابقة المختالة ولكن السير إدوارد كان مثل ممثل - مع أنه عهد إليه بدور مضحك - يجعل دوره يبدو الشيء الصحيح وكل الآخرين عبثاً. كانت سترته الأرجوانية ذات الأشرطة عند الرقبة والرسغين، والمغْوَل[٢] الطويل، النحيف مثل قلم رصاص في قِراب من الحرير الرمادي، والجوربان الحريريان الرماديان والحذاءان الرماديان اللينان بالأشرطة المحنية عليهما، جميعاً تبدو لهنري أعلى نمط من اللباس المناسب. كان لباسه هو الجيد يبدو أسمالاً رثة بالمقارنة.

كان عمه ينظر إليه بثبات، منتظراً أن يتكلم هنري أولاً. فبدأ ببساطة:

- «أنا هنري مورغان، يا سيدي - ابن روبرت».

- «أرى أنك هو. ثمة تشابه - شبه خاب. وماذا يمكن أن أفعل لك؟»

- «حسناً، أنا - لست أدري. لقد جئت كي أزورك وأعلمك بوجودي».

- «كان ذلك لطيفاً منك - آه - لطيفاً جداً».

كان صعباً تحويل الحديث إلى هذا الحقل من اللياقة التي تكاد تكون ساخرة. سأل هنري:

- «هل سمعت أي شيء عن أبويّ خلال السنوات الخمس الطويلة التي كنت أنا فيها بعيداً؟»

- «خمس سنوات! ماذا كنت تفعل، بحق السماء؟»

- «كنت خادماً ملتزماً، يا سيدي. ولكن عن أبويّ؟»

- «أمك ماتت».

- «أمي ماتت»، كرر هنري في همس. وتساءل إن كانت ماتت بعد رحيله مباشرة. لم يحس سوءاً بالغاً حول الأمر، ومع ذلك فقد صوتت الكلمات أشياء هائلة كهذه، أشياء قطعية كهذه. كانت هذه نهاية شيء قد لايقع مرة أخرى. تمتم «ماتت أمي. وأبي؟»

- «لقد سمعت أن أباك يفعل أشياء غريبة في حديقة وروده. كتب لي الملاّك رايس عن ذلك. إنه يقطف الزهرات المكتملات ويرميها إلى الهواء مثل شخص مشدوه. الأرض مغطاة بالبتلات والجيران يقفون في الأطراف ويضحكون عليه. لم يكن روبرت طبيعياً قط؛ في الحقيقة، لم يكن قط عاقلاً تماماً، وإلا لكان قد ذهب بعيداً مع جيمس الأول. أنا من ناحيتي، كنت أرى دائماً أنه سيقع في فضيحة ما. لم يكن يحترم شيئاً يستحق الاحترام. لماذا يتعين عليه أن يفعل هذا في العراء، حيث الناس يهزؤون؟ إن ذلك يجلب السخرية على - آه - أقربائه».

- «وهل تظنه غير عاقل حقاً، يا عمي؟»

- «لا أدري»، قال السير إدوارد، وأضاف بشيء من نفاد الصبر: «أنا مجرد نقلت عن رسالة السير رايس. إن مركزي لا يتيح لي الوقت للحدس العقيم - ولا وقتَ طويلاً للحديث الفارغ»، قال ذلك بحدّة.

كان رنين القيثارة المنهجي قد توقف، والآن أزيحت ستارة الباب

ودخلت الغرفة فتاة نحيفة. كانت تصعب رؤيتها في هذا المكان المظلم. كان واضحاً أنها غير حسناء، وإنما لطيفة بفخر. كانت ناعمة اللباس ووجهها شاحباً. وحتى شعرها كان ذهبياً عطوياً شاحباً. كانت تبدو، في المجموع، صدى متعباً، كامداً، للسير إدوارد.

أجفلت الفتاة لرؤية هنري هناك، ووجد أنه هو نفسه كان خائفاً قليلاً منها بالطريقة ذاتها التي كان ينطوي فيها على خشية من السير إدوارد. نظرت إلى هنري كما لو كان طعاماً كريهاً لا يمنعها من دفعه بعيداً عن مكانها غير قواعد السلوك الصارمة.

قال السير هنري باختصار:

- «ابن عمك، هنري»، ثم:

- «ابنتي عديمة الأم، إليزابث». ثم، بعصبية، كما لو أن خيرا لن يتحقق من هذا الاتصال: «أليس الأفضل أن تمارسي موسيقاك وقتاً أطول قليلاً، يا عزيزتي؟»

ألقت بإشارة مجاملة نحو هنري، وبصوت كصوت أبيها، حيّته.

- «كيف حالك. نعم، يا سيدي، أظن أنه يحسن بي أن أتمرن. تلك القطعة الأخيرة صعبة ولكنها جميلة»، واختفت وراء الستارة، من حيث أخذ يجيء مرة أخرى ضرب القيثارة الدقيق، البطيء.

شد هنري عزمه، مع أنه كان خائفاً من هذا الرجل.

- «ثمة شيء أريد الحديث عنه، يا سيدي. أريد الذهاب للقرصنة، يا عمي - في البحر، في سفينة ضخمة ذات مدافع. وعندما أحظى بسفن في عرض البحر، ويتجمع حشد من الرجال بسبب شهرتي، سأستولي عندئذ على مدينة أسبانية من أجل النهب والفدية. أنا بحار

جيد، يا عمي. يمكنني أن أبحر في أي بحر، فيما أظن؛ وأنا أنوي أن أخطط لحملتي جيداً. لقد قرأت كثيراً جداً عن الحروب القديمة. لم يكن القراصنة قط القوة التي أريد أن أجعلهم إياها. عجباً، يمكنني أن أشكّل جيوشاً وقوى بحرية منهم، يا عمي العزيز. في الوقت المناسب سأقود كل (الأخوية الحرة) للساحل، وستكون قوةً مسلحةً يحسب حسابها.

«هذه الأمور فكرت فيها في سنوات عبوديتي الطويلة. ثمة صراخ في قلبي لفعل هذه الأشياء. أعتقد أن نهاية كل حلمي هو اسم عظيم وثروة هائلة. إنني أعرف قواي. أنا في العشرين من عمري، وقد قضيت بضع سنوات في البحر، وعندي ألف باون. إن الشخص الذي يساعدني الآن - الذي يمضي معي كشريك - سأجعله ثرياً. إنني واثق جداً بأن بمقدوري أن أفعل هذه الأشياء - واثق جداً.

«إنني أطلب إليك، يا عمي، أن تضيف إلى ألف باوني ما يكفي لأشتري سفينة مصلّحة وأجمع الأرواح الشجاعة، الحرة، حولي لتنفذ إرادتي. لو أنك وضعت ألف باون آخر في يدي، أقسم أن أجعلك أثرى مما أنت عليه».

لم تكن القيثارة تصوِّت بعد. عند بداية انفجار الفتى، كان السير إدوارد قد مد يده كما لو ليسكته، ولكن الكلمات اندفعت مسرعة. وعندما أصمتت القيثارة، نظر السير إدوارد بقلق نحو الباب. أما الآن فبدا كما لو أنه يعيد اهتمامه إلى هنري. قال بحدة:

- «لامال عندي أجازف به في مغامرات غير أكيدة. وليس عندي مزيد من الوقت للكلام. إن الحاكم قادم ليشاورني خلال دقيقة. ولكن لابد من أن أقول إنك ولد لا أباليّ، فظ، يحتمل أن يكون مصيرك

الشنق بسبب مغامراتك. إن أباك مثلك، كل ما هنالك أن فظاظته في دماغه.

«كما أن عليّ أن أخبرك أن ثمة سلاماً بين أسبانيا وإنكلترا، صحيح أنه ليس شعوراً طيباً، ولكن مع ذلك، هو سلام. وإذا مضيت تطوف وتغزو، فسيكون واجبي أن أضمن معاقبتك، بصرف النظر عن أنني ربما أسفت لذلك. لم يعد الـ (مدورو الرؤوس)[٣] في السلطة، وهذه الأمور الوحشية التي أهملها كرومويل تراقَب بعناية الآن. تذكر ما أقول، لأنني لا أحب أن أشنق ابن أخي. والآن، يجب أن أتمنى لك يوماً طيباً».

وقفت دموع استياء في عيني هنري.

- «أشكرك على مجيئك إليّ»، قال عمه. «وداعاً». ومضى عبر الباب المستتر.

في الشارع، تمشى هنري بكآبة. رأى ابنة عمه على مسافة قليلة أمامه، يحرسها خادم زنجي طويل. واصل سيره ببطء بحيث تبقيه وراءها، ولكن الفتاة تلكأت في طريقها.

- «ربما كانت ترغب في محادثتي»، فكر هنري، وحث خطاه للحاق بها. رأى، دون أن يصدق، ما كانت الغرفة المظلمة قد أخفته. كانت مجرد فتاة صغيرة، لا تتجاوز الرابعة عشرة في أعلى تقدير. رفعت إليزابث بصرها فيما صار إلى جانبها. سألها هنري:

- «أتجدين أشياء ممتعة تقومين بها هنا في جزر الهند؟». فأجابت:

- «بالكثرة التي يمكن للمرء أن يتوقع. لقد مضى علينا هنا وقت طويل، كما تعلم».

ثم استدارت، وهي تمس كتف عبدها بمظلتها الصغيرة، إلى شارع متقاطع، وتركت هنري ينظر وراءها.

كان يشعر بمرارة ضد هؤلاء الأقارب المغرورين الذين كان يبدو أنهم يبتعدون عنه كما لو كان فاسداً. ما كان بمقدوره أن يدعوهم حمقى، لأنهم أثروا عليه بعمق كبير. لقد نجحوا في جعله يشعر بالوحدة واليأس وبأنه فتي جداً.

كانت طرق پورت رويال الضيقة تغوص عميقاً تحت قَذَر طيني، ينعجن إلى سائل غليظ بفعل عربات الدفع وما لا يعد من الأرجل. كانت پورت رويال تحمل ذات الشبه، إلى مدينة، الذي يحمله قصر نائب الحاكم إلى الـ (وايت هال)[٤]. كانت الشوارع مجرد أزقة ضيقة مرصوصة ببيوت خشبية قذرة. ولكل بيت شرفة فوق الشارع يجلس فيها الناس ويحدقون إلى هنري إذ يعبر، يحدقون لا باهتمام، وإنما بضجر، كما يفعل الناس أثناء المرض مع الذباب الذي يدب على السقف. بدا أحد الشوارع وكأنه لا سكان فيه عدا النساء - نساء سود، وبيض، ونساء رماديات، والحمى مسجلة على وجناتهن الجوفاء. كن ينحنين من شرفاتهن مثل سيرانات[٥] غير نظيفات وينادين بنعومة أثناء مروره. ثم، عندما لايعيرهن انتباها، كن يزعقن مثل ببغاوات غاضبات ويصببن اللعنات ويبصقن وراءه.

قريباً من الواجهة المائية وصل إلى نوع من خمارة تجمّع أمامها حشد كبير. كان ينتصب في منتصف الطريق برميل نبيذ خشبي هُشم رأسه إلى الداخل، ويختال رجل سكران ضخم، يضع أشرطة خرقاء وقبعة

مريشة، إلى جانبه. أمرّ أقداحاً وطسوتاً وحتى قبعات ملأى نبيذاً للرجال الذين يمدون أيديهم. وبين آونة وأخرى كان يصيح نخباً وهتافاً، وكان جمهوره يصرخ مهللاً له.

حاول هنري الفتي أن يجتازهم في تعاسته.

- «تعال واشرب لصحتي، أيها الفتى». فقال هنري:

- «لا أرغب في الشرب».

- «لاترغب في الشرب؟» سُحق الرجل الضخم بهذا الموقف الجديد. ثم استعاد غضبه.

- «وحق الله! ستشرب حتماً عندما يطلب إليك ذلك الكابتن داوس الذي أخذ تجهيزات السفينة (سانغره دل كريستو) قبل أسبوع من اليوم». اقترب الرجل المكفهر، ثم فجأة سحب مسدساً ضخماً من حزامه ووجّهه مرتجفاً نحو صدر هنري، عاين الولد المسدس، وقال:

- «سأشرب في صحتك». وبينما كان ينظر، واتته فكرة. «دعني أتكلم إليك وحدك، يا كابتن داوس، يا سيدي»، وسحب القرصان إلى باب حانة. وابتدأ القول:

- «عن رحلتك التالية -» فزأر الكابتن:

- «رحلتي التالية والجحيم! لقد نلت جائزة جيدة منذ الآن، ألم أنل؟ حصلت على مال، ألم أحصل؟ إذن ما الذي تصرخ به عن رحلة تالية؟ انتظر حتى يتم إنفاق الكسب والتئام الجروح. انتظر حتى أترك بورت رويال جافاً من الخمور، ثم تعال متحدثاً عن الرحلة التالية». واندفع عائداً إلى حشد الشارع. وصاح:

- «يا أولاد! يا أولاد، إنكم لم تسكروا في صحتي منذ ساعات. تعالوا، اصرخوا معاً الآن، ثم سنغني!»

مضى هنري متقدماً في يأس. في الميناء كان عدد من السفن يقف راسياً. اقترب من بحار يجلس على الرمل. وقال، ليفتتح التعارف:

- «تلك سريعة».

- «إي، جيدة بما يكفي». وسأل هنري:

- «هل هناك قراصنة لهم اعتبار في هذه المدينة؟»

- «ولا واحد عدا داوس ذاك، وهو مجرد جرذ صاخب. إنه يأخذ زورقاً صغيراً محملاً بالتجهيزات إلى (كامپيچي)، فتتصور أنه عاد بپنما إلى هنا، بسبب الضجة التي يحدثها حول الأمر».

- «ولكن ألا يوجد آخرون قط؟»

- «حسنا، هناك واحد يسمونه گريپو، ولكنه لا يستولي على أيّ سفن ما لم تبحر عزلاء. يخاف ظله، گريپو. نعم، إنه في الميناء بلا سفينة غنيمة ويشرب الروم الأسود نسيئةً، كما أظن». فسأل هنري:

- «أيها سفينته؟»

- ها، تلك هي. يسمونها گانيميده. يقولون إن گريپو سرقها في سانت مالو عندما كان بحارتها سكارى. ألقى هو وتسعة آخرون التعساء المتيبسين المساكين جانباً وانطلقوا بالسفينة نحو جزر الهند. نعم، إنها سفينة جيدة، ولكن گريپو ليس قبطاناً. والجميع يتعجبون كيف أنه لم يحطمها قبل الآن. خذ مانسڤلدت، ذاك قبطان لك - قبطان حقيقي. ولكن مانسڤلدت في تورتوگا». ولاحظ هنري:

- «ذات شراع، جيدة، سريعة، مع أن بمقدورها أن تحمل أشرعة أكثر بلا أذى. ماذا عن مدافعها؟»

- «يقولون إن عيبها، إن كان ذلك عيباً، أنها مسلحة أكثر من اللازم».

وفي تلك الليلة، وجد هنري القرصان يشرب في كوخ على الشاطئ. كان الرجل يكاد يكون أسود؛ وتقطع كلاً من وجنتيه غضنةٌ سمينةٌ كما لو أن شريطاً حريرياً سحب عن كثب على اللحم حتى اختفى. وكانت عيناه تتواثبان هنا وهناك مثل خفراء أمام معسكر، من مخاوف قليلة. سأل هنري:

- «هل أنت من يسمونه گريپو؟». فصرخ الرجل، مجفلاً:

- «أنا لم آخذ سفينة غصباً. أنا لا أنهب سفناً. ليس لديك ما تلصقه عليّ».

كان قد بوغت بالكلام ذات مرة في سانت مالو على هذا النحو، وفيما بعد جلدوه على الصليب حتى انفتح مئة فم غائر على بدنه راح كل واحد منها يضحك دما. وقد صار گريپو يخاف كل ما يشبه السلطة منذ ذلك الحين. فسأل:

- «من أنت؟»

- «أظن أنني سأحقق ثروتك، يا گريپو»، قال هنري باطمئنان. كان يعرف كيف يعالج هذا الرجل، لأنه كان مقابلاً للعديد من عبيد المزرعة - مرتعباً، وربما جشعاً. «ماذا ستفعل بخمسمئة باون إنكليزي، يا گريپو؟»

لعق الأسود شفتيه ورمق الكأس الفارغة أمامه. وهمس:

- «ماذا يجب أن أفعل لأنال هذا المال؟»

- «ستبيعني قيادة الگانيميده». الآن صار گريپو محترساً. قال بجزم:

- «إن الگانيميده تساوي أكثر بكثير»

- «ولكنني لا أريد شراء السفينة - بل قيادتها فقط. انظر، يا گريپو! سأصنع هذا الاتفاق معك. سأعطيك خمسمئة باون لقاء نصف منفعة في الگانيميده وكل قيادتها. ثم سندخل البحر. أعتقد أنني أعرف الحصول على الغنائم إن لم يجر تدخل في شركتي. يا گريپو، سأعطيك مكتوباً بهذا المعنى. لو أنني فشلت في تعهد واحد مفرد في الگانيميده، ستسترد السفينة كاملة، وستحتفظ بالخمسمئة باون».

كان گريپو لايزال ينظر إلى كأسه الفارغة، ولكنه امتلأ انفعالاً فجأة، فصاح:

- «اعطني مالاً. بسرعة! اعطني المال». ثم -

- «أولوتو! يا أولوتو! هات نبيذاً أبيض - نبيذاً أبيض - حباً بالمسيح».

الهوامش

(١) سلاح قديم مركب من رمح وفأس قتال .

(٢) سيف مستقيم ذو حدين .

(٣) نواب البرلمان في زمن شارل الأول ، و/او اعضاء فرقة الكويكرز الدينية .

(٤) الحكومة البريطانية او مقرها .

(٥) Sirens : كائنات اسطورية باجساد طيور ورؤوس نساء .

الفصل الثالث

كان ثمة العديد من السمعات المتألقة على طول ساحل دارين[1] وبين جزر الكاريبي الخضراء عندما جاء هنري مورغان ليصير قرصاناً. في دكاكين النبيذ في تورتوگا كانت ثمة حكايات عن آلاف الثروات التي كوِّنَتَ وأنفقت، عن سفن بديعة أخذت وأغرقت، عن ذهب وسبائك بيعت على الأرصفة برخص الخشب.

كانت (الأخوية الحرة) قد نمت لتصير شيئاً رهيباً منذ أن انسل پيير لاغراند وعصبة صغيرة من الصيادين من غابات هيسپانيولا وأسروا نائب أميرال أسطول السبائك من كنو. لقد رأت فرنسا وبريطانيا وهولندا في هذه الجزر ملاذاً جيداً لمجرميها، وقد أفرغت طوال سنوات شحنات بشرية عديمة القيمة على جزر الهند. جاء زمن على تلك الأمم العريقة كان فيه كل من لا يستطيع أن يقدم تقريراً شريفاً طيباً عن نفسه يدفع محشوراً إلى سفينة ويرسل كي يصير خادم التزام إلى أي رجل يدفع مبلغاً صغيراً له. وعندما ينتهي زمن التزام هؤلاء، فقد كانوا يسرقون البندقيات ويحاربون ضد أسبانيا. ولم يكن ذلك غريباً، فقد كانت أسبانيا كاثوليكية وثرية، في حين كان أناس الهوغونوت[2] واللوثريين[3] وكنيسة إنكلترا[4] فقراء بليت كعوبهم. كانوا يحاربون حرباً مقدسة. كانت أسبانيا قد أقفلت الأبواب على كنوز العالم. لو أن متسولين محطمين بائسين تمكنوا من الوصول إلى مسكوكة من ثقب المفتاح، فمن هو الذي سيتركها؟ من الذي كان يبالي عدا أسبانيا؟

بالتأكيد كانت إنكلترا وفرنسا وهولندا توليه أقل اهتمام. وفي بعض الأحيان كانت تجهز القراصنة بمهمات ضد أراغون وقشتالة، بحيث أنك كنت يمكن أن تقابل رجلاً كان قد أبعد، قبل عشر سنين، في سفينة سجن، حاملاً لقب «قبطان بموجب إنعام الملك».

كان لفرنسا طيبة أطفالها العصاة في القلب، لأنها أرسلت ألفاً ومئتي امرأة إلى تورتوگا ليصرن زوجات القراصنة. وانتقلت الألف و المئتان جميعاً إلى تجارة أكثر نفعاً من الزواج ما أن نزلن إلى اليابسة، ولكن فرنسا لم تستطع الامتناع عن ذلك.

لقد حصلوا على اسمهم، أولئك القراصنة، من زمن لم يكونوا فيه غير صيادي بقر، كانت ثمة طريقة لتدخين اللحم بإحراق قطع صغيرة من الشحم واللحم على النار. وقد جعل ذلك اللحم أكثر سواغاً من المعتاد. وقد سمِّيت تلك بطريقة الـ boucan، ومنها سمِّي القراصنة.

ولكن بعد زمن خرج صيادو الأبقار هؤلاء من الغابات في جماعات حذرة صغيرة؛ ثم تشكلت عصابات، ثم أساطيل كاملة من ثمانية أو عشر مراكب. وأخيراً تجمع آلاف في تورتوگا، ومن بقعة الأمان انتشروا حول خاصرتي أسبانيا.

ولم يكن بمقدور أسبانيا أن تكافحهم. لو أنها أعدمت عشراً كان مائة ينضمون إلى صفوفهم؛ وهكذا حصنت مدنها وأرسلت كنوزها في البحر تحت حماية سفن حربية ملأى بالجنود. إن مراكب المستعمرات الأسبانية التي لا تعد قد طردها القراصنة كلها تقريباً من البحر.

وكانت ثمة أسماء رابطة بين (الأخوية)، ومآثر تجعل هنري مورغان يتضايق غيرةً لو أنه لم يكن واثقاً من كسفها جميعاً ذات يوم.

كان هناك بارثولوميو پورتوغيس، الذي استولى على سفينة كبرى.

ولكن قبل أن يتمكن من الهروب بها، أسر قريباً من كامبيچي. نصبت المشنقة على الساحل لشنقه. راقبهم، من سجنه على السفينة، ينصبونها. وفي الليلة السابقة على تنفيذ إعدامه، طعن حارسه وسبح مبتعداً، مدعوماً ببرميل صغير. وقبل أن تنقضي ثمانية أيام، عاد مع قراصنته وكنو طويل فسرق السفينة ذاتها من ميناء كامبيچي. فقدها، بالطبع، في عاصفة قريباً من كوبا، ولكن القصة كانت، مع ذلك، تروى بمرح في الخمارات.

وكان روشه برازيليانو هولندياً ريّان الوجه. عندما كان فتى طرده البرتغاليون من البرازيل، ومن مستعمرتهم أخذ اسمه. ومن الغريب أنه لم يحمل ضغينة ضد البرتغال. انتقل كرهه إلى الأسبان. كان قبطاناً محبوباً مهذباً رقيقاً، عندما لا يكون ثمة أسبان في الجوار. كان رجاله يعبدونه، ولا يشربون نخباً على غير اسمه. ذات مرة، عندما تحطمت سفينته في كاستيلا دي أورو، قتل القسم الأكبر من قوة خيالة أسبانية واستعمل حيواناتها للركوب. عندما كان رجال أسبانيا قريبين منه، كان يصير وحشاً فريداً. وقد قيل إنه شوى مرة سجناء على سفافيد خضراء فوق نار هادئة.

فيما كان يتم إخراج السفن الثرية من البحر، ينبغي أن يستولي القراصنة على قرى، ثم حتى مدن ذات قلاع. نهب لويس سكوت كامبيچي، وخلّفها كومة مدخنة سوداء.

كان لاونَيْ قد جاء من سابل دولاون، وصار، سريعاً، أكثر رجل رهبة في المحيط الغربي. بدأ بكراهية حقيقية لأسبانيا وانتهى بعشق شديد للقسوة. كان قد اقتلع ألسنة، وقطّع أسراه إلى شرائح بسيفه. كان الأسبان يفضلون بكثير رؤية الشيطان في أيّ صورة على رؤية لاونَيْ. كان همس

اسمه يخلي القرى أمام طريقه من كل كائن حي. كان يقال إن الجرذان تهرب إلى الغابة عندما يأتي. أخذ مارا كايبو، وجبل طارق الجديدة، وسانت جيمس دي ليون. وفي كل مكان ذبحَّ الناس حباً ضارياً في التذبيح.

ذات مرة، عندما ركبته شهوة الدم، أمر أن يشد سبعة وثمانون أسيراً ويطرحوا صفاً على الأرض. ثم سار مع الصف، حاملاً مشحذاً بيد وسيفاً طويلاً في الأخرى. في ذلك اليوم قطع سبعة وثمانين رأساً بيده.

ولكن لاوني لم يكن قانعاً باغتيال الرجال الأسبان. ذهب إلى بلاد يوكاتان(٥) الرقيقة، حيث يعيش الناس في مدن حجرية مخربة، وحيث تسير العذراوات متوجات بالزهور. كانوا ناساً هادئين في يوكاتان، وكان عرقهم يموت في اندثار لايمكن تفسيره. عندما غادر لاوني، كانت المدن أكواماً من الحجارة والرماد، ولم تبقَ ثمة تيجان قط.

كان هنود دارين مختلفين؛ أفظاظا، عديمي الرهبة وقساة صارمين. كان الأسبان يسمونهم برافو(٦) ويقسمون على كونهم غير قابلين للترويض. وقد كانوا أصدقاء للقراصنة لأنهم هم أيضاً كانوا يكرهون الأسبان، ولكن لاوني سرقهم وقتل رجال العشيرة. انتظر هؤلاء الهنود سنوات طويلة للأخذ بثأرهم، وأخيراً أمسكوا بلاوني عندما تحطمت سفينته على سواحل بلادهم. أقاموا ناراً ورقصوا ساعات طوالاً، ثم حرقوا جسد الفرنسي قطعةً قطعةً أمام عينيه، أصبعاً وقبضة لحم كل مرة.

جاء سيد فرنسي نحيل إلى إحدى الخمارات في تورتوگا ذات ليلة، وعندما سألوه عن اسمه، أمسك برميل روم كبيراً وألقاه بعيداً عنه. قال:

- «برا دي فير»، ولم يسأله أحد قط المزيد. لم يُعرف قط إن كان اسمه أخفي خجلاً أو أسفاً أو كراهية، ولكن كل الساحل عرفه قبطاناً شجاعاً عظيماً.

كان هؤلاء رجالاً يجعلون الكلمات تكرر.

- «لا غنيمة، لا أجر»، كان المغني قد قال موبخاً، والآن صار الجميع يقولونها. عندما هوجم الكابتن لورنس، وهو في زورق صغير، من قبل فرقاطتين أسبانيتين، قال لرجاله: «إن عندكم الكثير من التجربة بحيث لاتحسون بالخطر الذي أنتم فيه، وكثير من الشجاعة بحيث لا تخافونه». كان هذا كلاماً جميلاً، وعلى قوته أسر أتباعه السفينتين الأسبانيتين وأخذوهما إلى موطنهم في غوفس.

لم يكونوا جميعاً قساة أو حتى عنيفين. كان لبعضهم مسحة غريبة من التقوى. كان ثمة الكابتن والتينغ الذي يلتزم بإقامة قداس إلهي كل سبت، حيث يقف الطاقم كله حاسري الرؤوس. وأطلق دانييل النار مرةً على بحار بسبب عدم التوقير. كان هؤلاء القراصنة يصلّون بصوت عالٍ قبل المعركة، وكان نصفهم - إن نجحوا - يمضون متحشدين إلى كاتدرائية محتلة ليغنوا تسبيحة الشكر[٧] في حين كان النصف الآخر ينهب السفينة.

حافظ قباطنة السفن على أشد ضبط بين رجالهم، بأن كانوا يعاقبون، بسرعة، العصيان أو أي عمل خاطئ آخر قد يعوق نجاحهم. لم تكن ثمة في البحر تمرّدات من تلك التي تحملها (كيد) و (ذو اللحية السوداء) و (لافيت) في ما بعد.

ولكن من كل تاريخ الأخوية، سما رجل واحد. كان ثمة هولندي يدعى إدوارد مانسفيلدت. في الشجاعة وفي الجندية كان مجلّياً، لأنه كان قد استولى على غرانادا وسانت أغوستين في فلوريدا، وعلى جزيرة سانت كاترين. مع أسطول عظيم من السفن كان قد ذهب يطوف على طول سواحل دارين وكاستيلو دي أورو، مستولياً على ما تبلغه يداه. ولكن كانت تسكنه قوة حلم. من عصابته المكونة من الأبطال الصعاليك

أراد أن يصنع أمة دائمة، قوية، أمة هجومية جديدة في أميركا. وبينما اندفعت حشود متزايدة من القراصنة إلى إمرته، كان حلمه يتعزز. استشار حكومتي إنكلترا وفرنسا. صعقتا. ثم منعتاه من التفكير في أمر كهذا. جيش من قراصنة غير مطواعين لمشانق السجان؟ عجباً، إنهم سينطلقون لينهبوا الجميع. لا ينبغي أن يفكر في ذلك أبداً.

ولكنه مع ذلك واصل التخطيط والتخطيط لحكومته الجديدة. كان مفروضاً أن تنطلق من جزيرة سانت كاترين. وضع هيئة من رجاله هناك، ثم مضى يبحث عن المزيد لينضموا إلى دولته. تحطمت سفينته قرب مدينة هافانا، وخنق الأسبان إدوارد مانسفيلدت بالمخنق[٨].

هؤلاء كانوا هم الرجال الذين تحرك هنري مورغان ليقودهم. ولم يرَ، عن ثقة، أي حائل، ما دام المرء يخطط بعناية ويحسب فرصه. كانت هذه القصص وهؤلاء الرجال جيدة بما يكفي، ولكنها تقصّر في الأعمال الواسعة. كانت قصيرة النظر ونافلة. قد تساعده ذات يوم.

كان مانسفيلدت حياً وكان برادي فير شيخاً هرماً عندما مضى هنري مورغان يبحر مع گريبو الأسود في الكانيميده.

الهوامش

(١) Darien

(٢) Huguenots = البروتستانت الفرنسيون

(٣) Lutherans = البروتستانت ، اتباع لوثر .

(٤) Church of England = (مركز) البروتستانتية الإنكليزية .

(٥) Yucatan .

(٦) شجعان .

(٧) باللاتينية في الأصل .

(٨) سلك أو نحوه يشدّ على العنق فيخنق به المعاقب .

-١-

كان ثمة انفعال وفضول في پورت رويال حين كان مورغان يعد الگانيميده للبحر. كانت ذخائر غريبة وأسلحة غير مألوفة تمضي إلى عنبرها. وتطوع الكثير من البحارة، مجذوبين بثقة هذا الشاب الهادئ، للانضمام إلى طاقمه. وجد القبطان خمسة مدفعيين ذوي سمعة في الميناء فتعاقد معهم على الذهاب معه. وعندما أنزلت الگانيميده أشرعتها وانزلقت من المرفأ، وقف حشد من العاطلين على الشاطئ يراقبونها تذهب.

أبحروا إلى ساحل دارين باحثين عن أسلاب، ولكن البحر بدا مكنوساً حتى النظافة من المراكب الأسبانية. وذات صباح، قرب ميناء كارتا جينا، لمحوا البدن الأحمر الطويل لسفينة تجارية. خبأ الكابتن مورغان رجاله. لم يسمح لفرد واحد أن يظهر نفسه. حتى مسؤول العجلة عمل في مرأب صغير، بينما كانت عجلة اصطناعية تتلوى بلا هدف على السطح. ثم هبطوا إلى أسفل المركب الأسباني، فارتبك الطاقم الأسباني. هاقد جاء مركب ولا يشتغل عليه رجل. كانت تلك ضربة السحر، أو إحدى مآسي البحر تلك التي لا اسم لها، التي كان البحارة يتحدثون عنها. ربما قتل طاعون كل طاقمها، فبإمكانهم أن يأخذوا هذه

السفينة ويبيعوها. ولكن عندما اقتربوا، أطلقت ثلاثةُ مدافع مقنّعة اللهبَ؛ راحت ترمي على نقطة واحدة فقط، وعندما انتهت، صارت دفة السفينة الأسبانية تتدلى في شظايا وراحت هي تتخبط هنا وهناك دون سيطرة. ثم صب الكابتن مورغان، المتعلق بمؤخر السفينة، خارج مدى مدافعها الجانبية، القذائف فيها حتى رفرف العلم هابطاً. كانت أول سفينة مكتسبة بتخطيطه.

بعد بضعة أيام أوقف، فجأة، سفينة أخرى وركض على امتدادها ليدنو منها ويهاجمها. كان الطاقم الأسباني محشّداً على الجانب الذي فوق سطحها العلوي ليصد الهجوم. وفجأة امتلأ الهواء بقدور مسحوق الطين التي كانت تحط وسط المجموعة الكثيفة وتنفجر. تراكض الأسبان صارخين إلى مأمن العنبر هروباً من هذا الموت المتفجر.

عندما جاء هنري مورغان إلى تورتوگا أخيراً، كانت أربع سفن تسير في أعقابه، ولم يكن قد خسر رجلاً. كان الأمر بالبساطة التي تصور أنه سيكون عليها. ها هي أربعة نُصُب لتخطيطه. كل ما هنالك أن على المرء أن يقوم بغير المتوقع بسرعة. كان هذا هو سرّ الحرب الناجحة.

كان مانسفيلدت في تورتوگا عندما جاء هنري مورغان، وتألقت عيناه الصغيرتان فيما كان ينظر إلى هذا السلب. وسرعان ما استدعى هذا القائد الجديد.

- «أنت الكابتن مورغان الذي استوليت على السفن الأربع التي في الميناء؟»

- «نعم، يا سيدي، أنا»

- «وكيف قمت بهذا الأمر؟ إن السفن الأسبانية قوية التسليح ومتيقظة».

- «قمت به، يا سيدي، بتخطيطي. لقد تأملت ليالي عديدة كيف أقوم بهذه الأمور. إنني أعمل بالمفاجأة، يا سيدي، عندما لا يستخدم بقية الرجال إلا القسوة».

تأمله مانسڤيلدت بإعجاب. وقال:

- «إنني أعد حملة لأستولي على جزيرة سانت كاترين. ثم سأشكل جمهورية من القراصنة الذين سيحاربون بوطنية. هل تود أن تكون نائب أميرال هذه الحملة؟ إن عندي بعض السمعة في انتخاب الرجال».

كان اسم مانسڤيلدت عظيماً في البحار، فاهتاج هنري لذة. وقال مسرعاً:

- «أنني أحب ذلك، يا سيدي».

أبحر الأسطول، وكان الكابتن مورغان نائب الأميرال. كان ثمة انقضاض بديع؛ ألقت السفن حشودها الرثة ومشى الذبح على الجدران. لم تستطع الجزيرة أن تقاوم ضراوة الهجوم، وأخيراً سقطت القلعة. ثم نصب الأميرال الهولندي حكومته وترك هنري في القيادة بينما خرج هو ليحرّز العالم بحثاً عن مجندين. وفُقد هو وسفينته ولم يسمع عنهما بعدئذ قط. وقد قيل إن الأسبان خنقوه في كوبا.

كان الكابتن مورغان الآن القائد الأعلى لمجال أسبانيا الرئيس. كانت السفن تفر من المساند لتنضم إلى أساطيله، لتبحر تحت قيادته وتحارب معه وتشارك في نجاحه. صعد ضد پويرتو بيلو ونهبها ما أن

استولى عليها. أحرقت البيوت وسُلب كل المواطنين العاجزين. وعندما أبحرت سفن الكابتن مورغان راحلة كانت الغابة تزحف أصلاً إلى الخرائب.

طوال عشر سنوات ظل يبحر حول المحيط، بين الجزر وعلى طول السواحل الخضر لأميركا الاستوائية، وكان اسمه أعظم اسم بين أسماء جميع من خرجوا للنهب. جاء قراصنة العالم مندفعين إلى شهرته أفواجاً. حياه الناس في تورتوگا وغوفس. تطوع عدد لا يحصى من الرجال لكل حملة. وكانت كل الأخوية تنتظر الآن أن يفتح الكابتن مورغان برميل شراب كحولي في الشوارع أو أن يستعرض وحشيته في المدينة. لكنه لم يفعل قط. راح يتمشى في الأنحاء ببرود، مرتدياً سترة أرجوانية وجوارب حريرية رمادية وحذاءين رماديين لهما عقد. إلى جانبه كان يتدلى مِغْوَل لا يزيد سمكه على سمك قلم رصاص، في قراب من الحرير الرمادي.

في البدء كافح البحارة ليقيموا رفقة معه، ولكنه وخزهم طارداً إياهم بإهانات عدائية. كانت الدروس من العبيد تواصل معيشتها فيه. لم يحاول أن يشتري شعبيته، وكل الأخوية الحرة صبتها عليه - ألقوا بحيواتهم وثرواتهم على ركبتي نجاحه.

- ٣ -

عـشر سنوات من القتـال والنهب والحرق، وكـان في الثـلاثين. وبدا شعـره، الذي صـار رمـادياً، ملفـوفـاً بالتـصـاق أشد بـرأسـه. كـان هنري مـورغـان ناجحاً، القرصـان الأكثر حظاً ممن عـرف التـاريخ، وأعطاه رجـال مـهنتـه ذلك الإعـجاب الذي كـان يتـمزق في طلبه. وكـان أعداؤه - وكـان كل رجل أسـبـاني عنده مـال عـدواً له - يـرتجفـون عند ذكـر اسـمـه. لقـد وضعوه في مخاوفه إلى جانب دريك[1] ولاونَيْ.

كان قد خرج مع گريبو على الگانيميده، مطمئناً إلى أنه عندما تزأر المدافع لتصب في بدن سفينة أسبانية، عندما يقف جاهزاً للمعركة على سطح أسـبـاني وحوله الصـراخ وقعـقعـة السـلاح الحديدية، ستـأتي تلك السـعادة الملتـهبة التي كـان فؤاده يتـمناها. هذه الأشيـاء جرّبها، فلم يجد حتى رضـاء. نما الجوع غير المسمّى فيه وطوى مخالبه على فؤاده. كان قد تصـوّر أن مداهنة الأخوية قد تلطف جرح رغبتـه، وعندمـا رأى القراصنة نتـائج تخطيطه وأعجبوا بهـا، كـان يبتـهج ويـشعـر بالغرور. وحدث هذا الشيء. تودد الرجال باعـتـدال إليـه، فـوجد أنه يـبغـضـهم لذلك ويعـدّهم حمقى لأنهم يؤخذون بمثل هذه الأمور اليسيرة.

كان هنري وحيداً في مجده. كان ميرلين العجوز قد قال الحقيقة منذ

زمن بعيد، لأن الكابتن مورغان قد بلغ نجاحه، وكان وحيداً في نجاحه، لا صديق له في أي مكان. لابد أن توق فؤاده يستقر جاثماً في داخله. لابد لكل مخاوفه وأوهامه، إخفاقاته ونقاط ضعفه الصغيرة، أن تُخفى. وهؤلاء، أتباعه، قد تجمعوا على نداء نجاحه؛ وسيتركونه عند أول علامة صغيرة على الضعف.

بينما كان مشغولاً في الفوز بغنيمة، جاءت شائعة صغيرة منسلة عبر المضيق، عامت بين الجزر وتلصصت فوق السفن. التقط الرجال الاسم المهموس وأصغوا بحذر.

- «ثمة امرأة في پنما وهي فاتنة كما الشمس. يسمونها قديسة پنما الحمراء. كل الرجال يركعون لها». هكذا كان الهمس يقول. ونما الصوت وكبر حتى صار الرجال في الخمارات يشربون نخب لاسانتا رويا[٢]. تهامس رجال البحر الفتيان عنها في نوبة الساعتين[٣]. «ثمة امرأة في كأس الذهب وكل الرجال يتساقطون أمامها كما يركع الوثني أمام الشمس». كانوا يتحدثون بنعومة عنها في شوارع غوفس. لم يكن أحد قد رآها؛ وما كان بمقدور أحد أن يحدد ظل وجنتيها أو لون شعرها. ومع ذلك، فخلال بضع سنوات، كان كل رجل في المستعمرات الوحشية الفسيحة قد شرب نخب القديسة الحمراء، قد حلم بها، وقد صلى كثيرون للسانتا رويا. صارت لكل رجل ضالة فؤاده، حاملة صورة فتاة حسناء متروكة على شاطئ أوربي كي تلونها السنون. وصارت پنما لكل رجل عش رغبته. كان ذلك شيئاً غريباً. خلال مدة قصيرة، صار أي حديث بين رجال مجتمعين لا يمكن أن ينتهي دون ذكر للسانتا رويا. لقد صارت هذياناً غريباً في أذهان القراصنة الأفظاظ، عذراء جديدة لعبادتهم. وقال

عديدون إنها مريم جاءت لتعيش على الأرض، فأضافوا اسمها إلى صلواتهم.

والآن، عندما استولى الكابتن مورغان على پويرتو بيلو، امتلأ حاكم پنما إعجاباً ودهشة من أن عصبة رثة على هذا النحو من الرجال سيئي القيادة، وعديمي البزات، يمكنها أن تستولي على مدينة كهذه. بعث رسولاً يطلب نموذجاً صغيراً من الأسلحة التي جعلت هذا الأمر ممكناً. أخذ الكابتن مورغان العدّاء إلى غرفة صغيرة نجت من الحريق العام. وسأله:

- «أرأيت المرأة التي يسمونها القديسة الحمراء في پنما؟»

- «لم أرها، كلا؛ ولكنني سمعت عنها. إن الشبان لايضعون قبلها إلا العذراء المباركة في عبادتهم. يقال إنها فاتنة كالشمس».

- «ما اسمها إضافة إلى السانتا رويا؟»

- «لا أدري. كل ما سمعته أنها فاتنة كالشمس. يذكرون في پنما أن الشمس جاءت من قرطبة وكانت في باريس. يقال إن عائلتها نبيلة. يذكرون كيف تركب جياداً ضخمة، تجلس منفرجة الساقين، في مرج محروس بوشيع كثيف. يقال إن المِغْول يكون في يدها شيئاً حياً، وإن بمقدورها أن تبارز بمهارة أكبر من مهارة أي رجل. هذه الأمور تفعلها في السر كي لا يرى أحد الحماقة المرتكبة بحق احتشامها». فقال الكابتن مورغان:

- «آه، حسناً، لو أنها جميلة بما يكفي فما حاجتها إلى الاحتشام. إن هذه الحشمة هي مجرد نوع من لصوق جمال تلبس عندما يوجد زوار - علامة فتنة. إنني أحب أن أراها تركب. أو لا تعرف أي شيء آخر عنها؟»

- «ما يقولونه في الخمارات فقط، يا سيدي - إنها سرقت الصلوات من القديسين المباركين».

حلم الكابتن مورغان طويلاً في كرسيه بينما بقي العدّاء ينتظر صامتاً. وأخيراً هز هنري رأسه، كما لو ليتخلّص من الأفكار التي تتخمه. سحب مسدساً من حزامه وأعطاه للمراسل.

- «خذ هذا للدون خوان بيريز دي گوزمان، وقل إن هذا نموذج من الأسلحة التي استخدمناها في تعفير پويرتو بيلو بالتراب. ولكن أسلحتي الأخرى هي القلوب الشديدة لأتباعي. لن أرسل له واحداً منها، ولكن سأجلب له عدداً كبيراً منها. وأخبره أن يحتفظ بالمسدس سنة، حين سأجيء بنفسي إلى پنما لأتسلمه من يديه بالذات. هل تفهم؟»

- «أفهم، يا سيدي».

وخلال أيام قلائل عاد العداء ثانية، جالباً المسدس معه، وزمردة مربعة كبيرة مركبة على خاتم.

- «يرجو سيدي أن تقبل هذا الحجر عنواناً على احترامه. إنه يرجوك ألا تتجشم عناء المجيء إلى پنما، لأنه عندئذ سوف يتسلط عليه واجبه ويضطره لشنقك على شجرة». فقال الكابتن:

- «إنها رسالة جيدة. رسالة شجاعة جيدة. إنني أود لقاء دون خوان حتى ولو عند رؤوس السيوف. مضى زمن طويل على تحدي أحدهم لي. وهل عرفت المزيد عن السانتا رويا؟»

- «فقط ما يذكرون في الشوارع، يا سيدي. لقد تحريت عن كثب لأجلك. قيل لي في الشوارع إنها تلبس قناعاً سميكاً كي لا يرى أحد وجهها. يعتقد البعض أنها تفعل هذا كي لا يقتل البائسون الذين

يقابلونها أنفسهم حباً. ذلك كل ما أستطعت أن أعرف. هل عندك رسائل أخرى، يا سيدي؟»

- «كرر فقط أنني سأذهب إلى كأس الذهب خلال هذه السنة».

الهوامش

(١) Francis Drake (١٥٤٠ ؟ - ١٥٩٦م) قرصان منحته اليزابث الأولى لقب سير على جرائمه! .

(٢) القديسة الحمراء ، بالأسبانية .

(٣) نوبة حراسة على السفن من ٤ - ٦ أو من ٦ - ٨ بعد الظهر .

- ٣ -

طوال حياته كلها كانت إرادته مثل دوّارة[1] حديدية، تشير بثبات دائماً، ولكن ليس إلى الاتجاه ذاته قط. إن جزر الهند والبحر والسلب والمجد جميعاً بدت وكأنها ثبطته. كان قد لامس كل الأشياء وراقبها تشحب وتذبل تحت لمسته. وكان وحيداً. كان رجاله يتأملونه باحترام ورهبة كئيبة. كانوا يخشونه، ولم تغذِ هذه الحالة خيلاءه كما فعلت ذات مرة.

تساءل إن كان لن يبني صداقة مع أتباعه، ولكن الوقت الذي أقامه وحيداً في قلعة نفسه كان من الطول بحيث ملأته الفكرة بارتباك صبياني، غريب. مَنْ، من بين أتباعه، يمكن أن يصير صديقه؟ لقد كان يفكر فيهم، وهو يتذكر تقطيباتهم النكرة، إشراقاتهم، عيونهم الجشعة عند تقسيم الأسلاب. لم يحسّ نحوهم شيئاً غير الاحتقار.

ولكن كان ثمة واحد سبق أن لاحظه، فرنسي شاب كان يدعى (كوير دي گرِي). لقد رآه الكابتن مورغان في العمل، يتقافز حول العرشة مثل حيوان مطواع فيما كان مِغْوله ينقر في ألسنة رشيقة من النار الفضية. كان يزدري القطلس[2] مقابل النصل الرفيع الطويل. وكان هذا الشاب يرد على أسئلته بابتسامة نحو الكابتن مورغان. كان في عينيه احترام،

بالتأكيد، ولكن لم يكن ثمة خوف، ولا غيرة، ولا شك.

تأمل هنري مورغان:

- «أتساءل إن كان كوير دي گري هذا يمكن أن يصير صديقي. يقال إنه خلّف قطاراً من الأفئدة المحطمة من كوبا إلى جزيرة سانت كيت. وإنني لأخشاه نوعاً ما، من أجل هذا، قليلاً».

أرسل الكابتن مورغان في طلب الشاب، وعندما جاء وجد صعوبةً في الحديث إليه.

- «و... كيف حالك، يا كوير دي گري؟»

كان الشاب يربكه أي عرض دفء من جانب القبطان.

- «عجباً، يا سيدي، إنني جيد جداً. ألديك أوامر لي؟»

- «أوامر؟ لا، إنني - إنني فكرت أني أريد الحديث معك، هذا كل ما هنالك».

- «أن تتكلم معي، يا سيدي؟ ولكن تتكلم عن ماذا؟»

- «حسناً - كيف هي الغراميات الصغيرة الكثيرة التي تشتهر بأنها كانت لك»، سأل الكابتن في جهد مرتبك لكي يبدو مستبشراً.

- «الشهرة أرحم بي من الطبيعة، يا سيدي».

فاندفع هنري مورغان إلى هدفه.

- «اصغ إلي، يا كوير دي گري! ألا تستطيع أن تتصور بأنني ربما أحتاج إلى صديق؟ ألا تستطيع أن تفكر بي بوصفي إنساناً وحيداً؟ تأمل كيف يخشاني كل أتباعي. إنهم يأتون بانتظار الأوامر، ولكنهم لا يأتون قط لتمضية وقت هادئ من النهار. أدري أنني أنا الذي جعلت الأمر هكذا. كان ذلك ضرورياً ذات يوم، لأنني كان يتعين أن أنشئ

الاحترام قبل أن أتمكن من فرض الطاعة. ولكن الآن ثمة أوقات أود فيها أن أحدث بأفكاري وأتكلم عن أشياء إلى جانب الحرب والغنائم. لقد نهبت البحار طوال عشر سنوات مثل ذئب صامت، وليس لي من صديق في أي مكان.

«لقد اخترتك كي تكون صديقي؛ أولاً لأنني أحبك، وثانياً لأنك ليس عندك شيء في الدنيا قد تفكر بأنني أريد أن أسرقه. وهكذا يمكن أن تحبني دون خوفٍ. إنه لأمرٌ غريبٌ كيف يشكّ بي رجالي. لقد قدمت تقريراً دقيقاً عن كل رحلة، ومع ذلك، فإذا ما تحدثت إليهم كأصدقاء، فإنه سيخفقون أدمغتهم ليكتشفوا مؤامرتي. فهل تصير صديقي، يا كوير دي گري؟»

- «عجباً، بالتأكيد أصير ياقبطاني، ولو أنني علمت أن في ذهنك أمراً كهذا لكنت صرت منذ زمن طويل. كيف يمكنني أن أخدمك يا سيدي؟»

- أوه، فقط عن طريق التحدث معي بين أوان وآخر، وبالثقة بي قليلاً. ليس لي من دافع غير وحدتي. ولكنك تتكلم وتتصرف مثل سيد محترم، يا كوير دي گري. هل لي أن أسأل عن عائلتك؟ أم أنك تجرجر هذا الاسم حولك مثل رداء، كما يفعل كثيرون هنا في المستعمرات؟»

- «سهل جداً أن أخبرك عن عائلتي. يقال إن أبي كان بْرادي فَر العظيم، أما من كان هذا، فلا أحد يعرف. الناس أعطوني اسمي، وهم يتذكرون ذلك. وأمي إحدى حرائر غوفس. كانت في السادسة عشرة عندما ولدت. وكانت عائلتها من العوائل القديمة جداً، ولكن هوغونيّة في الديانة. دمرت ممتلكاتها في مذابح سانت بارثو لوميو[٣]. وهكذا

حصل أنها صارت بلا مال عندما ولدت أمي. وقد التقطها الحرس في شوارع باريس ذات يوم وأرسلت إلى غوفس مع حمولة سفينة من البغايا المتشردات. وسرعان ما وجدها برادي فر بعد ذلك».

- «ولكنك تقول إنها امرأة حرة»، قال هنري مورغان، مروّعاً بلا أخلاقية افتقار هذا الشاب إلى الخجل. «لابد أنها قد تخلت عن هذا - عن هذه الممارسة، الآن وقد نجحتَ في البحر. إنك تأخذ إلى البيت ما يكفيكما معاً، وأكثر».

- «أدري أنني أفعل، ولكنها تستمر. وأنا لا أذكر الأمر، إذ لماذا أتدخل فيما تعدّه عملاً جدياً. إنها فخورٌ بوضعها، فخور بأن زوارها أفضل الناس في الميناء. وإنه ليسرّها أن تكون، رغم اقترابها من الأربعين، أكثر منافسة للخارجات حديثاً من البيضة القادمات في أي موسم كان، الفتيات اللاتي يأتين كل عام. لماذا يتعيّن أن أغير المجرى اللطيف لسلوكها، حتى إذا استطعت؟ كلا، إنها امرأة محبوبة، عزيزة، وقد كانت أماً جيدة لي. إن خطأها الوحيد هو كونها ملأى بأكثر من الكثير من الوساوس. إنها تنقّ علي عندما أكون في البيت، وتبكي كثيراً عندما أرحل. إنها تحسّ خوفاً مروّعاً من أنني قد أجد امرأةً ربما تؤذيني».

- «هذا غريب، أليس كذلك؟ - إذا ما تأملنا حياتها؟»، قال هنري مورغان.

- «لماذا هو غريب؟ أيجب أن يكون عندهن عقل مختلف في تلك الحرفة العتيقة؟ كلا، يا سيدي؛ أؤكد لك أن حياتها لا تشوبها شائبة - الصلاة في ثلاثة أوقات يومياً، وما من بيت أروع من بيتها في كل

غروفس. عجباً، يا سيدي، عندما ذهبت إلى هناك آخر مرة، أخذت معي لفاعاً صار من نصيبي في القسمة، شيء باهر من القماش الرقيق والذهب. ما كانت لتقبله. قالت إنه كان يعود إلى عنق امرأة وضعت إيمانها في كنيسة رومية، ولن يكون صالحاً لواحدة هوغونيّة[٤] أن تلبسه. آه! إنها تقلق كثيراً عليّ عندما انطلق إلى البحر. إنها تخاف بشكل رهيب من أن أصاب بأذى، ولكنها تخاف أكثر من تدنيس روحي. هذه كل معرفتي عن عائلتي، يا سيدي».

كان الكابتن مورغان قد تقدم إلى خزانة وأخرج بعض الأباريق الصغيرة الغريبة مع نبيذ بيرو. كان ثمة عنقان لكل إبريق، وعندما كان النبيذ يراق في إحداها، كان صوت صافر عذب يخرج من الأخرى. قال:

- «أخذت هذه من سفينة أسبانية. أتشرب معي، يا كوير دي گري؟»

- «سيشرفني كثيراً جداً، يا سيدي».

جلسا وقتاً طويلاً يرشفان النبيذ، ثم أخذ الكابتن مورغان يتكلم حالماً.

- «أتصور، يا كوير دي گري، أنك ستصاب يوماً بالقديسة الحمراء، وستكون أمامنا نحلات ينما تئز فوقنا. لاشك عندي في أنها محروسة بغيرة كما كانت هيلين[٥]. لقد سمعت بالقديسة الحمراء، ألم تسمع؟».

كانت عينا الشاب متوهجتين من النبيذ. فقال:

- «سمعت بها! يا سيدي، لقد حلمت بها وناديتها في نومي. من الذي لم يفعل؟ من الذي لم يسمع بها في كل هذا الربع من العالم، ومع

ذلك من ذا الذي يعرف شيئاً واحداً عنها؟ إنه لأمر غريب، سحر اسم هذه المرأة. السانتا رويا! السانتا رويا! إنه يؤجج الرغبة في قلب كل رجل - لا رغبة ممكنة فعالة، ولكنها رغبة من نوع «لو كنت وسيماً، لو كنت أميراً». يرسم الشبان خططاً وحشيةً، بعضهم لأن يذهبوا متنكرين إلى پنما، والآخرون لتفجيرها بكميات من البارود. إنهم يحلمون أحلام يقظة في حمل القديسة الحمراء معهم. يا سيدي، لقد سمعت بحاراً أنتنه المرض تماماً يهمس لنفسه في الليل [لو لم يكن عندي هذا الشيء، سأذهب مغامراً من أجل السانتا رويا].

«تغتاظ أمي وتثور هناك في غروفس، كي لا أجن وأجري وراءها. إنها مرتعبة بهذه المرأة الغريبة. تقول [لاتقترب منها، يا بني. إن هذه المرأة شريرة، إنها شيطان، وإضافة إلى ذلك، فإنها بلا شك كاثوليكية]. وما من أحد رآها، فيما نعرف. إننا لا ندري على وجه اليقين أن امرأة كالقديسة الحمراء موجودة في كأس الذهب. آه! لقد ملأت البحر بالأحلام - بأحلام الشوق. لقد كنت أفكر، يا سيدي، بأن كأس الذهب ربما يصير مصيرها، في وقت ما، مثل مدينة طروادة بسببها».

كان هنري مورغان قد أترع الكؤوس ثانية وثالثة. كان قد ارتخى إلى أمام في مقعده، وكانت على فمه ابتسامة ملتوية صغيرة. وقال بثقل نوعاً ما:

- «نعم، إنها خطر على سلام الأمم وعلى سلام عقول الرجال. إن الأمر مضحك تماماً، بالطبع. ربما كانت قحبة سليطة تأخذ ملامحها البراقة من الأسطورة. ولكن كيف تنشأ مثل هذه الأسطورة؟ في صحتك، يا كوير دي گري. ستكون لي صديقاً جيداً وصادقاً؟»

- «سأصير، يا قبطاني».

ومرة أخرى جلسا صامتين، يشربان النبيذ المترف.

وبدأ هنري مورغان، كما لو كان قد فرغ لتوه من الكلام:

- «ولكن ثمة معاناة كثيرة مقترنة بالنساء. يبدو أنهن يحملن معهن ألماً في رزمة ناضجة. يقولون إنك عشقت كثيراً، يا كوير دي گري. ألم تحسّ بالألم الذي يحملن؟»

- «كلا يا سيدي، لا أظنني أحسست. لقد هاجمني الندم والأحزان الصغيرة - الكل هجمت؛ ولكنني في الأكثر لم أجد غير المتعة بين النساء». فقال القبطان:

- «آه، إنك لمحظوظ. إنك مملوء بالحظ إذ لم تعرف الألم. لقد تسممت حياتي أنا بالحب. هذه الحياة التي أحياها فرضها عليّ حب ضائع».

- «عجباً، وكيف كان ذلك، يا سيدي؟ أنا بالتأكيد لم يسبق أن تصورت - ».

- «أعرف؛ أعرف كيف تغيرتُ بحيث تضحك حتى أنت قليلاً من فكرة وقوعي في الحب. لا يمكنني أن أحوز الآن حبَ ابنة إيرل»[٦].

- «ابنة إيرل، يا سيدي؟»

- «نعم، ابنة إيرل. كنا نحب أحدنا الآخر بشكل كامل جداً - عاطفي جداً. جاءتني مرة في حديقة زهور واندفعت بين ذراعي حتى انزاح الظلام. فكرت في أن أهرب معها إلى بلاد لطيفة، جديدة، ما، وأُغرق لقبها في البحر وراءنا. ربما كنت بقيت أحيا حتى الآن في أمان في پنسلفانيا، والمسرات الصغيرة تزحم مسند قدمي».

- «مؤسف حقاً، يا سيدي». كان كوير دي گري مخلصاً في أسفه لهذا الرجل.

- «آه، حسناً؛ كان أبوها على علم. في ليلة ظلماء ثُبِّت ذراعاي إلى جانبي، وفُصلت هي - أوه، إليزابث العزيزة! - بالقوة عني. وضعوني، وكنت لا أزال مقيداً، في سفينة، وباعوني في الباربادوس. ألا تستطيع أن ترى، يا كوير دي گري، المرارة التي تستقر باضطراب في قلبي؟ خلال هذه السنوات، طاردني وجهها في كل تجوالي. إنني أحسّ أنه كان بمقدوري أن أقوم بحركة تالية ما - ولكن أباها كان سيداً قوياً».

- «أولم تعد إليها قط، بعد أن انتهى حبسك؟»

نظر هنري مورغان إلى الأرض.

- «لا، يا صديقي - لم أفعل قط».

الهوامش

(١) دليل اتجاه الريح.

(٢) سيف البحارة: وهو قصير ثقيل مقوس.

(٣) St. Bartholomew Massacre: مذبحة دبرها الكاثوليك وذهب ضحيتها عدد كبير من الهوغونت في باريس وأورليان وغيرهما من المدن الفرنسية، في يوم عيد القديس بارثو لوميو (٢٣ - ٢٤ آب/اغسطس)، سنة ١٥٧٢.

(٤) (= بروتستانتية)

(٥) بطلة طروادة.

(٦) Earl: لقب إنكليزي أدنى من مركيز وارفع من فيكونت.

-٤-

كبرت أسطورة القديسة الحمراء في ذهنه مثل كرمة قوية، وجاء صوت من الغرب ليلطف السخرية، ليسخر من هنري مورغان ويحتال عليه. نسي البحر وسفنه الجوّابة. كان القراصنة معدمين من عدم عملهم الطويل. كانوا يتمددون هنا وهناك على العرشات ويلعنون قبطانهم لكونه أحمق حالماً. لقد كافح بجنون ضد الشباك المطوية لحلمه وتنازع بصوت عال.

- «عسى الله يلعن السانتا رويا على بذرها الجنون في العالم. لقد جعلت السفاحين ينبحون على القمر كما الكلاب الملتاعة حباً. إنها تجعلني مجنوناً بهذه الرغبة اللامجدية. عليّ أن أفعل شيئاً - أي شيء - لقمع التسلط المثابر لهذه المرأة التي لم أرها. يجب أن أدمر الأشباح. آه، إنه لأمر أحمق أن أفكر في الاستيلاء على كأس الذهب. إنه يشبه أن تكون رغبتي هي الموت».

وتذكر الجوع الذي سحبه من كامبريا، لأنه قد تكرر وقوي الآن. كانت أفكاره تطرد النوم بعيداً. وعندما كان النعاس يزحف في أعقاب الإرهاق، كانت السانتا رويا تدخل، هي الأخرى.

- «سآخذ ماراكيبو»[1]، صرخ في يأس. «سأغرق هذه الشهوة في

وعاء من رعب. سأنهب مارا كيبو، أمزقها إلى نتف، وأتركها تنزف في الرمال».

(ثمة امرأة في كأس الذهب، وهم يعبدونها بسبب جمالاتها غير المسماة).

- «أجعل التجمع في جزيرة دي لا ڤاكا! ادع القلوب الصادقة من زوايا البحر! إننا ذاهبون إلى الثراء!»

طارت سفنه إلى خليج ماراكيبو وكانت المدينة مسعورة في الدفاع.

- «ادخل راكضاً هذه الميناء القنينة! نعم، تحت المدافع!»

صرخت قنابل المدافع عبر الهواء وفجرت غيماً من الغبار من الجدران، ولكن الدفاع تماسك.

- «لن تسقط؟ إذن خذوها في الهجوم!»

تطايرت قدور البارود فوق الجدران، ممزقة ومشوهة المدافعين في انفجارها. صرخوا:

- «من هم أولاد الذئاب؟ آه، أيها الأخوان! ينبغي أن نحارب حتى نموت! يجب ألاّ نطلب الرأفة، أيها الأخوان. لو سقطنا، فإن مدينتنا العزيزة -»

ارتفعت السلالم على جدران القلعة، واندفعت موجة من الرجال الهادرين فوق الجدران.

- «آه، يا سان لورنزو! خبئنا! احملنا بعيداً! ليس هؤلاء رجالاً، وإنما شياطين. اسمعني! اسمعني! أيها الحي! آه، يا مسيح! أين أنت الآن؟»

- «هدّموا الحيطان! لا تدعوا حجرين يقفان معاً!»

(ثمة امرأة في كأس الذهب. إنها فاتنة كالشمس).

- «لا تفسحوا مجالاً! اقتلوا الجرذان الأسبانية. اقتلوهم جميعاً!»

وتمددت ماراكيبو متوسلةً تحت قدميه. خلعت الأبواب عن البيوت. وانتزع من الغرف كل شيء متحرك. اقتادوا النساء إلى الكنيسة وأقفلوا عليهن. ثم جلب الأسرى إلى هنري مورغان.

- «يوجد شيخ كبير، يا سيدي. إننا واثقون أن عنده ثروة، ولكنه أخفاها ونحن لا نستطيع قط العثور على أي منها».

- «إذن ضعوا رجليه في النار! - عجيب، إنه أحمق صفيق! اكسروا ذراعيه! - لن يقول؟ ضعوا شريط السوط حول صدغيه! - أوه، اقتلوه! اقتلوه وأنهوا صياحه - فربما لم يكن عنده مال -).

(ثمة امرأة في بنما -).

- «هل صككت كل حبة ذهب؟ اعرض المدينة للفدية! ينبغي أن نحصل على الغنى بعد الألم».

جاء أسطول من السفن الأسبانية للإنقاذ.

- «عمارة أسطول أسبانية قادمة؟ سنحاربهم! كلا، كلا، سنهرب منهم لو استطعنا الابتعاد. إن سفننا تتلكأ في الماء بحملها من الذهب. اقتلوا الأسرى!»

(-إنها فاتنة كالشمس).

وأبحر الكابتن مورغان من ماراكيبو المحطمة. مائتان وخمسون ألف قطعة من ذات الثمانية كانت في سفنه. ولفائف من أشياء حريرية وصحون من فضة وأكياس من التوابل. كانت ثمة صور ذهبية للكاتدرائية، وثياب مكسوة بتطريز من لؤلؤ. وكانت المدينة أنقاضاً كنستها النيران.

- «إننا أغنى مما كنا نأمل. ستكون ثمة بهجة في تورتوگا عندما نجيء. كل رجل بطل! سيكون لدينا ثورة مجنونة في العمر».

(السانتا رويا في پنما).

- «آه، يا إلهي! إذا كان لابد لي، فلابد. ولكنني أخشى أن أذهب إلى موتي. إنه لأمر مفزع أن أحاول. لو كانت هذه رغبتي، فيجب أن أفعل، مع أنني سأموت». واستدعى إليه كوير دي گري الفتي.

- «لقد ميزت نفسك في هذا القتال، يا صديقي».

- «لقد فعلت ما كان لازماً، يا سيدي».

- «ولكنك قاتلت بشكل بديع. لقد رأيتك عندما كنت مشتبكاً. الآن جعلتك معاوني الميداني، التالي لي في القيادة. إنك شجاع، إنك عاقل حصيف، وأنت صديقي. يمكنني أن أثق بك، ومَن مِن بين رجالي سيحمل هذه الثقة لو كان جديراً به أن يفشل؟»

- «إنه شرف عظيم، يا سيدي. سأسدد لك، بالتأكيد، بإخلاصي. ستسر أمي كثيراً». فقال الكابتن مورغان:

- «نعم، إنك أحمق شاب، وتلك فضيلة في هذا الشغل مادام للمرء قائد. إن الرجال يجهدون الآن للعودة كي ينفقوا أموالهم. وإذا ما كان ممكناً فإنهم سيدفعون السفن كي يعجّلوا حركتها. ماذا ستفعل بمالك؟ يا كوير دي گري؟»

- «حسناً، سأرسل نصفه لأمي. وسأقسم الباقي إلى قسمين. سوف أدخر جزءاً وعلى الآخر أتوقع أن أشرب بضعة أيام، وربما أسبوعاً. حسن أن يسكر المرء بعد القتال».

- «لم يكن السكر متعة لي قط»، قال القبطان. «إنه يحزنني كثيراً. ولكن عندي مغامرة جديدة تدور في ذهني. يا كوير دي گري، ما

أغنى مدينة في العالم الغربي؟ أي مكان كان منيعاً من أدنى إشارة للأخوية؟ أين يمكننا جميعاً أن نكسب الملايين؟ »

- «ولكن، يا سيدي، إنك لا تفكر في - إنك لا تعدّ بالتأكيد أن من الممكن أن تستولي على - ».

- «سأستولي على پنما - حتى كأس الذهب».

- «كيف ستفعل هذا الأمر؟ إن المدينة محمية بشدة بالجدران والقوات، والطريق عبر المضيق غير قابل للعبور تقريباً لغير قطار حمير صغيرة. كيف ستفعل هذا الأمر؟ »

- «يجب أن أستولي على پنما. يجب أن آخذ كأس الذهب»، وانطبق فك القبطان بإحكام.

كان كوير دي گري يبتسم الآن بهدوء. فاستفسر الكابتن مورغان:

- «لماذا تكشر نحوي؟ ».

- «كنت أفكر في تعليق طارئ أطلقته قبل زمن قصير، من أن پنما يبدو أنها ستسير على طريق مدينة طروادة».

- «آه! هذه المرأة غير المسماة في ذهنك. اصرفها! قد لايكون ثمة امرأة كهذه هناك».

- «ولكننا، إذن، يا سيدي، أغنياء بما يكفي من هذه الغارة الأخيرة».

- «لن يكون أمراً شريراً أن نصير أغنى. إنني تعبان من السلب. سأرتاح مؤمَّناً».

تردد كوير دي گري برهة، فيما كانت عيناه مغطاتين بقناع رقيق.

- «أتصور، يا سيدي، أننا عندما نصل پنما، سيكون كل فرد على حنجرة صاحبه من أجل القديسة الحمراء».

- «أوه، لابد أن تثق بي في الحفاظ على النظام بين رجالي - النظام الصارم - ولو أنني شنقت نصفهم من أجل ذلك. قبل مدة أرسلت كلمة إلى ينما بأنني ذاهب إلى هناك، ولكنني فعلت ذلك وكأنه مزحة. وإنني أتساءل، الآن، ما إذا كانوا يحصنون أنفسهم. ربما ظنوه، هم أيضاً، مزحة. امض، الآن، يا كوير دي گري، ولا تكلم أحداً بهذا. إنني أجعلك سفيري. دع الرجال يلقون ذهبهم جانباً، شجع على القمار - هنا - الآن - على السفينة. أعطهم مثالاً في الخمارات - مثالاً مكلفاً. وعندئذٍ سيجدون دافعاً يسوقهم للخروج معي. ينبغي أن يكون لي جيش هذه المرة، يا صديقي، وحتى عندئذٍ فإننا قد نموت جميعاً. ربما كان هذا هو متعة الحياة الرئيسة - أن تغامر بها. قم بعملي جيداً، يا كوير دي گري، وربما ستكون ذات يوم أثرى مما يمكنك أن تتصور».

وقف كوير دي گري يتأمل إلى جانب الدقل.

- «إن قبطاننا، قبطاننا البارد، قد عضه انتشار الشائعة الضبابية، العظيم، هذا. كم غريب هو هذا المثال! إنه كما لو كانت القديسة الحمراء قد سرقت من بين ذراعيّ. إن حلمي قد انتهك. إنني أتساءل إن كان كل واحد من الرجال، عندما يعرفون، سيحمل هذا الشعور بخسارة مريرة - سيكره القبطان على سرقة هذه الرغبة».

الهوامش

(١) Maracaibo

-٥-

قاد السير إدوارد مورغان قوات ضد (سانت يوستاتيوس)[1]، ثم - فيما كانت المعركة محتدمة - تسلق هندي بني اللون ودفع سكيناً طويلة إلى معدته. زم نائب الحاكم شفتيه في خط صلب، مستقيم، وتداعى على الأرض. فكّر:

- «سيفسد بنطال إنقاذي الأبيض. لماذا كان على الشيطان أن يفعل ذلك، الآن وقد صرنا نمضي على نحو لطيف. لابد أنني سأحصل على شكر خاص من صاحب الجلالة، وها أنا لن أكون هنا لتلقيه. ياللسماء! لقد اختار موقعاً موجعاً!»، ثم اتضح له حجم المأساة. تمتم:

- «بسكين اعتيادية، وفي المعدة. كنت أفضل سيفاً على يد ندٍّ - ولكن سكين - في المعدة! لابد أنني أبدو زرياً حقيراً بكل هذا الدم والوسخ عليّ. ولا أستطيع أن أستقيم! ياللمسيح! لقد ضرب الخسيس التعس نقطة حساسة».

حمله رجاله بحزن إلى پورت رويال. وقال للحاكم:

- «كان أمراً لم يمكن تجنبه: تشبث بي صاعداً عليّ بسكين وطعنني في المعدة. إنه شيطان من الصغر بحيث أنه لم يستطع أن يطول أعلى من ذلك، كما أظن. ارفع تقريراً إلى السدة الملكية، هل لك أن تفعل، يا

سيدي؟ وأرجوك ألا تذكر السكين - أو المعدة. والآن، هل لك أن تتركني مع ابنتي؟ سأموت عن قريب».

وقفت إليزابث مطلة عليه في غرفة مظلمة.

- «هل أوذيت بشكل سيئ، يا أبي؟»

- «نعم، بشكل سيئ تماماً. سأموت حالياً».

- «هراء، يا بابا! إنك تمزح فقط لتثيرني»

- «يا اليزابيث أيبدو مثل هراء - وهل سمعتني قط أمزح؟ عندي بضعة أشياء أتحدث عنها، والوقت قصير جداً. ماذا ستفعلين؟ ثمة قليل من المال بقي. لقد كنا نعيش على مرتّبي منذ أن طرح الملك اقتراحه العام الأخير من أجل قرض».

- «ولكن عما تتكلم يا بابا!» لا يمكنك أن تموت وتتركني هنا وحيدةً وضائعةً في المستعمرات. لا تستطيع، لا تستطيع!»

- «سواء أكنت أستطيع أم لا، سأموت في الوقت الراهن. دعينا الآن نناقش هذا الأمر بينما نحن قادران. ربما كان ابن عمك، الذي أصاب هذه الشهرة من خلال السرقة، سيهتم بأمرك، يا إليزابث. إن هذه الفكرة تؤلمني، ولكن - لكن - من الضروري العيش - الضروري جداً. وبعد كل شيء، إنه ابن عمك».

- «لن أصدق ذلك. إنني، ببساطة، لا أصدق. لايمكنك أن تموت!»

- «يجب أن تبقي مع الحاكم حتى تستطيعي ملاقاة ابن عمك. أخبريه الوضع الدقيق للأمر؛ دون تزلف - ولكن لا تكوني مزدهية جداً. تذكري أنه ابن عمك اللح، مع أنه لص». ملأ تنفسه الثقيل الغرفة. كانت إليزابث قد بدأت تبكي برقة، مثل طفل لايستطيع أن يقول

بالضبط ما إذا كان متألماً أم لا. وأخيراً انتزعت الكلمات من بين شفتي السير إدوارد.

- «كنت قد سمعت بأن بمقدور المرء أن يميز السيد الراقي من الطريقة التي يموت بها - ولكنني أود لو أئن. كان روبرت سيئن لو أنه اشتهى ذلك. بالطبع، كان روبرت غريباً - ولكنه ها - كان أخي - كان سيزعق لو أنه قد أحس بمثل هذا. يا إليزابث، هل لك - من فضلك أن تغادري الغرفة. إنني آسف - ولكنني ينبغي أن أئن. لا تتكلمي عن ذلك - يا إليزابث - أتعدين - بألا تذكريها، أبداً، أبداً؟»

وعندما عادت ثانيةً، كان السير إدوارد ميتاً.

الهوامش

(١) St. Eustatius

-٦-

كان الربيع قد جاء إلى كامبريا، متدفقاً من جزر الهند وخارج قلب أفريقيا الجاف، الحار، وهذا هو الربيع الخامس عشر منذ أن رحل هنري. أحب روبرت العجوز أن يفكر، ثم استقر بشكل غريب على الاعتقاد، بأن ابنه أرسل الربيع إلى كامبريا من الأماكن الاستوائية. كان ثمة فراء أخضر يتسلق التلال، وكانت الأشجار تدشّن أوراقاً غضة، جديدة، في الريح.

كان وجه روبرت العجوز قد صار أكثر صرامةً. حول شفتيه كانت تقيم ابتسامةٌ أقل وتكشيرةٌ أكثر، كما لو أن ابتسامة مكروبة، قديمة، قد تجمدت هناك. آه! لقد كانت السنوات أشياء مقفرة، عقيمة، لم يتبقَ شيء بين أذرعتها له. كان يدرك، الآن، معنى كلمات غوينليانا – من أن العمر لا يجلب معه شيئاً غير انتظار قلق، بارد، توقع بارد لحالة قد لا يمكن تصورها بأي تأكد. ربما كان ينتظر الوقت الذي سيعود فيه هنري. ولكن ذلك لم يكن الأمر. لم يكن واثقاً من كونه يريد أن يرى هنري بعد. سيكون ذلك باعثاً على الاضطراب. عندما يكون المرء عجوزاً، فإنه يكره الأشياء المثيرة للاضطراب.

كان قد تساءل زمناً طويلاً: «ما الذي يفعله هنري الآن؟ ماذا يرى

الآن؟». ثم كان الولد قد اضمحل قليلاً، لقد صار يشبه الناس في الكتب القديمة - ليس حقيقياً تماماً، ومع ذلك هو حقيقي بما يكفي لكي يتمّ تذكّره. ولكن روبرت كان غالباً ما يفكر في هذا الشخص المجرد، ابنه، الذي كان يسمع عنه شائعات متفاوتة بين آنٍ وآخر.

بالاستيقاظ على الصباح الربيعي، كان روبرت قد قال:

- «سأتسلق صاعداً لأرى ميرلين اليوم. غريب كيف يحيا ذلك الشيخ تحت الضغط المتزايد لسنوات عمره. لابد أن ثمة أكثر من مئة منها الآن. إن بدنه خيط رفيع - لا شيء أكثر من إشارة إلى أنه كان جسداً ذات يوم. ولكن وليام يقول، لو أمكنك أن تلتقط أفكاراً من كلام وليام، بأن صوته ذهبي وبالقوة التي كان عليها، وأنه لايزال ينطق هراءً فظيعاً لايمكن تحمله في لندن. إنه لمدهش كيف جعل مرمم الطريق هذا كل حياته تلتف وتلتوي مثل قطيطة حوالي أربعة أيام في لندن. ولكنني ينبغي أن أذهب إلى ميرلين. ليس محتملاً أن أذهب مرة أخرى».

كان الممر الصخري الحاد شيئاً من العذاب له، وهو أكثر قسوةً بسبب تذكره لساقين قويتين رشيقتين، ورئتين لا تتعبان كما منافخ الحدادين. كان قد قاد ذات مرة كل الوافدين في سباق جبلي، ولكنه الآن يتسلق قليلاً، ثم يرتاح على صخرة، ويتسلق مرة أخرى - صاعداً على الفلع وفوق كتف الصخرة. كان الوقت ظهراً عندما وصل أخيراً إلى قمة كراغ.

قابله ميرلين عند الباب قبل أن يتاح له الوقت ليطرقه، ولم يكن ميرلين قد تغير أكثر مما فعلت القيثارات والأسنة المعلقة على جدرانه. كان يبدو وكأنه أهمل الوقت كما لو كان لباساً. جاء ميرلين إلى روبرت

بلا مفاجأة. كان الأمر كما لو أنه كان قد عرف بهذا الحج البطيء قبل وقوعه بألف عام.

- «مضى زمن طويل، يا روبرت، منذ أن تسلقت الممر إليّ، وطويل منذ أن نزلته أنا»، و «نزلته، نزلته» بقيت القيثارات تغني. كان يتكلم بلغة الأوتار، وقد استجابت مثل كورس بعيد في كتلة الجبال العالية.

- «ولكن من يتسلق صاعداً إليك الآن رجل عجوز، يا ميرلين. إن الممر الوعر عدو وحشي عند مصارعته. أنت لاتبدو كبرت. وإنني أتساءل متى ستموت. أفلا تناقش سنواتك الأمر معك أحياناً؟»

- «حسناً، إن قلنا الحقيقة، يا روبرت، لقد أخذت الأمر إلى عقلي بضع مرات - ولكن كان ثمة دائماً أمور كثيرة أفكر فيها. لم أستطع أن آخذ الوقت لأموت. ولو أنني فعلت، فإنني لن أستطيع أن أفكر بعد قط.

«لأنه هنا في الأعلى، يا روبرت، يصبح ذلك الأمل المختَلَس، الذي يسميه أهل الوادي إيماناً، شيئاً مشكوكاً. أوه، بلاشك إذا كان ثمة الكثير منه حولي، وهي جميعاً تترنم بالترتيلة بلا انتهاء، [ثمة إله رحيم، حكيم، بالتأكيد سنبقى نعيش بعد الموت]، عندئذ سأكون أتهيأ للحياة القادمة. ولكن هناك، وحيداً، في منتصف الطريق إلى السماء، أخشى أن يقاطع الموت تأملي. إن الجبال نوع من الكمادة لألم الإنسان المجرد. بينهم يضحك - أوه، أكثر مما يبكي»، فقال روبرت:

- «أتدري، قامت أمي، غوينليانا العجوز، بنبوءة غريبة، أخيرة، قبل أن تموت. قالت [الليلة ينتهي العالم، ولن تبقى أرض يمشي عليها الناس]».

- «يا روبرت، أظنها قالت الحق. أظن كلمات احتضارها كانت الحقيقة، مهما تكن نبوءاتها الأخرى. إن هذه الفكرة الناخرة تأتي زائرة أحياناً، وبسببها أخاف أن أموت - أخاف بشكل فظيع. لو أنني بحياتي أعطيك حياة، وجوداً طازجاً للحقول والأشجار والعالم الأخضر الطويل كله، فسيكون عملاً لايمكن وصفه مسحها جميعاً مثل رسم بالطباشير. يجب ألا أفعل - لفترة ما.

«ولكن لنكتف من هذه الأمور المنذرة. لاضحك فيها. لقد عشتَ طويلاً جداً، يا روبرت، في وادي الرجال هذا. تضحك شفتاك، ولكن لاتسلية في فؤادك. أعتقد أنك تضع شفتيك هكذا، مثل أماليد فوق شَرَك، لتخفي ألمك عن الله. وقد حاولت مرة أن تضحك بكل روحك، ولكنك لم تقم بتنازل الهجّاء - تنازل شراء امتياز الضحك كثيراً على الآخرين، بقليل من التسلية على ذاتك».

- «أعرف أنني مهزوم، يا ميرلين، ويبدو أنه لابد من ذلك. إن الانتصار، أو الحظ، أو ما تشاء أن تدعوه، يبدو وكأنه يوجد مخفياً في قلة مختارة كما تختفي أسنان الرضع تحت اللثات. في السنوات الأخيرة، لعب هذا الإله لعبة صعبة، دقيقة، معي. جاءت لحظات فكرت فيها أنه يغش». فتكلم ميرلين ببطء:

- «ذات مرة لعبت ضد إله فتي عزيز وله قدما عنز، وكانت تلك اللعبة السبب في مجيئي إلى هنا. ولكنني، لاحظ هذا، قمت بالتنازل الكبير ووقّعت بضحك حزين. يا روبرت، ألم أسمع بعد ذلك بزمن طويل أنك كنت تطوف في دماغك؟ بالتأكيد إن وليام قد توقف وأخبرني أنك صرت مجنوناً. أفلا تفعل أشياءً تستحق الشجب في حديقة زهورك؟»

ابتسم روبرت بمرارة، وقال:

- «كانت تلك واحدة من حيل هذا الإله. سأخبرك كيف كان الأمر. ذات يوم، عندما كنت أسحب الأوراق الميتة عن زهوري، تهيأ لي أن أصنع رمزاً. ليس هذا أمراً غير مألوف. كم يقف الناس على قمم التلال وأذرعهم ممدودة، كم يركعون في الصلوات ويصلّبون أنفسهم. سحبت برعمة ورميتها في الهواء، فتناثرت البتلات ورشتني. يبدو أن هذا العمل تجمع وروى قصة حياتي كاملة في إشارة واحدة. ثم أن لطافة البتلات البيضاء على الأرض السوداء استغرقتني، فنسيت الرمز. رميت أخرى، وأخرى، حتى أمطرت الأرض بجليد أوراق الأزهار. فجأة نظرت إلى أعلى ورأيت عشرة رجال يقفون في تلك الأنحاء يضحكون عليّ. كانوا قد مروا خارجين من الكنيسة. قالوا: [هَيْ! فقد روبرت عقله. هَيْ! إن إحساسه يهرب منه. هُوْ! صار طفلاً مرة أخرى، يرمي بتلات الأزهار». يبدو أن إلهاً مجنوناً هو من يستطيع أن يسمح بهذا الأمر».

كان ميرلين يهتز بطرب صامت.

- «أوه، يا روبرت! يا روبرت! لماذا ينبغي أن تلوم العالم عندما يحمي نفسه منك؟ أعتقد أن الله والعالم هما أمر واحد بالنسبة لك. لو كان ثمة عشرة أشخاص في الوادي تحت، يحبون منظر أوراق الزهور على الأرض، فإنك لن تكون غير شخص غريب، مثير للانتباه وجدير بالاستغراب. سيجلبون غرباء إلى بيتك أيام الآحاد ويعرضونك. ولكن، بما أنه لا يوجد أحد، فمن الطبيعي أنك راديكالي يجب أن تحبس وتشنق. إن حكم الجنون هو حقاً شنق عقل المرء. لو أنه جرى التهامس عنه بأن دماغه يسيح، فلا يوجد شيء يمكنه أن يقوله مما يعني أحداً بعد، إلا إذا كان شيئاً يُضحك عليه.

«أفلا يمكنك أن ترى، يا روبرت؟ لقد أوذي الناس كثيراً وجرى اصطيادهم وتعذيبهم من جانب أفكار وبدع لم يفهموها، بحيث صاروا يعتقدون أن كل الأشياء التي تمر بإدراكهم آثمة وشريرة - أشياء ينبغي أن يسحقها ويدمرها أول قادم. إنهم فقط يحمون أنفسهم، هكذا، ضد الإيذاءات الشبحية التي يمكن أن تصيبهم من أشياء صغيرة كُبّرت».

فقال روبرت:

- «أدري. أعرف ذلك كله، وأنا لا أصرخ. إن شكواي الكبرى هي أن الملكية الوحيدة التي أحملها هي حقيبة خسائر. أنا المالك الوحيد لذاكرة الأشياء التي تعوّدت أن أمتلكها. ربما كانت جيدةً - لأنني يبدو أنني أحبها الآن أكثر مما كنت أفعل عندما لم تكن عندي. ولكنني لا أستطيع أن أفهم كيف يمكن لهذه أن تبقى مخفية عند قلة مختارة. إن ابني بالذات يهاجم ويبقي كل واحدة من رغباته، لو أن الرياح تقول الحق».

- «إن عندك ابنا، يا روبرت، إنني أتذكر الآن. أظن أنني تنبأت بأنه سيحكم جزءاً ما من العالم إذا لم يكبر».

- «وهذا ما يفعله. تأتي عنه أخبار من الجنوب على ريح ضالة، خفيفة. للشائعة أجنحة مثل الخفافيش. يقال إنه يحكم جنساً من القراصنة، إنه قد استولى على بلدات ونهب مدنا. إن الإنكليز مبتهجون، ويدعونه بطلاً ورجلاً وطنياً - وكذلك أفعل أنا، أحياناً. ولكنني أخشى أنني لو كنت أسبانياً، فإنني ما كنت لأراه إلا لصاً ناجحاً. لقد سمعت - مع أنني لا أصدق ذلك؛ لا أريد أن أصدقه - بأنه قد عذب أسرى». فقال ميرلين متأملاً:

- «وهكذا، فقد صار الرجل العظيم الذي كان يتصور أنه يريد أن يكونه. لو أن هذا صحيح، فهو ليس رجلاً. إنه لايزال صبياً صغيراً ويريد القمر. أظنه غير سعيد نوعاً ما بذلك. إن أولئك الذين يقولون إن الأطفال سعداء، ينسون طفولتهم. إنني أتساءل إلى أيّ مدة يمكنه أن يدرأ الرجولة.

«يا روبرت، هل رأيت ذلك النمل الأسود الكبار الذي يولد وله أجنحة؟ إنه يطير يوماً أو يومين، ثم تسقط أجنحته فيسقط على الأرض ليزحف طوال حياته. إنني أتساءل متى سيُسقط ابنك أجنحته. أليس غريباً، يا روبرت، كيف يُحترم هذا الزحف، بين الرجال - كيف يخمش الأطفال أجنحتهم، حتى يتمكنوا أن ينغمسوا في هذا الزحف المهيب؟»

فسأل روبرت:

- «ما الذي يجعل الأولاد يكبرون ليصيروا رجالاً؟ أي ظرف يُبلي جذور أجنحتهم؟»

- «عجيب. إن عدداً كبيراً جداً منهم لا أجنحة له قط، ويمزقها بعضهم لأنفسهم، بعضها أمور مفاجئة وبعضها الآخر مضجر جداً. إنني لا أعرفهم جميعاً، ولكن سخريتي كانت - نوعاً من سخرية من الذات. لقد أحببت فتاة صغيرة في الوادي، وأظنها كانت جميلة. أرجو أنني كنت وسيماً. ألفت لها أغنية وسميتها عروس أورفيوس[1]. كنت أتخيل نفسي أورفيوس، نوعاً ما، حينذاك. ولكنها عدّت الزواج من الألوهية حالة من الإجرام ضد الطبيعة. ألقت عليّ محاضرة. قالت إن كل رجل مدين لشيء أو آخر - لعائلته أو لمجتمعه أو لنفسه، نسيت لماذا - بأن يجعل نفسه ناجحاً. كانت غامضة بالنسبة لطبيعة النجاح، ولكنها

أوضحت جيداً أن الأغنية ليست تركيباً من نجاح. والآلهة كانت تمقتهم، خاصة آلهة الوثنيين. كان هناك رجل ذو أراضٍ وبيوت كان بشرياً بشكل مطمْئِن. حتى في أيامي القديمة أظن، بضغينة، أنه كان بشرياً بشكل مؤسف. وهكذا فقد تزوجا، والتهمت السخرية جناحيّ.

«استعرضت القتل والانتحار وحقول المجد في ذهني لأحارب هذه السخرية المؤلمة قليلاً. وفي خجلي، فكرت أن أحبس أغانيّ عن العالم، بحيث لا يعود العالم يسمعها قط. إن العالم لم يعرف أصلاً عندما رحلت. لم تجئ مجاميع صغيرة من الناس لتتوسل إليّ أن أعود - وكنت قد وعدت السخرية بأنهم سيفعلون. سقط جناحاي المعضوضان؛ وكنت رجلاً ولم أكن أريد القمر. وعندما حاولت أن أغني ثانية، كان صوتي قد صار أجش مثل صوت سائق ماشية، وكانت أغانيّ مثقلة بالأفكار المسبقة والتخطيطات». فقال روبرت:

- «أعجب كيف كبرتُ. لا أتذكر. ربما نفد شبابي مني متشبثاً بالزوايا - أو أنه ربما كان يحيا في تلك الجزر التي تعوّدت أن أحلم بها. ولكن هنري يسبح في أحلامه، وأنا أغار منه كثيراً أحياناً.

«أتدري يا ميرلين أن ثمة شيئاً بدا لي غريباً؟ كانت أمي، غوينليانا، تظن أن عندها رؤية ثانية، وكنّا نمازحها لأنها كانت تفرح بذلك كثيراً. وفي الليلة التي رحل فيها هنري، صاغت صورة عن حياته. يا ميرلين، لقد تحققت كل كلماتها تقريباً. أيمكن أن تكون هذه الأفكار قد هبطت عليها مثل سلسلة من اللوحات البراقة؟ إنه شيء غير محتمل، غريب».

- «ربما قرأتْ رغبته، يا روبرت، وأحست قوة رغبته. لقد علّمت

غوينليانا العجوز أشياء كثيرة تتعلق بالسحر، لقد كانت ميالة جداً لقراءة العلامات - والوجوه».

نهض روبرت العجوز ليمط نفسه.

- «آه، حسناً - يجب أن أمضي الآن. يحتاج رجل مسن مثلي إلى وقت متعب كي يهبط الممر. سيحل الليل عندما أصل البيت ثانية. ها هو وليام يأتي مع جهازه الذي كان ملحقاً له بالولادة. سأهبط قليلاً في معيته وأعرف طريقة جريان الأمور في لندن. لابد أنك تحب الكلمات، يا ميرلين، إذ تصنع الكثير منها؛ ولابد أنني أحب الألم، إذ أجلبه على نفسي.

«وأظنك، يا ميرلين، محتالاً ومخادعاً؛ في كل مرة رحلتُ عنك كان ذلك بالاعتقاد أنك قد قلت أشياء عظيمة، ومع ذلك، فعند التفكير، لم أتمكن قط أن أتذكرها. أعتقد أنك تمارس شعوذة ماكرة بالصوت الرقيق الذي لديك، وبقيثاراتك».

وفيما مضى يهبط الممر، دندنت القيثارات خلفه أنشودة وداع السحرة.

الهوامش

(١) Orpheus : في الميثولوجيا الإغريقية انه شاعر وموسيقي ملهم ، قادر على سحر الأشجار والوحوش بأنغام قيثارته .

الفصل الرابع

كانت پنما مدينة عظيمة فاتنة في سنة ١٦٧٠ عندما عزم مورغان على تخريبها؛ مدينة قوية ثرية، وكانت تسمى بـ (كأس الذهب) عن حق. ما كان لمكان في العالم الجديد البدائي أن يقارن بها في الجمال والثراء.

قبل أكثر من قرن، كان بالبوا[١] قد جاء إلى ساحل محيط جديد. كان قد ارتدى درعاً صقيلاً وخوض في المحيط الهادئ حتى غسل الماء الرقيق فخذيه. ثم، في بلاغة خطابية، خاطب البحر بشقة وطالبه بكل الأراضي التي يقتحمها لملك أسبانيا. وطالب بأن يكون الماء مطروقاً ومخلصاً، لأنه سيتشرف بأن يصير بحيرة خاصة لقشتالة وأراغون.

وراء بالبوا، على الشاطئ، كانت تربض قرية حشيش قصير للهنود، وكان اسمها پنما. باللسان المحلي كان ذلك يعني محلاً جيداً لصيد الأسماك. وعندما أشعل جنود أسبانيا بالمشاعل مهادات للأكواخ القشية، وبنوا في مكانها مدينة جديدة، أبقوا على اسم القديمة: پنما، الذي هو أغنية. وسرعان ما سوّغ المعنى نفسه، لأنه من هذه المدينة الصغيرة انتشرت شباك أسبانيا لتمتد إلى الجهات الأربع.

حمل پيدارياس[٢] الشباك إلى الشمال واصطاد مدن العرق المایاني[٣] العتيقة. وقد تمكن، بصيده، أن يرسل أفعوانات مشغولة بشكل غريب وصوراً مرعبة وحشرات منحوتة دقيقة، كلها من ذهب، إلى پنما. وعندما لم تبق زينات تجمع، عندما صارت المعابد صناديق

خاوية من حجر، ألقى بيداریاس عندئذ شبكة أسبانيا على الناس وساقهم إلى المناجم تحت سياطه.

أبحر بيزارو[٤] إلى الجنوب مع خيل ورجال مدرعين، فسقطت أمة الإنكا[٥] أمامه. قتل الحكام ونزع الحياة عن الهيكل الحكومي. ثم جرى شحن الماس، والصفائح عن جدران المعبد، ورموز الشمس الذهبية، والتروس الذهبية الاحتفالية، إلى پنما. وأجبر بيزارو الشعب الإنكي المقهور على دخول المناجم تحت وقع السياط.

قاد مئة قبطان عصابات صغيرة من الجنود إلى الشرق والجنوب الشرقي حيث كان هنود دارین[٦] الصلبون يعيشون في الأشجار والكهوف. هنا وجد الأسبان حلقات أنف وكواحل وعصي آلهة وريش نسور ملأى بالذهب. حشي كل شيء في أكياس وحمل على ظهور البغال إلى پنما. وعندما نهبت كل القبور من الزينات الذهبية، راح حتى الهنود الوحشيون يحفرون في الأرض بقوة السياط.

اكتشفت سفن أسبانيا قليلاً من الجزر غرباً، يمكن العثور في أخوارها الضحلة على الماس لو أن المرء غاص إلى عمق كاف؛ وخلال وقت قصير كان أهالي الجزر الكسولون يتقافزون إلى البحر حيث تعيش أسماك القرش. وشقت أكياس من الماس طريقها إلى پنما.

وجاءت أخيراً كل نتائج العمل الدؤوب، وحرفية الأشياء الثمينة، إلى پنما، حيث تلقتها البوتقات كما يفعل نَهِمٌ بالطعام، وحولتها إلى قطع ذهبية سميكة كزنود الخشب. تكدست إلى ارتفاع كبير في المخازن عصي الذهب، منتظرة إبحار أسطول الخرافة إلى أسبانيا. في بعض الأحيان كان ثمة قضبان من الفضة مرزومة في الشوارع بسبب نقص المكان في المخازن، ولكنها كانت في مأمن من اللصوصية لثقلها.

وفي هذه الأثناء كبرت المدينة لتصير شيئاً عظيماً. وضعت ثروة الأمم المستعبدة لبناء آلاف من المنازل البديعة ذات السقوف الحمراء والأفنية المرصوفة المدرجة الصغيرة حيث جرى إنماء زهور سرية نادرة. وانطلقت كل فنون ومواد راحة أوربا القديمة، الملونة، غرباً لتجمل البيوت البنمية لدى زيارة الكتل الذهبية.

كان أولئك الأسبان الذين اجتاحوا البلاد لصوصاً جشعين قساة، ولكنهم كانوا أيضاً جنوداً لا يمكن أن يرعبهم أي احتمال دموي. كانت عصابات صغيرة منهم تحتل العالم الجديد بقوة صغيرة عدا الشجاعة الروحية. ولكن عندما صارت شعوب نيكاراغوا وپيرو وداريين عصابات من العبيد المتذمرين، عندما لم يعد ثمة خطر بعد، جاءت سلالة جديدة من الناس لتعيش في پنما. كان هؤلاء هم التجار، حاسمين باهتمام عند وجود مزرعة منزوعة بقوة القانون من مالكها، أو عندما كان يرفع سعر المواد الغذائية لمستوطني الأراضي النائية، ولكن مرتعبين وجبناء عندما يقع الفولاذ على الفولاذ مقعقعاً.

سرعان ما سيطرت الطبقة التجارية على كل المضيق. كان بعض الجنود قد مات، وازداد آخرون قلقاً من حيث الأمان فقاموا بمسيرات مبتعدين إلى أراض خطرة جديدة، تاركين معركة الأغذية والكماليات في أيدي التجار الذين قدموا قليلاً من الطحين والنبيذ، وجمعوا - في عودتهم - جواهر وقضباناً من ذهب لصناديقهم الحديد. اتحد التجار بحيث أمكن أن يفرض الجميع السعر الغالي ذاته للأغذية، وبالفوائد بنوا بيوتهم الأرزية المسقوفة برقاقات وردية، وألبسوا نساءهم حرائر أجنبية وصار يتبعهم في الشوارع مجموعات من العبيد المماليك.

جاءت شركة من تجار العبيد الجنويين إلى المدينة وبنت مخزناً واسعاً

لبضاعتها. كان فيه أكوام من الأقفاص حيث كان الرجال السود يجلسون حتى يتم جلبهم إلى الضياء ليتم تحسسهم والمساومة بشأنهم.

كانت مدينة فاتنة، پنما. كان ألفا بيت أرزي تمتد في صفوف في شوارعها الرئيسة، وبعيداً عن المركز كان خمسة آلاف مقام أصغر للكتبة والمراسلين وجنود الملك المأجورين. ومحتشدة في الضواحي كانت أعداد لا تحصى من الأكواخ المسقوفة بالقش حيث يقيم العبيد. وفي مركز المدينة كان ثمة ست كنائس، وديران، وكاثدرائية مرتفعة، لجميعها أطقم ذهبية وأردية كهنوتية ثقيلة من الجواهر. وكان قديسان قد عاشا وماتا في پنما مسبقاً - ليسا من القديسين الرئيسين، ربما، ولكن بما يكفي من الأهمية لجعل عظامهما ذات قيمة.

كان قسم كامل من المدينة مزدحماً ببيوت واصطبلات وثكنات الملك. هنا، كان عُشر كل محصول الأرض يخزن، منتظراً أسطول النفائس التالي. حين سيتم حمله على ظهور الحمير عبر المضيق كي يتم تحميله على السفن. كانت پنما تعيل مملكة أسبانيا - تسدد تكاليف قصور الملك وحروبه الجديدة. بسبب المال الجاهز في خزانته، أعطى الملك پنما مقعد شرف. وحملت اسماً زاهياً: مدينة پنما النبيلة جداً والمخلصة جداً. جعلت مرتبتها مساوية لمرتبة قرطبة وإشبيلية، إذ ألم يكن ضباطها يلبسون سلاسل وظيفة ذهبية حول أعناقهم؟ ومنح الملك المدينة شعار نبالة متألقاً - ترس في حقل من الذهب على الجزء الأيسر، وعلى اليمين: زورقان شراعيان صغيران وحفنة من السهام الرمادية. وفوق الجميع كانت نجمة الاكتشاف الشمالية، في حين كانت أسود وقلاع المملكتين الأسبانيتين التوءمين تحيط بالترس. كانت پنما حقاً واحدةً من أعظم المدن في العالم.

كان مركز كأس الذهب ساحة مرصوفة عريضة لها جزء مرتفع في الوسط حيث كانت الموسيقا تعزف في المساء. وعندما كانت تعزف، كان الناس يتمشون في الأنحاء، دالّين على مراكزهم بأولئك الذين يحدثونهم؛ كانت الأرستقراطية التجارية بالغة الرقة في زهوها. قد يساوم الرجل على سعر الدقيق كاليهودي في رابعة النهار، ولكن في الليل، في الساحة، كان ينحني متخشباً أمام معارف ليسوا بمثل ثرائه ويبصبص بهوان متودداً إلى أولئك الأغنى منه.

لقد ازدادوا نعومة في أمانهم. كانت المدينة تعدّ منيعةً على الاختراق. فمن جانب كان البحر يحميها، ولم تكن ثمة سفن أجنبية على المحيط الجنوبي على أيّ حال، وفي الجانب المواجه لليابسة كانت ثمة جدران وسبخة عريضة يمكن إغراقها في وقت الخطر فتصير المدينة جزيرة حقيقية. وإضافة إلى ذلك، فعلى الجيش المهاجم أن يشق طريقة عبر الغابة المضيقية ليتقدم بالقوة، أن يلتف عبر ممرات ضيقة يمكن الدفاع عنها بيسر على أيدي هيئة صغيرة من الرجال. لم يكن أحد يعدّ من الممكن لأي قائد عاقل أن يحلم بقهر بنما. وهكذا، فعندما سقطت كامبيچي وپويرتو بيلو وماراكيبو على أيدي القراصنة، نفض تجار كأس الذهب أكتافهم وواصلوا عملهم المألوف. كان من سوء الطالع، بالطبع؛ كان محزناً في الحقيقة أن مواطنيهم بالذات استخدموا وسُرقوا - ولكن ماذا كان يمكنهم أن ينتظروا ؟ لقد كانت مدنهم على المحيط الخطأ. وليس لبنما أن تفكر قط بهذه الإزعاجات إلا بأسف. لقد كان الله طيباً، والشغل - حسناً - رهيباً، لم يعد ثمة مال بعد، والمزارعون يتشبثون ببضائعهم كما اللصوص.

كان دون خوان پيريز دي گوزمان حاكم كأس الذهب - وهو سيد

هادئ كُرست حياته ليصير سيداً كاملاً ولا شيء آخر. كان يدرب جيشه الصغير، يغير بزاته، وينظر باعتناء إلى زيجات أقربائه. لقد كان جندياً طوال حياته - ربما ليس قائد حملات جيداً، ولكن ضابطاً أنيقاً للغاية. كانت المراسلات التي يكتبها لمرؤوسيه رفيعة. كان تنميقه كلمات طلب استسلام من قرية هندية فوق كل ملامة. كان الناس يعشقون حاكمهم. كان يلبس جيداً جداً، كان فخوراً جداً، ومع ذلك كيّساً. كانوا يحيونه يومياً فيما يقعقع هابطاً الشارع مع قوة من الخيالة وراءه. وإن كان ثمة أي توقع لهجوم، فإن شخص دون خوان الأنيق سوف يطمن الشعب بالتأكيد. كان دمه أنبل دم ومخزنه أثرى المخازن في المدينة.

وهكذا كانوا يعيشون في پنما، ذاهبين إلى الأماكن الخضراء عندما تأتي الأيام الحارة، وعائدين إلى الحفلات الراقصة وحفلات الاستقبال في المدينة أثناء الموسم الممطر. وهذه كانت كأس الذهب عندما عزم هنري مورغان على دمارها.

ذات يوم زحفت الأخبار إلى پنما بأن مورغان الرهيب كان قادماً للغزو. في البدء كان ثمة عدم تصديق متسل، ولكن عندما وصل مراسلون أكثر، رفعت المدينة نفسها إلى نشاط محموم. اندفع الناس إلى الكنائس، اعترفوا، قبّلوا آثاراً، واندفعوا عائدين إلى بيوتهم مرة أخرى. قام مئات القساوسة بمسيرات احتفالية حاملين خبز القربان المقدس عبر الشوارع. وساط أعضاء الأخوية القاتمة أنفسهم بقسوة وسحبوا الصليب الثقيل في الأنحاء تحت أنظار الجميع. وبقيت الجدران المهدمة بلا ترميم، والمدافع الصدئة لم تعوَّض. واستمع دون خوان إلى قداس بعد قداس، وتحدث إلى الناس المهتاجين، واقترح مسيرات لكل القساوسة في المدينة.

بدأت قصص مرعبة تتضخم - كيف أن القراصنة لم يكونوا رجالاً قط، وإنما أشياء حيوانية لها رؤوس كرؤوس التماسيح ومخالب الأسود. وناقش أناس وقورون احتمالات من هذا القبيل في الشوارع.

- «بركة اليوم، يا دون پيدرو».

- «بركة العذراء، يا دون خييرمو».

- «ما رأيك عن هؤلاء السراق؟».

- «آه! فظيع، يا دون خييرمو، فظيع. يقال إنهم شياطين!»

- «أتظن من الممكن، كما سمعت، أن لمورغان نفسه ثلاث أذرع ويستخدم سيفاً في كل منها؟»

- «من يمكنه القول، يا صديقي! إن للشيطان قوى أعظم من ذلك حتى، بالتأكيد. من يستطيع أن يشخص حدود قوة الشر؟ إن التفكير بذلك ينطوي على تدنيس للمقدسات».

وفي مابعد:

- «تقول إنك سمعته من دون خييرمو؟ هو بالتأكيد لا يروي شيئاً مشكوكاً - رجل يمثل ثرائه».

- «إنني أكرر ما قاله فقط - إن بإمكان مورغان أن يطلق رصاصات من رؤوس أصابعه - إنه يتنفس زافراً شعلات كبريتية. لقد كان دون خييرمو واثقاً من ذلك».

- «ينبغي أن أخبر زوجتي بذلك، يا دون پدرو».

وهكذا كبرت الحكايات حتى صار الناس أنصاف مجانين. وتم استذكار قصص عن القسوة في مدن محتلة أخرى، وصار التجار - الذين كانوا ينفضون أكتافهم سابقاً - يشحبون عندما يتذكرون. ما كان يمكنهم أن يصدقوا؛ ومع ذلك فلابد أن يصدقوا، لأن القراصنة كانوا

أصلاً في طريقهم إلى شارغيس، وكان هدفهم المبين هو غزو كأس الذهب ونهبها. وأخيراً، تحت الضغط، سحب دون خوان نفسه من الكنيسة وقتاً يكفي لإرسال خمسمئة جندي لينصبوا كميناً على الطريق عبر المضيق. توسل ضابط شاب من أجل الحضور بين يديه.

- «حسناً، أيها الشاب»، بدأ الحاكم، «ما طلبك؟»

- «لو كان عندنا ثيران، يا سيدي - لو كان عندنا أعداد كبيرة من الثيران الوحشية»، صاح الضابط بانفعال.

- «احصل عليها! اجعل البلاد كلها تنبش من أجل الثيران! اجعل الرجال يجمعون ألفاً منها! ولكن ما الذي سنفعله بها؟»

- «ينبغي أن نجعلها تهرب منا على العدو يا سيدي».

- «خطة رائعة! عبقرية من ضابط! آه، يا صديقي العزيز - ألف ثور؟ ألف؟ كنت أمزح. دعهم يجمعون عشرة آلاف من أكثر الثيران وحشية».

أمر الحاكم بخروج جنوده - ألفين من جنود الملك - واستعرضهم، ثم عاد ليركع في الكاثدرائية. لم يكن دون خوان خائفاً من القتال ولكنه كان، مثل جنرال متدبر، يعزز دفاعه الثانوي. وإضافة إلى ذلك، فكل ما يكلف بقدر ما تكلف القداسات التي دفع عنها لابد أن يكون له بعض المفعول.

كبرت أول شائعة زاحفة لتصير غولاً. بدأ المواطنون المرتجفون يدفنون الأطباق من بيوتهم. ورمى رجال الكنيسة كؤوس القربان وحاملات الشموع إلى الخزان طلباً للأمان، وبنوا فوق عتيقاتهم الأغلى في ممرات تحت الأرض.

كان بالبوا سيقوي الجدران ويغرق المقتربات. كان جيش پيزارو

سيصل منتصف الطريق عبر البرزخ، في هذه المدة، ليقابل القراصنة القادمين. ولكن تلك الأزمنة الشجاعة قد ولّت. لم يكن تجار پنما يفكرون في غير ممتلكاتهم، حيواتهم، وأرواحهم - حسب الترتيب المذكور. لم يفكروا قط في حمل السيوف أو الكدح على الجدران المتداعية. كان ذلك واجب جنود الملك، الذين كانوا يتلقون أموالاً جيدة ليحموا المواطنين. على الحاكم أن يضبط الدفاع.

كان دون خوان قد استعرض قواته، وكان ذلك، وفق عقله، كل ما يمكن لأي جنرال أن يفعل. كانت البدلات فوق النقد، وجنوده سيعودون بالتقدير من كل استعراض في أوربا. وفي هذه الأثناء، فإن قداساً آخر لن يؤذي مجرى الأمور.

الهوامش

(١) Vasco Nunezde, Balboa : (١٤٧٥ - ١٥١٩) ، ملاح اسباني ، كان اول اوربي ابصر المحيط الهادئ (في ٢٥ او ٢٧ ايلول/سبتمبر ، ١٥١٣) ، فعدّ أسبق ملاحي أوربا إلى اكتشافه .

(٢) لم اعثر على ترجمة له .

(٣) عرق هنود الجزء الجنوبي من المكسيك وغواتيمالا وبيليز . نشأ قبل الميلاد بالف سنة أو اكثر ، وبنى حضارة عريقة تميزت بالرسم والنحت ، ومعابد الكلس القديمة والأهرامات . سحق القراصنة الأوربيون شعبها ودمروا حضارتها ونهبوا كنوزها .

(٤) Francisco, Pizarro (١٤٧٥ ؟ - ١٥٤١) ، مستكشف وفاتح اسباني ، قام بمحاولتين لاحتلال پيرو (١٥٢٤ - ١٥٢٥) و (١٥٢٦ - ١٥٢٨) ثم تمكن بين ١٥٣١ و ١٥٣٣ من ذلك ، بحيلة ، فقضى على حضارة الإنكا واقام سيطرة أسبانيا على پيرو . انشا مدينة ليما ، ومات قتيلاً .

(٥) شعب پيرو ، من «الهنود الحمر» ، الذي انشا قبل الغزو الأسباني حضارة راقية نسبياً وإمبراطورية واسعة ، شملت حوالي عام (٤٠٠) پيرو واكوادور وبوليفيا والجزء الغربي من الأرجنتين والنصف الشمالي من شيلي ، وانهارت على يد پيزارو .

(٦) Darien : منطقة في الجزء الشرقي في پناما . بلغها الأوروبيون ، اول مرة ، سنة ١٥٠١ ، وراها كولومبوس بعد سنتين في رحلته الأخيرة إلى العالم الجديد .

-١-

بينما كان القراصنة يرمون مدخرات نهب ماراكيبو بعيداً، انغمس هنري مورغان عميقاً في خطط غزوته الجديدة. ستتطلب رجالاً مقاتلين أكثر مما سبق أن تجمعوا. خرج مراسلو الكابتن مورغان إلى زوايا المستعمرات الأسبانية الأربع. ووجدت كلماته طريقها إلى بلايموث، ونيو امستردام. وحتى إلى الجزر الغابية حيث كان الناس يعيشون كالقردة، ذهبت دعوته إلى النهب الأكبر.

«كل رجل سيصير ثرياً لو نجحنا»، هكذا تقول الرسالة. «ستكون هذه أكبر ضربة توجهها الأخوية. سنحمل الرعب إلى قلب أسبانيا الداخلي. يتجمع أسطولنا على الجانب الجنوبي من تورتوگا في أكتوبر».

وسرعان ما انصبت السفن والرجال إلى مكان اللقاء؛ مراكب جديدة هائلة بأشرعة بيضاء وقياديم منحوتة، سفن تلمع بمدافع برونزية، أبدان متفسخة قديمة، تتشابك قيعانها بطحالب من الكثافة بحيث أنها كانت تتحرك عبر الماء مثل زنود الخشب. وجاءت السلوبات[١] وكنوات طويلة ومسطحات[٢]، تقحم في الماء بالشواديف. حتى العبّارات جاءت إلى مكان اللقاء، تحت أشرعة سعف مضفورة.

والرجال - كل أخوية تورتوگا المتبجحة، قراصنة غوفس الخبراء الشيوخ؛ فرنسيون، هولنديون، إنكليز وبرتغاليون - منبوذو العالم

الجاهزون للحراك. حمولات كنوآت من العبيد الذين أبِقوا من الأسبان جذفوا قادمين، مجذوبين إلى هذه البعثة بالعطش إلى دماء أسيادهم. كان العبيد من الكاريبيين والزنوج والبيض المحمومين. وظهرت جماعات صغيرة من الصيادين على شواطئ الجزر الغابية واستقلت السفن نحو الجانب الجنوبي لتورتوگا.

من بين السفن الرئيسة كانت فرقاطات طويلة وغليونات أسرت في اشتباكات سابقة. وعندما آن أوان الرحيل، كان لدى الكابتن مورغان سبع وثلاثون سفينة تحت يده، وألفا رجل مقاتل بالإضافة إلى البحارة والصبيان. في زحمة السفن كانت تمتد ثلاث سلوبات نظيفة نحيفة من نيو إنگلند. لم تأت للقتال، وإنما للتجارة - بارود مقابل الأسلاب، ويسكي مقابل الذهب. كان البارود والويسكي سلاحي الهجوم العظيمين. وإضافة إلى ذلك، كان رجال پلايموث هؤلاء سيشترون سفناً عديمة الفائدة، قديمة، من أجل الحديد والحبال التي تحتويها.

كان الكابتن مورغان قد أرسل صيادين إلى الغابات ليطلقوا النيران على الماشية، وسفناً إلى البر كي تسرق الحنطة. وعندما عاد الجميع، كان ثمة غذاء متوافر للرحلة.

لم يكن أحد، غير كوير دي گري وهنري مورغان، من كل حشد الرجال متعدد اللغات هذا، يعرف أين سيكون ذلك الغزو. لم يكن أحد يحلم أين سيبحرون ومَنْ سيقاتلون في نهاية الرحلة. لقد تجمع جيش اللصوص الشجعان على اسم مورغان، واثقين بتعطشٍ بوعده بنهب غير محدود.

لم يكن هنري مورغان قد جرؤ على إعلام هدفه. برغم فاعلية اسمه، كان القراصنة سينكصون عن مثل هذا الهدف الذي لا يمكن خرقه. لو أنهم أتيح لهم الوقت للتفكير في پنما، فإنهم كانوا سيفرون إلى

بيوتهم من الفزع، بسبب القصص التي كانت تروى عن قوة وحماية كأس الذهب في كل جزرهم طوال أكثر من نصف قرن. كانت پنما مدينة غيوم، مكاناً خفياً، نصفاً غير دنيوي، ومسلحاً بالصواعق. طبيعي، كان ثمة أولئك الذين يصدقون أن الشوارع مرصوفة بأحجار الذهب، وبعض شبابيك الكنائس منحوتة من الزمرد الخالص. كانت أساطير كهذه ستجذبهم قدماً، لو لم يكن عندهم الوقت ليفكروا في المخاطر كذلك.

عندما أميلت السفن وجرى حكها، وأصلحت كل الأشرعة، وصقلت المدافع وامتحنت، وملئت العنابر بالأغذية، دعا هنري مورغان إلى لقاء لضباطه بقصد توقيع مواد القانون وتقسيم الأسطول إلى قيادات.

تجمعوا في مقصورة الأميرال المصنوعة من خشب البلوط - ثلاثون قبطاناً كانوا قد جلبوا السفن للمهمة. كانت فرقاطة الكابتن مورغان دارعة أسبانية بديعة. كان يقودها دوق قبل أن تسقط في أيدي القراصنة. كانت المقصورة تشبه غرفة استقبال كبيرة، مغلفة بخشب البلوط القاتم، وجدرانها مائلة قليلاً إلى الداخل عند الأعلى. وعبر السقف كانت ثمة روافد محفورة بكروم وأوراق نحيفة، رهيفة. على أحد الجدران كان ثمة الشعار الأسباني، ولكنّ خنجراً قد مسحه وكاد يحكه ليغيبه عن النظر.

جلس الكابتن مورغان وراء مائدة عريضة كان كل واحد من قوائمها أسداً محفوراً غريباً، وحوله، كان قواد أسطوله وجيشه الثلاثون يقتعدون مساند. كانوا ينتظرون كلامه نافدي الصبر.

كان ثمة الكابتن ساوكنس الجدي، القصير، الذي كانت عيناه تتحرقان باللهفة البيورتيانية[٣]. كان يسوّغ قتوله بنصوص الإنجيل، ويقدم صلاة الشكر من عربة مدفع بعد اغتصاب ناجح.

وگريپو الأسود كان هناك، وقد صار شيخاً الآن، وواهناً تحت فضائحه غير المهمة. لقد استقر، أخيراً، على اعتبار إلهه شرطياً مريضاً يمكن للمرء أن يفوقه حيلةً بشكل ما. كان قد فكر أخيراً في أنه يمكن أن يهجر خطاياه باعتراف عام وإعادة تثبيت ديني في كنيسته الأولى، وهذا ما قرر أن يفعله عندما ستوفر له بعثته التالية حامل شمع ذهبياً يحمله إلى قسيس الاعتراف على سبيل تقدمة سلام.

وكان هولبرت وتيغنا، سوليفان ومايثر، يجلسون على مساند تحيط بالكابتن مورغان. وفي زاوية معتمة كان اثنان تعدّهما الأخوية كلّها بوصفهما لاينفصلان. كانا يسميان، ببساطة، الـ (بيرغندي) والـ (بيرغندي الآخر). كان الأول رجلاً سميناً صغيراً له وجه كأنه شمس منفوخة حمراء. كان عصبياً وقابلاً للإثارة. كان أدنى انتباه عام يصيبه بنوبة ارتباك. عندما كان يوجه إليه الحديث كان وجهه يزداد حمرةً، ويعطي انطباع بقةٍ تبحث مرتعبةً عن لوح تختفي وراءه. وكان رفيقه، البيرغندي الآخر، حاميه وموجِّهه. كان البيرغندي الآخر أطول وأقوى بنية، مع أن ذراعه اليسرى قد ذهبت من المرفق. كان يمكن أن يُشاهد هذان الاثنان في أي وقت يسيران معاً، يجلسان معاً. نادراً ما كانا يتكلمان، ولكن ذراع البيرغندي الآخر السليمة تكون على كتفي صديقه القصير البدين في علامة حماية.

خشّن الكابتن مورغان صوته وجعله بارداً من أجل خطابه. كان ثمة صمت عميق فيما كان يقرأ المواد. من جلب سفينة يحق له أن يسحب هذا المبلغ كإيجار، ويدفع للنجار ذي الأدوات كذا، وتوضع المقادير الفلانية جانباً لمتعلقي القتلى. ثم جاء إلى جوائز أول رجل يشاهد العدو؛ أول من يقتل أسبانيا، أول من يدخل المدينة. وانتهت المواد.

- «والآن وقِّعوا»، طلب الكابتن مورغان، فتحرك الرجال إلى المنضدة ورسموا أسماءهم أو علاماتهم.

وعندما عادوا إلى الجلوس، تكلم ساوكينس.

- «إن الجوائز أربعة أضعاف ما يتطلب العرف، لماذا؟»، لقد كان تدريب ساوكينس يجعله يمقت التبذير بشدة. فقال هنري مورغان بهدوء:

- «سيحتاج الرجال إلى شجاعة. سيكونون بحاجة إلى حثٍّ - لأننا ذاهبون إلى پنما».

- «پنما!»، كان ما أجابه أنيناً تقريباً.

- «نعم، پنما. لقد وقعتم على مواد - وأنا أشنق الهاربين. انظروا إلى معنويات رجالكم. إنكم تعرفون شيئاً عن ثروة پنما - ما يكفي لينشط ألسنتهم؛ وأنا أعرف المخاطر بما يكفي لأن اطمئن إلى أنها لا مزيد عليها».

- «ولكن - پنما -»، بدأ ساوكينس.

- «أنا أشنق الهاربين»، قال الكابتن مورغان، وترك المقصورة. بقي كوير دي گري ليستمع. سيقدم تقريراً عن مزاج الرجال.

حل صمت طويل. كان كل رجل يتذكر الأشياء التي سمعها عن پنما. وأخيراً، قال ساوكينس:

- «إنها خطرة، خطرة، ولكنها ثرية بشكل جيد. وقد أقسم الكابتن على أنه يعرف خارطة المدينة وكل مخاطر القتال».

جلبت هذه الكلمات تطميناً مفاجئاً. إذا كان الكابتن مورغان يعرف، فليس بهم حاجة إلى الخوف. كان مورغان لا يخطئ. امتلأت الغرفة بحديث سريع، قلق.

- «المال؟ إنهم يمشون فوقه. لقد سمعت بأن الكاثدرائية -».

- «ولكن الغابة مستحيلة العبور».

- «لديهم نبيذ جيد في پنما. لقد ذقت بعض ما جاء من هناك».

وفجأة، بدا كل رجل وكأنه يفكر في القديسة الحمراء.

- «عجيب، تلك المرأة هناك - السانتا رويا».

- «نعم، ذلك صحيح. هي هناك. من تتصوّرون سيفوز بها؟»

- «ليس الكابتن رجلاً يسعى للنساء بأي شكلٍ من الأشكال. أعتقد أنه سيكون كوير دي گري، هنا. هذا أكثرنا حظوةً».

- «حسن بما يكفي. إن كوير دي گري محكوم بأن يموت على حدِّ خنجرِ غيرةِ رجل ما. لن امتنع عن قتله، لأنني إن لم أفعل، سيقوم شخص آخر بذلك. لا، ربما كان خنجري».

- «ماذا تفعل بامرأة مثل تلك؟ لن يكون الأمر طرف حبل، كما أظن».

- «حسناً، إن شئت الحق، لقد كنت دائماً أجد هاته الدبلونات[٤] أكمل الأدوات للاغتصاب. إنهن يتألقن كثيراً».

- «كلا، كلا. ولكن انظروا إلى هذا. إن كل النساء تقريباً يقايضن ماساتهن بفضيلتهن. وعندما تكون عندك الثانية، فمن اليسير أن تأخذ الأولى».

- «ماذا يقول أحادي الذراع العجوز عن ذلك - أيها البيرغندي الآخر؟ هَيْ! أستأخذ القديسة الحمراء لصديقك السمين ذاك؟»

انحنى البيرغندي الآخر. وقال:

- «لن تكون ثمة حاجة. إن صديقي مقتدر جداً. حسناً، سأقصّ عليكم حكايةً -»، واستدار إلى البيرغندي. «هل أحظى بإجازتك، يا أميل؟»

بدا البيرغندي يحاول أن ينفذ من الجدار، ولكنه تمكن من أداء هزة رأس.

- «إذن سأروي لكم أيها السادة قصةً»، بدأ البيرغندي الآخر:

«كان ثمة أربعة أصدقاء في بيرغندي، ثلاثة يعتصرون قليلاً من اللبن في أثداء الفن، وواحد عنده ممتلكات. وكانت ثمة أيضاً فتاة رائعة في برغندي، جميلة، مصقولة كيسة، سيرسي[٥] حقيقية، الأكثر فتنة في البلاد. ووقع الأصدقاء الأربعة جميعاً في حب هذه الفاتنة الحلوة.

«أعطاها كل منهم الهدايا التي كانت الأعز على نفسه. طوى الأول روحه في سوناتة وطرحها عند قدميها. وملأ الآخر فيولاً[٦] باسمها؛ وأنا - أعني الثالث - رسمت الصورة الوردية لوجهها. هكذا تنافسنا نحن الفنانين من أجلها بكل صداقة، نحو أحدنا الآخر. ولكن آخر الأربعة كان الفنان الحقيقي. كان هادئاً؛ كان مهذباً. ياللمثل! فاز بها بإشارة فائقة. فتح يده - هكذا - وعلى راحة كفه كانت تستقر ماسة وردية ضاحكة. فتزوجا.

«الآن بعد هذا الزواج، قدمت دلفين برهاناً أعظم قيمة مما كان أي شخص يشك. لم تكن هذه النموذج زوجة كاملة فقط، ولكنها كانت أيضاً العشيقة المتميزة والمبهجة - لا لواحد فقط، وإنما للثلاثة جميعاً - من أصدقاء زوجها. ولم يكن إميل، الزوج، يبالي. كان يحب أصدقاءه. لم لا؟ لقد كانوا أصدقاءه الحقيقيين، ولكن فقراء.

«آه، أكانت ثمة قوة عمياء حمقاء كالرأي العام! هذه المرة، ولّد ميتتين ونفياً. إن عُدار[٧] الرأي العام هذا - تأملوا بأنفسكم ما فعل! لقد أجبر إميل علي تحدي أصدقائه الثلاثة. وحتى عندئذ، كان يمكن للأمر كله أن ينتهي بالقبلة، بالعناق - «إن شرفي كامل، يا صديقي

العزيز» - لو لم يكن من عادة إميل المؤسفة أن يترك ذؤابة مغوله في اللحم المتعفن. مات اثنان من الرجال، وفقدت أنا ذراعي.

«والآن، مرة أخرى يجيء هذا الرأي العام. مثل بلطة قوية ترتكب خطأ فاحشاً. بعد أن فرض المبارزات، أجبر الفائز على مغادرة فرنسا. هنا أميل، إلى جانبي - عاشق، رجل سيف، فنان، مالك أرض. الرأي العام - ولكنني انحرفت عن الحكاية في كراهيتي لهذه القوة. ما أردت أن أخبركم إياه أن إميل لا يطلب مراعاة، لا يهادن قط. أعرف أنه يبدو وكأن خشرماً من النمل الجائع كان يقتات على روحه، ولكن دعوا الجمال العظيم يتموضع أمامه، دعوا القديسة الحمراء تنعكس صورتها في مرآة تلك العيون، وسترون وتتذكرون ما أقول. إنه هادئ، إنه مهذب، وهو فنان. حيث يصرخ الرجال الآخرون «خصوبة! قوة! انتصاب» - يحمل إميل ماسة وردية في جيبه كمهيج جنسي».

الهوامش

(١) Sloops : مراكب شراعية وحيدة الصواري .

(٢) Flat boats : مراكب مسطحة القاع مربعة الطرفين .

(٣) Puritanism : التطهيرية ، حركة اجتماعية - لاهوتية ضمن الكنيسة البروتستانتية في إنكلترا والولايات المتحدة الأمريكية . نشأت في إنكلترا في أواخر القرن السادس عشر بوصفها حركة إصلاحية متأثرة بالكالفينية ومستهدفة تبسيط طقوس العبادة وشعائرها ، والدعوة إلى التعلق المتزمت بأهداب الفضيلة . انفصلت في القرن السابع عشر عن كنيسة إنكلترا . وقد حملها المهاجرون الإنكليز إلى نيو إنكلند فتمتعت ، حتى القرن التاسع عشر ، بسلطة أخلاقية كبيرة .

(٤) جمع دبلون Dubloon ، عملة اسبانية ذهبية قديمة .

(٥) Circe : في الميثولوجيا اليونانية ، ابنة هليوس إله الشمس . برعت في السحر ، هي التي احتجزت ، في الأوديسة ، أوديسيوس سنة كاملة وحولت رجاله إلى خنازير!

(٦) - Viol : نوع من الكمان .

(٧) Hydra : افعوان خرافي ذو تسعة رؤوس قتله هرقل . كلما قطع له رأساً من رؤوسه نبت له راسان جديدان محله .

-٢-

كان جيش من المسطحات يعوم على نهر الشارغس، وقد أثقلت كل واحدة منها إلى أقصى حد طفويّتها مع رجال الأخوية الحرة. فرنسيون كانوا، يرتدون طاقيات ليلية مقلمة وبنطلونات فضفاضة، فضفاضة جداً؛ فرنسيون كانوا قد أبحروا ذات يوم خارجين من سانت مالو أو كاليه، ولم يعد لهم الآن وطن أمّ يعودون إليه. كانت بعض البرجات[١] مملوءة بالكوكنيين[٢].. وهم رجال قذرون في أغلبهم، لهم أسنان سوداء، ويتميزون بمنظر اللصوصية الصغيرة. وكان ثمة زيروفريون[٣] صامتون، صارمون من هولندا، يجلسون بتثاقل في زوارقهم، يحدقون بعيون الشرهين الكابية على طول مجرى الشارغس.

كان يدفع البرجات المتعادلة الثقيلة، بأعمدة، كاريبيون وسيمارونيون[٤]، وهم رجال خشنون بمرح يحبون الحرب كثيراً بحيث كان بالإمكان إقناعهم أن يخفضوا أكتافهم البنية الملساء للعمل لو كانت الجائزة دماً. وكان جزء من مهرجان القرصنة مؤلفاً من زنوج فروا مؤخراً من العبودية الأسبانية. كانوا يرتدون أحزمة كتف عريضة حمراء، تمتد مثل الجروح على صدورهم العارية. أما القائد، وهو هندي أحمر ضخم له وجه موظ[٥] أسود ضار، فلم يكن يلبس شيئاً ما عدا حزاماً أصفر

عريضاً وقبعة فارس، كانت ريشتها تتدلى مرتخية إلى أدنى وتنطوي تحت حنكه الأسود اللامع.

تقدمت الزوارق صاعدة الجدول، في صف طويل. صرخ الإنكليز بأناشيد بحارة عديمة اللحن، هازين أجسادهم للحفاظ على الإيقاع؛ وغنى الفرنسيون برقّة عن الغراميات الصغيرة التي ربما كانت لهم، وهذر السيمارونيون والسود بمونولوجاتهم التي لا تنتهي وغير الموجّهة إلى أحد بالخصوص.

وتلوى الشارغس ممتداً إلى أمام في عقد واستدارت كحدوة حصان لا تنتهي. كان الماء الأصفر، الذي يشبه امرأة مجذومة مذعورة، يعانق أبدان المراكب باستحياء. على الشارغس يمكنك أن تدفع زورقك بعمود النهار بطوله، وفي الليل تقيم مخيمك على مبعدة أقل من نصف ميل في خط مستقيم من مكان الانطلاق. كان نهراً لا مبالياً، راكداً مكوناً من عدة مجار ضحلة حيث يلمع الرمل البراق تحت الشمس. كان الشارغس هاوياً شُغل الأنهار الأبدي والمفهوم - شُغل الوصول إلى المحيط بأدنى ما يمكن من الاهتمام والجهد. الشارغس الذي يُحلم عنه في طول البلاد وعرضها، المتحفظ في ما يبدو من فقدان لاشخصيته الكسول في البحر المهموم.

بعد مدة وصلت الزوارق أرضاً كانت الغابة الكثيفة تمتد عندها إلى حافة النهر وتتوقف في قنة منحنية، مثل موجة خضراء متجمدة. كانت ثمة نمور مرقطة تتنقل عبر الأشجار، تراقب الرجال بفضول حزين. وبين أوانٍ وآخر كانت أفعى ضخمة تنزلق عن الجذع الدافئ الذي كانت تغفو عنده تحت الشمس، وتعوم على الماء، لافتة رأسها لترى هذه المسيرة غير

المسموع بها. اندفعت في الأنحاء زمر من القرود المنفعلة بين الكروم، معلنة كرهها للإزعاج. ولولت سخطها ورمت أوراقاً وأماليد على الزوارق. لقد انتهك ألف وأربعمئة غريب الأم الغابة المقدسة، لذلك فلأجْرَب قردٍ على الأرض حق الاحتجاج، في الأقل.

جاءت حرارة النهار مثل نَفَس حمى، ثقيل وبليد الإرباك. غلظت الأصوات القادمة من البرجات وتلاشت كما لو أن بطانيات ساخنة ألقيت فوق الرجال. جلس القراصنة بلا حياة على مصاطبهم. ولكن الهنود المجهدين واصلوا الدفع بحركة موقعة، ثابتة. كانت العضلات تنزلق متمددة على أذرعهم البديعة، منقبضة ومنبسطة حول أكتافهم مثل أفاع مضطربة. وفي داخل أدمغتهم الحاضنة للأفكار كانت رؤيا مذبحة، حلم دم بهيج. «إلى أمام!، كانت أدمغتهم تقول. «إلى أمام! أوه! إن المعركة قد اقتربت خطوتين. إلى أمام! إلى أمام! أوه! پنما! إن بطاح الدم قد اقتربت خطوتين». كان خط الزوارق الطويل يتلوى صاعداً النهر مثل ثعبان ذي مفاصل هائل.

سقط النهار المتوهج الطويل إلى وراء نحو المساء، ولم يكن رُئي بشر على طول ضفتي النهر. كان هذا أمراً خطيراً، لأنه لم يكن ثمة طعام في البرجات. لم يكن ثمة مكان للطعام. كانت الحاجة تقوم إلى كل بوصة للرجال والأسلحة. وفي تلك الحالة كان الماء يغسل الأسطح الخفيضة لأرمات المدافع. كان معروفاً جيداً أن مزارع عديدة تحد النهر، حيث يمكن لجيش جائع أن ينشط نفسه، وقد أرسلت هذه المعرفةُ القراصنة جوعى نحو پنما. لقد كانوا يراقبون طوال النهار ليروا المزارع ولكنهم لم يروا شيئاً غير الغابة المتشابكة الخضراء.

في المساء، جاء أول زورق صدراً لصدر مرسى من العصي. ارتفعت دوامة ضعيفة من الدخان من خلف صف مزروع من الأشجار الباسقة. بصرخات مرح عالية، تقافز القراصنة من زوارقهم وخوضوا إلى الساحل. لعنات ويأس؛ كانت المباني محروقة ومهجورة. كان هذا الدخان الصغير يتصاعد من كومة سوداء مما كان هُرْياً لم تبق فيه حبة قمح واحدة كي يأكلها الرجال. وكانت الآثار العميقة تقود إلى الغابة الرطبة لتبين إلى أين اقتيدت الماشية، ولكن الآثار كانت بعمر يومين.

عاد الرجال الجوعى إلى زوارقهم. آه، حسناً؛ عليهم أن يبقوا على جوعهم اليوم. كان الجوع جزءاً من الحرب، أمراً ينبغي انتظاره وتحمله. غداً، بالتأكيد، سيبلغون بيوتاً يخزن فيها النبيذ، بارداً ولذيذاً؛ وفي الزرائب أبقار سمينة تهز رؤوسها بحماقة، منتظرة أن تسلخ. إن قرصاناً - قرصاناً حقيقياً - يمكن أن يبيع حياته مقابل كأس من نبيذ حامض أو قليل من الكلام مع واحدة من النسوة السمراوات ذوات الأصل نصف الأسباني. هذه كانت مباهج الحياة، وكان أمراً عادلاً لو أن الرجل يُطعن قبل أن يُنهي كأس نبيذه أو حديثه، ولكن الجوع - حسناً، غداً سيكون ثمة طعام بالتأكيد.

ولكن مرة أخرى ارتفعت الشمس، قرحة محمومة بيضاء في كبد السماء. كان ثمة النهر ذو الدورات المجنونة، وعلى طول ضفتيه المزارع المهجورة، ولا طعام قط. كانت أخبار هذا الغزو كنست ما أمامهم مثل رسالة وباء مروّعة. لم يبق إنسان أو حيوان لاستقبال القراصنة.

في اليوم الثالث وجدوا عدداً من جلود البقر الخام الخضراء الصلبة، وقرعوها بين الصخور ليرققوها من أجل الأكل. كان بعض الرجال قد

أكلوا نصف أحزمتهم. وذات مرة اكتشف قليل من الذرة المحروقة في هري لايزال يحترق، ومات بضعة من القراصنة حسرة على التهامها.

راح الرجال يصطادون في الغابة، يبحثون بين الأشجار عن أي شيء حي يمكن أن يؤكل. كانت حتى القطط والقردة تبدو وكأنها اتّحدت مع أسبانيا. كانت الغابة صامتة وبلا كائن الآن. لم تترك وحدة حياة سوى الحشرات الطائرة. بين أوانٍ وآخر كان يتم اصطياد حية وشيّها، فيما كان آسرها يحرس عشاءه متجهماً. ووقع قليل من الفئران في أيدي القراصنة، ولكنها ازدردت في مكانها خوفاً من السرقة.

بعد أربعة أيام من السفر، صار النهر أكثر ضحالة مما يسمح بحركة الزوارق. نقلت المدافع إلى الشاطئ ليتم سحبها بالقوة البشرية على طول الممر الضيق. انتشر القراصنة على غير هدى في طابور غير منتظم، في حين كان أمامهم خشرم من الهنود، يستمد الطاقة من حلمه المتعطش للدم، قاطعين وممزقين التشابكات عبر الغابة بسكاكينهم الثقيلة. وشوهد عدد من الجماعات الصغيرة من الأسبان الفارين، وبين آنٍ وآخر كانت عصابات صغيرة من الهنود الأسبان تندفع من الأدغال مثل أسراب صغيرة من قبّرات مرعوبة، ولكن لم يقف أي عدو فترة تكفي للقتال. وفي إحدى المرات، إلى جانب القطار، تم اكتشاف مكان معد للكمين؛ جدار من التراب، ورماد العديد من نيران المعسكر. كان مهجوراً. لقد تملك الذعر الجنود الذين أرسلوا للقتال فهربوا.

الآن، صار الرجال يسحلون أنفسهم أقرب فأقرب إلى پنما. كان حماسهم للفتح قد تلاشى؛ كانوا يلعنون قائدهم لعدم جلبه الطعام، وما كانوا ليواصلون التقدم إلا مجرورين بمجرد قوة المثال الذي كان يقدمه الكابتن مورغان.

منذ البدء كان قد قادهم، ولكن الآن، على رأس القوات المرهقة، كان هنري مورغان نفسه بدأ يشك فيما إذا كان يرغب كثيراً جداً في الذهاب إلى پنما. حاول أن يتذكر القوة التي أطلقته على هذا الطريق، مغناطيسية الجمال غير المرئي. كانت السانتا رويا قد بهتت في مخيلته فيما ازداد جوعه. لم يكن يستطيع أن يتذكر رغبته بوضوح. ولكن حتى إذا ما كانت هذه الرغبة ستتركه تماماً، فإن عليه المواصلة. إن إخفاقاً واحداً، لحظة واحدة من عدم الحسم، ستبعثر نجاحاته مثل الحمائم.

كان كوير دي گري إلى جانبه كما كان منذ البداية، كوير دي گري مضى الآن، يترنح قليلاً وهو يمشي. نظر الكابتن مورغان بشفقة وافتخار إلى مساعده. رأى العينين مثل بلورة ضحلة، وفيهما ضياء وحشي كما ضياء جنون مقترب. أحس الكابتن مورغان وحدة أقل إذ الشاب إلى جانبه. كان يعرف أن كوير دي گري أخذ يصير جزءاً منه.

كانت حرارة الشمس تسقط من السماوات مثل مطر حارق. كانت تضرب الأرض ثم ترتفع ببطء ثانية، مثقلة بالرطوبة والرائحة المغثية للأوراق والجذور المتفسخة. في إحدى المرات سقط كوير دي گري على ركبتيه بفعل الحرارة، ولكنه نهض فوراً ليمشي مجهداً إلى أمام. رأى الكابتن مورغان مشيته المتعثرة، ورمق القطار أمامه بعدم حسم.

- «ربما علينا أن نرتاح هنا»، قال. «إن الرجال مرهقون».

- «ولكن كلا، ينبغي أن نستمر ونستمر»، أجاب كوير دي گري. «لو أننا توقفنا هنا، فكل ما هنالك أن الرجال سيكونون أضعف عندما نبدأ ثانيةً». فقال هنري مورغان متأملاً:

- «إنني لأتعجب، لِمَ أنت تواق إلى هذا الحد إلى مأموريتي. إنك

تتحرك قدماً حتى عندما أبدأ أنا نفسي بالشك - ما الذي تتوقع أن تجده في پنما، يا كوير دي گري؟»

- «أنا لا أنتظر أن أجد شيئاً»، قال الفتى. «أتحاول أن توقعني في شرك إعلان عدم الولاء؟ إنني أعرف أن الجائزة لك قبل أن نصل. أنا أعترف بذلك، يا سيدي. ولكن، لاحظ أنني مثل صخرة مدورة ضخمة تحركت هابطة تلاً، هذا هو السبب في ذهابي إلى پنما. لقد أطلقتني أنت، يا سيدي».

- «غريب كوني أريد پنما إلى هذا الحد»، قال هنري.

التفت وجه الملازم الذي امتلأ دماً نحوه في غضب.

- «إنك لا تريد پنما. المرأة هي ما تريد، لا پنما». كان صوته مريراً مثل كلماته، وقد كان الآن يضغط راحتيه على صدغيه. فتمتم الكابتن:

- «هذا صحيح. صحيح أنني أريد المرأة؛ ولكن ذلك، مع ذلك، أكثر غرابةً».

- «غريب؟»، انفجر غيظٌ وحشيٌ داخل كوير دي گري. وصرخ «غريب؟ لماذا يكون غريباً اشتهاء امرأة يُعرف أنها حسناء؟ أتسمي كل هؤلاء الرجال غريبين، أو أي شي مذكر على الأرض غريباً؟ أم أننا وهبنا شهوة كشهوة الآلهة؟ أتحمل جسد تيتان[٦] ما؟ غريب! نعم، بالتأكيد، يا كابتني؛ إن الجماع وتأمله أمران فريدان تماماً بين الرجال!»

كان هنري مورغان متحيراً، ولكن كان فيه بعض الرعب أيضاً. كان يبدو كأنه شهد مسير شبح لايصدَّق، شبح منفر. أيمكن أن يكون هؤلاء الرجال يشعرون كما يفعل؟ قال:

- «ولكنني أظن أن هناك شيئاً أكثر من الشهوة. لايمكنك أن تفهم توقي. إنه كما لو كنت أجاهد من أجل سلام لم يحلم به. إن هذه المرأة مرفأ كل مطالبي. إنني لا أفكر فيها كشيء مؤنث له ذراعان ونهدان، وإنما كلحظة سلام بعد اهتياج عظيم، عطر بعد وسَخ زنخ. نعم، ذلك غريب بالنسبة لي. عندما أتأمل السنوات التي انصرمت، أجدني منذهلاً من نشاطي. لقد اقتحمت مشكلات عظيمة جداً من أجل أشياء ذهبية، حمقاء. لم أكن أعرف السرّ الذي يجعل الأرض حرباء ضخمة. إن حروبي الصغيرة تبدو تَدافُع شخصٍ غريب عني، شخص لم يكن يعرف طرق جعل العالم يبدل لونه. لقد لزمت الحداد، في الزمن القديم، عندما مات كل إرضاء في داخلي. أثمة عجب في أنها ماتت جميعاً؟ إنني لا أعرف السر. كلا، لايمكنك أن تفهم توقي».

كان كوير دي گري يمسك صدغيه المتوجعين بين يديه. صاح هازئاً:

- «أنا لا أفهم؟ أتظنني لا أفهم؟ أدري؛ بالنسبة لعقلك، فإن مشاعرك أمور جديدة، اكتشافات ذات أهمية طازجة. إن إخفاقاتك لا سابقة لها. لن يسمح لك هذا الغرور العملاق بأن الكوكني الذي وراءك - نعم، هو الذي يتدحرج أحياناً على الأرض في نوباته - قد تكون له الآمال والإخفاقات ذاتها التي عندك. لايمكنك أن تصدق أن هؤلاء الرجال يحسّون بالعمق الذي تحسّ به. أعتقد أنه سيتجاوز أكثر أفكارك وحشيةً لو أنني قلت إنني أريد المرأة بقدر ما تريدها أنت، أو أنني يمكن أن أروي الجمل الحلوة للسانتا رويا، ربما، أفضل مما تستطيع أنت».

كان الكابتن مورغان قد أجفل تحت وقع الكلمات. لم يكن يصدق ذلك. كان التفكير في أن هؤلاء الرجال يمكن أن يحسّوا كما يحسّ أمراً

رهيباً. إن مقارنة كهذه تجعله، نوعاً ما، غير جدير.

وواصل كوير دي گري:

- «إنك تتعجب لماذا أقول هذه الأشياء. سأخبرك. لقد جنّنني الألم، وسأموت». وواصل المشي صامتاً لمسافة قصيرة، ثم صرخ فجأة وسقط ثقيلاً على الأرض.

بقي الكابتن مورغان ينظر إليه دقيقة بطولها. ثم بدا أن موجة عنيفة، عظيمة، تنفجر متصاعدة في صدره. أدرك في تلك الدقيقة إلى أي درجة صار يحب المساعد الشاب. أدرك أنه لايستطيع أن يتحمل فقدان كوير دي گري الفتي. لقد خرّ الآن على ركبتيه إلى جانب الجسد الصامت.

- «ماء!»، صرخ بأقرب قرصان، وعندما لم يفعل الرجل غير التحديق إليه: «ماء! اجلب ماء!» كانت يده تنخع بهستيرية على مسدس في حزامه. جلبوا له ماء في قبعة. شاهد جميع القراصنة قبطانهم البارد يركع على الأرض، مربتاً على شعر كوير دي گري البراق الندي.

انفتحت عينا الشاب ببطء وحاول أن ينهض.

- «إنني آسف، يا سيدي. الألم الذي في رأسي، تعرف - امتصت الشمس عقلي. ولكنك يجب أن تنهض، يا سيدي! سيفقد الرجال احترامهم لك إن رأوك تركع هنا».

- «ابق ممدداً، يا فتى! تمدد بهدوء! لايجب أن تتحرك بعد. أنا خائف. في لحظة ظننت أنك ميت، فذوى العالم كله. تمدد بهدوء! ها أنا سعيد. يجب ألا تتحرك. سنأخذ الآن كأس الذهب معاً، وستكون كأس قربان بمقبضين». ورفع كوير دي گري وحمله إلى ظل شجرة ضخمة.

ارتاح القراصنة على الأرض بينما استعاد مساعدهم قواه.

كان كوير دي گري يتكئ إلى وراء على جذع الشجرة. كان يبتسم نحو القبطان بإعجاب نسائي غريب. وسأله هنري مورغان بقليل من الكآبة:

- «أأشبه الكوكني؟ أأنا مثل الكوكني ذي النوبات؟» فضحك كوير دي گري.

- «إنك لاتعرف شيئاً عن الرجل. ربما ستفخر لو أشبهته. سأخبرك، لأنني أعرف أنه بالنسبة لك مجرد شكل من خشب يتلقى الأوامر. إن اسم الرجل جونز. كان يريد طوال حياته أن يصير واعظاً بالإنجيل. وتصوّر أن نوباته عقوبات من الروح الأقدس، يمتحنه لتكليفه بمهمة إلهية. لقد وقف ذات مرة في زاوية وتحدث إلى أهالي لندن. فجاء الحرس عليه وهو يتكلم. أخذه القانون بوصفه مشرداً وشحنه إلى جزر الهند.

«إن جونز هذا، بعد أن انتهت مدة محكوميته، صار قرصاناً ليتخلص من الجوع. كانت ثمة قسمة أسلاب إحدى الغارات، ووقعت في حصته جارية، أسبانية فيها دم زنجي. تزوجها لينقذ سمعتها. لم يكن يدري كم قليلاً كان ما بقي للإنقاذ. أتلاحظ يا سيدي - إن زوجته كاثوليكية. إنها لا تسمح له بقراءة الإنجيل عندما يكون في البيت. وهل تدري، يا سيدي، إنه يعتقد حقاً أن ظرفاً لصوصياً حرمه النجاح كما نعرفه أنت وأنا، ولكن النجاح الذي يأتي من فضل الله الخاص. إنه يتصور أنه ربما كان سيصير ساڤونارولا[٧] پروتستانتيا».

- «ولكن نوباته -»، قال هنري مورغان. «نوباته الفظيعة - لقد رأيتها». ومرة أخرى ضحك الشاب.

- «النوبات؟ آه، النوبات هبة - مورّثة».
- «وتظنه يحس؟»
- «نعم، ربما كان يحس. تذكر، لقد تزوجها لينقذ اسمها، وأبقاها معه عندما عرف ما كان ذلك الاسم. وستراه يطالب، خجلاً، بصليب عند قسمة الأسلاب. سيأخذ لها صليباً من پنما. فكر، أيها الرجل! إنه انفصالي[٨] عن الكنيسة. إنه يمقت الصلبان!»

الهوامش

(١) جمع برج barge ؛ مركب لنقل البضائع .
(٢) Cockneys : اي اللندنيون الأصليون ، وخاصة ابناء أحيائها الفقيرة .
(٣) Zeerovors
(٤) سكان المناطق المحيطة بنهر سيمارون Cimarron في المكسيك .
(٥) Moose : حيوان ضخم من حيوانات أميركا الشمالية ، من الظباء او الأيائل .
(٦) Titan ، في الميثولوجيا الإغريقية هو واحد من اثني عشر ولداً لأورانوس (السماء) من جيا (الأرض) ، خصى أحدهم ، وهو كرونوس ، أباه وفرض سلطانه على الكون .
(٧) Savonarola ، جيرولامو (١٤٥٢ - ١٤٩٨) راهب ومصلح ديني إيطالي ، شن حملة عنيفة ضد فساد الكنيسة الأخلاقي ، وانشأ في فلورنسا جمهورية بعد طرد آل مديتشي منها . أعدم فيما بعد .
(٨) Separatist



-٣-

إلى أمام ساق القراصنة أنفسهم نحو پنما. كانوا قد أكلوا الجلد وجذور الغابة المرة، وأكلوا القوارض والأفاعي والقردة. كانت وجناتهم أقداحاً ضحلة تحت عظام وجناتهم؛ وعيونهم تلمع من الحمى. الآن وقد ذهبت حماستهم، كانوا ينجرون قدماً بمعرفة عصمة قبطانهم من الخطأ. لم يكن يمكن أن يخفق مورغان لأنه لم يسبق أن أخفق قط. إن عنده بالتأكيد خطة ستضع ذهب العالم الجديد في جيوبهم. وكانت كلمة ذهب، مع أنها فقدت معناها الواقعي، أكثر أهميةً من كلمة جوع.

في الصباح الثامن جاء كشاف إلى الكابتن مورغان.

- «إن الطريق مسدود، يا سيدي. لقد رفعوا أمامنا سداً ترابياً ما ونصبوا مدافع».

انصياعاً لأمر، استدار رأس الطابور المتلوي إلى اليسار وبدأ يشق طريقه خلال شجيرات صغيرة أكثر كثافة. في المساء وصلوا قمة تل مستدير صغير، وهناك إلى أسفل منهم كانت پنما تستحم في الضوء الذهبي للشمس الغربية. فحص كل رجل وجه جاره ليطمئن إلى أن هذه لم تكن هلوسته الشخصية.

تحرك أحد القراصنة إلى حافة التل. وقف ساكناً وصاح بجنون، ثم

رآه رفاقه يركض هابطاً التل، ساحباً سيفه وهو يجري. كان قطيع من الماشية يرعى في الغور تحتهم، وقد تركه أسباني متخبط. خلال لحظة كان الرجال الألف والأربعمئة كلهم يتشتتون هابطين التل. قتلوا الأبقار بسيوفهم؛ هجموا على الحيوانات المرتعبة وشرطوها بسيوفهم. وبسرعة، بسرعة فائقة، كان الدم يقطر من لحى الرجال الساغبين، والنقط الحمراء تسّاقط على قمصانهم. أثناء تلك الليلة أتخموا أنفسهم إلى اللاوعي.

عندما كان الظلام مخيماً، كان كشافة القراصنة يطوفون فوق السهل مثل المذؤوبين، تسللوا إلى الجدران وعدّوا الجنود أمام المدينة.

وفي الصباح الباكر، أيقظ الكابتن مورغان رجاله ودعاهم مجتمعين ليعطيهم أوامر قتال اليوم، لقد صار هنري مورغان يعرف روحية القرصان. رفع أذهان رجاله وقَولَبها للمعركة. تحدث إلى مخاوفهم:

- «إنها سفرة تسعة أيام عائدين إلى فم النهر حيث تستقر السفن - تسعة أيام، ولا طعام قط. لن تستطيعوا الوصول إلى السفن حتى إن أردتم أن تهربوا. وهنا ينما، بينما كنتم تنامون مثل الخنازير، كان الكشافة منشغلين. أمام هذه المدينة، اصطف أربعة آلاف جندي، مع أجنحة من الخيالة، ليس هؤلاء ريفيين مسلحين بالبنادق والسكاكين، بل جنوداً مدربين يلبسون السترات الحمراء. وليس هذا كل ما في الأمر. ثمة ثيران ستطلق أمامكم - ضدكم يا صيادي الماشية». تبعت ضحكة كلماته الأخيرة. كان العديدة من هؤلاء الرجال قد عاشوا في الغابة واعتاشوا من اصطياد الماشية الوحشية.

ودغدغ الكابتن جشعهم:

- «إن ذهباً ومجوهرات تتجاوز أمل العدّ في المدينة. كل رجل منكم سيصير ثرياً إن نجح».

وجوعهم:

- «فكروا في اللحوم المشوية، في براميل النبيذ في السراديب، اللقانّق المتبلة. تصوروها!»

وشهوتهم:

- «في المدينة جَوارٍ، وآلاف من النسوة الأخريات، يعلم الله! ستكون مشقتكم فقط في الحكم أيهن تختارون من الكثرة التي ستقع في أيدينا. ليس هؤلاء نساء حقول كادحات، وإنما سيدات عظيمات ينمن في أسرة من حرير. كيف ستشعر جلودكم في أسرة مثل هذه، في تصوركم؟»

وأخيراً، لأنه كان يعرفهم جيداً جداً، فقد رفع مستوى خيلائهم:

- «إن أسماء من يشاركون في هذا القتال ستتسلق درجات التاريخ. ليس هذا نهباً، بل حرباً مجيدة. تصوروا مع أنفسكم أهالي تورتوگا وهم يشيرون إليكم ويقولون: [ذلك الرجل كان في القتال عند پنما. ذلك الرجل بطل، وثري]. فكروا كيف ستجري نساء غوفس وراءكم عندما تعودون إلى مواطنكم ثانية. هناك كأس الذهب أمامكم. هل ستهربون؟ سيموت كثيرون في الميدان اليوم، ولكن الذين سيبقون سوف يحملون پنما الذهبية في جيوبهم إلى الوطن».

ارتفعت هتافات خشنة. قبّل الفرنسيون أياديهم لهنري مورغان؛ هذر الكاريبيون وقلّبوا أعينهم. ونظر الزيرومريون المتأنقون في طعامهم وشرابهم ببلادة نحو المدينة البيضاء. وقال الكابتن.

- «وشيء آخر أيضاً. ستنظم القوات في صف، لو أنني أعرف هؤلاء القادة الأسبان. إنهم يحبون تنظيم أعظم عرض ممكن. إن أوامركم

هي الرمي على مركزهم، كلكم؛ وعندما يضعف ذلك المركز، اهجموا وشقوهم».

تحركوا خارجين على السهل، غمامة كثيفة من الرجال. سار مائتا هداف في المقدمة، فيما تجمع الباقون إلى خلف.

وقف الآن دون خوان، حاكم پنما، مع جيشه المرتب. صف طويل من الجنود المشاة في مجموعات من رتلين. نظر إلى التشكيل الفظ للعدو باحتقار. وأشار بشبه مرح موعزاً بالتقدم الأول.

انطلق الخيالة الأسبان، دائرين ومدوّمين عبر السهل. شكلوا مرة شكل V، ومرة مربعاً أجوف. سائرين في خبب سريع، مارسوا كل حركات الاستعراض المعقدة؛ أحدثوا مثلثات، وأشكال T. وخلال دقيقة واحدة برق كل سيف في وهج الشمس، ثم جعلته معاصم متلوية يختفي، ثم يبرق ثانية. ونخر دون خوان بإعجاب.

- «انظروا إليهم، يا أصدقائي؛ انظروا إلى رودريغز، نقيبي المحبوب. آه، رودريغز! أهو حقاً أنا من علّمك هذه الأشياء؟ أهو ممكن أن هذا هو الرودريغز الذي كنت أحمله بين ذراعي قبل وقت قصير؟ كان طفلاً آنذاك، ولكنه الآن رجل وبطل. انظروا إلى الصف، الثقة، الدقة. انظروا رودريغز وقوته، يا أصدقائي. كيف يمكن أن يهزم هؤلاء القراصنة الوحوش خيّالة كخيالتي؟»

بدا على رودريغز، وهو على رأس قوته، أنه يسمع مديح الحاكم. تصلبت كتفاه. ارتفع في ركابيه وأعطى إشارة الحملة. صوتت الأبواق بانفعال. زأرت الحوافر بصوت كقصف الرعد، أجوف على المرج. كان مجيئهم مثل موجة حمراء لها ذروة فضية. استدار رودريغز في سرجه

ونظر بفخر إلى القوة المندفعة وراءه، متبعة أوامره كما لو كانت أعضاء متعددة لجسد عظيم واحد يحكمه دماغه. كان كل سيف مرصوفاً على امتداد عنق حصان. استدار رودريغز ثانية لينظر مرة أخرى إلى پنماه المحبوبة قبل الصدمة. ثم عامت القوة بكاملها، تسبقها رؤوسها، في مستنقع. كانوا يعرفون أنه كان هناك، ولكن في حماس اللحظة، في انفعال أبدانهم، كانوا قد نسوا أمره. وفي ثانية كانت خيالة پنما حطاماً مكسوراً من الرجال والحيوانات الهاوية. كانوا ذباباً اصطاده ورق ذباب أخضر.

نظر دون خوان دائخاً إلى كومة الأجساد المتلوية، المشوهة، في السهل، ثم انفجر باكياً مثل طفل يرى دميته البراقة تؤخذ منه في الطريق. لم يكن الحاكم يدري ما يفعل. كان ذهنه ثقيلاً بأسف أحمر. تلفت في ما حوله وبدأ يتعثر باتجاه البيت. سيذهب ويستمع إلى قداس في الكاثدرائية. هكذا فكر.

صارت الأركان الأسبانية مسعورة. كانت بزات حمراء وذهبية تندفع هنا وهناك في كل اتجاه. كان كل ضابط يصرخ أوامر بأعلى صوت. وأخيراً جعل الملازم الشاب، الذي كان قد اقترح الماشية، نفسه مسموعاً فصاح:

– «أطلقوا الثيران»، وراح يكرر: «الثيران»، حتى راح الآخرون يصرخون بها أيضاً. قطع الهنود، الذين كانوا يمسكون الثيران، حلقات الأنوف وبدؤوا ينخسون الحيوانات الضخمة إلى أمام بمهاميزهم. تحرك القطيع ببطء خارجاً عبر السهل. ثم اندفع وحش أحمر إلى ركض بطيء، وفجأة كان الجمع كله يركض. فقال ضابط أسباني، بحكمة:

- «ستدوس هؤلاء اللصوص إلى الحشيش. حيث تمر، سنرى أزراراً، قطع أسلحة - ولاشيء أكثر - على الأرض الدامية».

عدت الشيران ببطء نحو صف القراصنة الفظ. وفجأة ركع الرماة المائتان وأطلقوا - أطلقوا بسرعة، مثل رجال يصيدون صيداً. بدا كما لو أن جداراً رافساً خوّاراً حل في مجرى الحيوانات الراكضة. توقف أفراد القطيع، الذين لم يعوّقوا، عند آثاره، تشمموا الدماء، خفقوا، ثم تشتتوا فارين في رعب عائدين إلى صفوف الأسبان. كان الضابط محقاً. حيث مرت، لم يبق شيء غير أزرار وأسلحة محطمة وعشب دامٍ.

في رعب الدَوس كان القراصنة قد هجموا. وهاقد انطلقوا الآن في الثغرة التي أحدثتها الشيران، وساقوا المدافعين المشقوقين يساراً ويميناً. كان ثمة قليل من صرخات الحرب، ولكن هؤلاء كانوا جنوداً قاريين. ماكانوا يفهمون هذا النوع من القتال. كان هؤلاء المشردون الرهيبون يضحكون ويقتلون الرجال بكلتا اليدين. تمسك رجال أسبانيا بمواقعهم فترة قصيرة، ولكن قلوبهم خارت بعدئذ تحت ستراتهم الحمراء البديعة، ثم فروا ليختبئوا في الغابة. طاردتهم عقد صغيرة من القراصنة، شاكة بسيوفها مَنْ سقط منهم مرهقاً. سرعان ما تبعثرت القوات المدافعة. وتسلق بعضها الأشجار واختفى بين الأوراق؛ وأضاع بعضهم أنفسهم في الجبال فلم يعثر عليهم قط. انطرحت كأس الذهب عاجزة أمام هنري مورغان.

انصب حشد من رجال صارخين عبر البوابة غير المحمية وصعدوا الشارع العريض. وعند أزقة متقاطعة، غير جزء من الطابور طريقه، مثل نهر يجري عائداً إلى روافده. وبين آنٍ وآخر كانت مجموعة تفصل نفسها

عن البدن الرئيس وتتحرك نحو أحد البيوت المهيبة. وتوقع ركلات على الباب، فاندفاعة، وسينطوي الباب نحو الداخل مثل غطاء جلد كتاب ضخم. كان الرجال يتجمعون في المدخل - صراخ وزعقة أو زعقتان. مدت عجوز جسمها من نافذة ونظرت بفضول إلى المهاجمين. ثم بدت خيبة الأمل في وجهها. صاحت نحو نافذة عبر الشارع:

- «هَيْ! انظري إلى هذا، أتفعلين! إن هؤلاء اللصوص يبدون على شبه كبير بأسبانيينا. إنهم ليسوا شياطين أبداً، بل مجرد رجال». وبدا أنها استاءت من رجولتهم. سحبت رأسها كما لو كانت تتبرأ منهم لكونهم مجرد رجال.

عند العصر اندلعت نار. تصاعدت ألسنة لهب طويلة إلى السماء. أصابت حياً، شارعاً، وكان نصف المدينة يحترق.

ذهب هنري مورغان إلى قصر الحاكم ليؤسس مقره، وهناك، في المدخل، كان يقف دون خوان بيريز دي گوزمان، وفي يده مغول مجرد. قال بانكسار:

- «أنا الحاكم. كان شعبي يتوقع مني أن أدافع عنه ضد هذه الكارثة. لقد أخفقت - ولكنني ربما استطعت أن أقتلك».

نظر هنري مورغان إلى الأرض. كان شيء في هذا الرجل المتهستر يثير أعصابه. قال:

- «أنا لم أشعل النار. لقد فعل أحد عبيدكم ذلك انتقاماً، في ما أظن».

تقدم دون خوان إلى أمام بمغوله المسلول، صارخاً:

- «دافع عن نفسك!»

لم يغير هنري مورغان موقفه.

سقط السيف من يد الحاكم. فصاح: «إنني جبان - جبان. لِمَ لم أضرب دون كلام؟ لِمَ لم تعارضني. آه، إنني جبان! لقد انتظرت أكثر مما ينبغي. ما كان يجب أن أتكلم قط، بل أن أدفع ذؤابتي إلى حنجرتك. أردت قبل لحظة أن أموت - أن أموت كنوع من تكفير عن إخفاقي - وآخذك معي كتقدمة سلام لضميري. لقد ذهبت ينما - وينبغي أن أروح أنا أيضاً. كما لو أن أصبعاً يواصل الحياة بعد أن يكون الجسد قد مات. ولكن لايمكنني أن أموت الآن. ليست عندي الشجاعة. ولا أستطيع أن أقتلك. إنني أدرك كيف كنت أتظاهر. آه! لو أنني تصرفت بسرعة فقط! لو أنني لم أتكلم- ». وسار مبتعداً نحو البوابة، فالبلاد المفتوحة. راقبه هنري مورغان وهو يترنح بسكر خارجاً من المدينة.

جاء الليل الأسود. كانت المدينة كلها تقريباً تشتعل، حديقة من نار حمراء. تهاوى برج الكاثدرائية ساقطاً وألقى سماء من الشرارات إلى الهواء. كانت ينما تموت في سرير من اللهب، وكان القراصنة يقتلون الناس في الشوارع.

طوال الليل جلس الكابتن في حجرة الاستقبال بينما صار رجاله يجلبون السلب المجتمع. كوموا القضبان الذهبية على الأرض مثل حطب الوقود، قضباناً من الثقل بحيث كان يحمل كلاً منها رجلان بصعوبة. وكان ثمة أكداس صغيرة من المجوهرات تشبه أكوام قش تلمع، وفي إحدى الزوايا تكومت أردية الكنيسة الثمينة، موجودات سوق ملابس عتيقة سماوي.

كان هنري مورغان يجلس في كرسي طويل محفور على شكل عدة ثعابين.

- «هل وجدتم السانتا رويا ؟ »
- «لا ، يا سيدي. إن نساء المدينة أشبه ما يكن بالشياطين».
جلب السجناء كي يعذبوا بلولب إبهامي[1] أخذ من السجن الأسباني.
- «اركع! ثروتك؟ [صمت] استدر، جو! »
- «الرحمة! الرحمة! سأقودكم؛ أقسم على ذلك، صهريج قرب بيتي».
غيره -
- «اركع! ثروتك؟ استدر، جو! »
- «سأقودكم».
كانوا من عدم الانتظام، والقسوة، وعدم الإحساس بقدر براعتهم في قتل قطيع المواشي.
- «هل وجدتم السانتا رويا ؟ » سأشنقكم جميعاً إذا أصيبت بأذى».
- «لم يرها أحد، سيدي. إن الرجال، عدا قلة، سكارى».
الليلة بكاملها - مع كل اعتراف بثروة مخبوءة، كان الضحية يساق من قبل مجموعة باحثين، وسرعان ما كانوا يعودون، حاملين كؤوساً، أطباقاً فضية، مجوهرات، وملابس من حرير ملون. كان الكنز المشع في قاعة الاستقبال يصير كومة هائلة.
والكابتن مورغان، بسأم:
- «هل رأيتم القديسة الحمراء؟ »
- «لم نجدها بعد، يا سيدي، ولكننا نبحث ونسأل في المدينة كلها. ربما في ضوء النهار، يا سيدي - ».

- «أين كوير دي گري؟»

- «أظنه سكرانَ، يا سـيـدي، ولكـن -»، ونظر بعـيـداً عن هنري مورغان.

- «ولكن ماذا؟ ماذا تعني؟»، صرخ الكابتن.

- «لاشيء؛ لا أعني شيئاً البتة، يا سيدي. يكاد يكون أكيداً أنه سكران. كل مـا هنالك أنه لابد من غـالونات مـن النبـيـذ لكي تسكره، وربما وجد له صديقاً في هذه الأثناء».

- «هل رأيته مع أحد ما؟»

- «نعم، يا سـيـدي، رأيتـه مع امـرأة، وكـانت سكرى. ويمكنني أن أقسم بأن كوير دي گري كان سكران، أيضاً».

- «أتظن أنّ المرأة يمكن أن تكون السانتا رويا؟»

- «أوه، لا، يا سـيـدي؛ أنا واثق أنهـا ليست هي... مجـرد واحدة من نساء المدينة، يا سيدي».

كان ثمة قعقعة طقم ذهبي يلقى على الكومة.

الهوامش

(١) Thumbscrew : اداة تعذيب يضغط بها على الإبهام او الإبهامين .

-٤-

زحف فجر أصفر من تلال ينما المصبوغة الصغيرة وازداد جرأة فيما شق طريقه عبر السهل. شعت الشمس صاعدة وراء قمة، وبحثت أشعتها الذهبية عن مدينتها. ولكن ينما كانت قد ماتت، قد أحست بتضاؤل النار السريع في ليلة حمراء واحدة. ولكن، فيما الشمس مجال متقلب، وجدت الأشعة الباحثة المسرة في الشيء الجديد. أنارت على الخرائب البائسة، أنعمت النظر في الوجوه الميتة المنقلبة، وتسابقت على امتداد الشوارع الحاشدة، وسقطت على رأسها إلى الفناءات المبلطة المحطمة. جاءت إلى قصر الحاكم الأبيض، قفزت عبر نوافذ صالة الاستقبال، وتخللت، كالأصابع، الكومة الذهبية المكومة على الأرض.

كان هنري مورغان نائماً في الكرسي الشعباني. كانت سترته الأرجوانية تتمرغ بطين السهل. وكان المغول المغلف بالرصاصي مطروحاً على الأرض إلى جانبه. كان وحيداً في هذه الغرفة، لأن كل الرجال الذين ساعدوا في جمع عظام المدينة أثناء الليل قد ابتعدوا ليشربوا ولويناموا.

كانت غرفة عالية طويلة، مغلفة الجدران بألواح من خشب الأرز المدهون. كانت عوارض السقف بسواد حديد قديم وبثقله. لقد كانت محكمة عدل، مكاناً لحفلات العرس، القاعة التي كانت تشرب فيها

أنخاب السفراء أو يتم اغتيالهم. كان أحد الأبواب يطل على الشارع؛ والآخر، وهو فتحة عريضة ذات طاق، ينفتح على حديقة بديعة يمتد القصر متلوياً حولها. وفي وسط الحديقة، كانت حوتة رخامية صغيرة تبثق جدولها الثابت إلى حوض. كانت ثمة نباتات عملاقة في أوان براقة حمراء، نباتات بأوراق أرجوانية وزهور تحمل تبلاتها رؤوساً سهمية أو قلوباً أو مربعات في ما يشبه القبعات. وكانت ثمة شجيرات، محددة بزخرفة تشجيرية جافية، بألوان الغابة المجنونة. وكان قرد لايكبر الأرنب يبحث في حصص الممر عن بذور.

على أحد مقاعد الحديقة الحجرية كانت تجلس امرأة. نتفت وردة صفراء إلى قطع فيما كانت تغني كِسراً من أغنية حمقاء رقيقة - «سأقطف زهرة النهار من أجلك، يا حبيبي، حيث تنمو في طلوع الفجر». كانت عيناها سوداوين، ولكن كامدتين. كانتا بالسواد الضحل، البراق، الثري، لجناحي ذبابة ميتة، وتحت جفونهما كانت خطوط صغيرة حادة. كان بمقدورها أن تسحب الجفنين الأسفلين لعينيها بحيث يلمعان بالضحك، مع أن فمها كان يبقى قاسياً ومحكماً. كانت بشرتها شاحبة جداً، وشعرها مستقيماً وأسود مثل السيح[1].

كانت تنظر آناً إلى ضوء الشمس الباحث، وآناً إلى المدخل ذي الطابق لصالة الاستقبال. توقف غناؤها. أصغت بانتباه لحظة، ثم بدأت الأغنية الرقيقة ثانية. لم يكن ثمة صوت آخر غير الطقطقات البعيدة للنار التي كانت لاتزال تشتعل بين أكواخ العبيد السعفية في ضواحي المدينة. جاء القرد الصغير في خبب معوج مضحك على امتداد الممر. وقف أمام المرأة، ورفع براثنه السوداء فوق رأسه كما لو في صلاة.

تكلمت المرأة معه بنعومة:

- «لقد تعلمت درسك جيداً جداً، يا چيكو. لقد كان معلمك قشتالياً مخيف الشارب. إنني أعرفه جيداً، كما تعرف يا چيكو، إنه يريد ما يعتبره شرفي. لن يقنع حتى يكون قد ضم شرفي إلى شرفه هو، ثم سيكون مدعياً تقريباً. لا فكرة عندك عن حجم ووزن شرفه حتى في وضعه الحالي. ولكنك تقنع بجوزة، أليس كذلك يا چيكو؟»، وأسقطت قطعة من زهرتها إلى الحيوان الصغير، حيث أمسكها، وضعها في فمه، وبصق باشمئزاز.

- «چيكو! چيكو! نسيت معلمك! هذا كله خطأ. إنك لن تنال شرف امرأة بهذا. ضع الوردة على قلبك، قبل يدي بصوت متمطق مرتفع، ثم تمشّ مثل كبش ضار خارج يبحث عن ذئاب». ضحكت ورمقت مرة أخرى نحو المدخل. مع أنه لم يكن ثمة صوت، نهضت وتمشت مسرعة نحو صالة الاستقبال.

كان هنري مورغان قد انقلب قليلاً في كرسيه، وسمح انقلابه لنور الشمس أن يصيب جفونه. فجأة جلس وحدق إلى ما حوله. نظر برضا إلى كومة الكنز على الأرض، ثم حدق ملياً إلى عيني المرأة الواقفة تحت الطاق العريض.

- «وهل دمرت مدينتنا المسكينة بما يكفي لرضاك؟»، سألت. فقال هنري مورغان مسرعاً:

- «أنا لم أحرق المدينة. لقد أشعل اللهب بعض عبيدكم الأسبان». كانت الكلمات قد خرجت منه بالقوة. تذكر أنه فوجئ، فسأل: «مَنْ أنت؟»

تحركت خطوة إلى داخل الصالة:

- «اسمي إيزوبل. قيل إنك بحثت عني».

- «بحثت عنك؟». فقالت:

- «نعم. لقد سمِّيت السانتا رويا من قبل بعض الحمقى الشبان».

-«أنت - القديسة الحمراء؟»

كان قد هيأ صورةً في ذهنه، صورة فتاة شابة، لها عينان ساروفيتان[٢] زرقاوان تتداعيان أمام تحديقة ثابتة لجرذ. هاتان العينان لا تسقطان. تحت سطحيهما الأسودين الرقيقين تبدوان ضاحكتين عليه، تستخفان به. كان وجه هذه المرأة حاداً، يكاد يشبه وجه صقر. كانت جميلة، حقاً، ولكن جمالها كان الجمال الخطر الفظ للصاعقة. وكانت بشرتها بيضاء.

- ليست وردية على الإطلاق.

- «أنت القديسة الحمراء؟»

لم يكن مستعداً لتبديل الفكرة هذا. ذهل من تمرد من هذا النوع ضد مفاهيمه المسبقة. ولكن، قال دماغه، لقد شق ألف ومائتا رجل وأكثر طريقهم عبر الغابة، قد اندفع على المدينة مثل موجة وحشية. مات مئات البشر في معاناة الجراح، وتعوّق المئات، وتهدمت كأس الذهب، وقد وقعت هذه الأحداث جميعاً لكي يمكن لهنري مورغان أن ينال السانتا رويا. مع كل هذا التحضير، يجب أن يكون أكيداً له أنه أحبها. ما كان ليأتي لو أنه لم يكن قد أحبها. مهما كانت صدمة ظهورها، ما كان بمقدوره أن يروغ من منطق أنه أحبها. كان لابد أن يكون هكذا. لقد فكر دائماً بـ «القديسة» باسمها؛ وهو الآن يتصور سبب الصفة. ولكن

شعوراً غريباً كان ينزُّ عليه - شعوراً غير منطقي على الإطلاق. تذكر مثل هذا الإحساس منذ وقت طويل مضى؛ كانت تجذبه هذه المرأة، ومع ذلك تصدّه. وأحسّ قوتها تربكه. أغمض مورغان عينيه، فوقف شكل الفتاة النحيلة الصغيرة ذات الشعر الذهبي في ظلمة ذهنه.

قال برتابة نغمة شخص يحلم:

- «أنت مثل إليزابث. أنت مثلها، ومع ذلك لاشبه هناك. ربما كنت تمتلكين القوة التي كانت بدأت تتعلم ممارستها. أظنني أحبك، ولكنني لا أدري. لست واثقاً».

كانت عيناه نصف مغمضتين، وعندما فتحهما كانت ثمة امرأة حقيقية أمامه، لا إليزابث الشبيهة بالطيف النذير[٣]. وكانت تحدق إليه بفضول، وربما - تصور - ببعض الإعجاب. كان غريباً أنها جاءته حين لم يجبرها أحد على المجيء. لابد أنها فتنت به. بحث في ذاكرته عن الخطب التي كان قد أنشأها في طريقه عبر المضيق.

- «يجب أن تتزوجيني، يا إليزابث - إيزوبل. أظنني أحبك، يا إيزوبل. ينبغي أن ترحلي معي وتعيشي معي وتصيري زوجتي، تحت حماية اسمي ويدي». فقاطعته:

- «ولكنني متزوجة سلفاً، متزوجة بشكل مرض تماماً».

كان قد توقع هذا. أثناء ليالي مسيرته كان قد خطط لهذه الحملة بالعناية التي كان يمكن أن يخطط فيها لمعركة.

- «ولكن، أصحيح أن اثنين، يلتقيان ويوقدان ناراً بيضاء، ينبغي أن يمضيا منفصلين إلى الأبدية المطلقة، ينبغي أن يقطع الطريق المجهد إلى اللامحدودية المكشوفة؛ أن كل واحد من هذين الاثنين ينبغي أن

يحمل جذوات سوداء من شعلة لم تحرق نفسها حتى الموت؟ لقد أعطت السماء الزيت الذي لايموت، كل واحد منا يحمل مشعلاً صغيراً للآخر. آه، يا إيزوبل - أنكريه، أو ارتدّي عن المعرفة المقتحمة إن استطعت. سترتعشين تحت لمستي مثل الجسد البديع لكمان قديم.

«أنت خائفة، فيما أظن. ثمة، في ذهنك، إدراك منقِّب للعالم؛ العالم المحدق بفضول، العالم التائق للإغاضة. ولكن لا يتملكك الخوف. لأنني أقول لك إن هذا العالم دودة ترتعش وهناً، عمياء، لاتعرف غير ثلاث عواطف فقط - الغيرة، الفضول، والكراهية. من السهل هزيمة الدودة، بحيث تجعلين القلب عالماً لذاته. لاتستطيع الدودة، لأنها لاقلب لها، أن تتصور أعمال القلب. إنه يستقر مشوَّشاً بنجوم هذا النظام الجديد..

«لماذا أخبرك بهذه الأشياء، يا إيزوبل - ألأني أعرف أنك تفهمينها؟ لابد أنك تفهمينها. ربما أعرف من الموسيقا العذبة، المعتمة، لعينيك. ربما أمكنني أن أقرأ ضربات القلب النابضة على شفتيك. إن قلبك النابض طبل صغير يحثني على قتال مخاوفك. إن شفتيك مثل بتلات خبّازى حمراء.

«وإذا ما وجدتك فاتنة، فهل ينبغي أن يعرّضني ظرف بليد للخوف؟ ألا أستطيع التعبير عن فكري لك، أنت التي يهمك أكثر من الجميع بعدي؟ لا تدعينا ننفصل ونحن نحمل جذوات سوداء من الشعلة التي لم تحرق نفسها حتى الموت».

عندما كان قد بدأ الحديث كانت تصغي بانتباه إلى كلماته، ثم خفق ألم قليل عبر وجنتيها؛ ولكن عندما انتهى لم يكن ثمة غير التسلية في

عينيها - تلك والسخرية الكامنة تحت سطحيهما. ضحكت إيزوبل بعذوبة، وقالت:

- «لم تنسَ إلا شيئاً واحداً. أنا لا أحترق. إنني أتساءل إن كنت سأحترق ثانية. إنك لاتحمل مشعلاً لي - وكنت أرجو أن تفعل. جئت هذا الصباح لأرى إن كنت تحمل. ولقد سمعت كلماتك مكررة كثيراً في باريس وقرطبة. أنا تعبة من هذه الكلمات التي لا تتغير قط. أثمة كتاب يعلم العشاق المحلقون به أنفسهم؟ يقول الرجال الأسبان الأشياء ذاتها، ولكن إشاراتهم أكثر ممارسة، وهكذا فهي أكثر إقناعاً بقليل. إن أمامك الكثير لتتعلمه».

صمتت. نظر هنري إلى الأرض. رفعت دهشته ضباباً من البلادة في ذهنه. قال بكآبة:

- «أخذت پنما من أجلك».

- «آه - بالأمس كنت أرجو أن تفعل. بالأمس حلمت لو أنك فعلت، ولكن اليوم - أنا آسفة». كانت تتكلم برقة، وبحزن شديد.

- «عندما سمعت بك وبتهديدك ووعيدك صاعداً المحيط وهابطاً إياه، فكرت فيك، بشكل ما، بوصفك الواقعي الوحيد على أرض من تذبذب. حلمت بأن تأتي إلي ذات يوم، مسلحاً بشهوة طاغية وتقتحم جسدي بوحشية. لقد تقتُ إلى وحشية بلا سبب، لاتوصف. حملني التفكير الطويل فيها عالياً عندما استعرضني زوجي مباهياً بي. لم يكن يحبني. كان مشبع الغرور بفكرة أنني كنت أعشقه. أعطته أهمية وسحراً في عينه هو، لم يكن يملك أياً منهما. كان يأخذني عبر الشوارع وتقول عيناه: [انظروا ماتزوجت! لن يتزوج رجل اعتيادي امرأه كهذه؛ ولكن

انتبهوا: أنا لست رجلاً اعتيادياً]. كان يخافني - رجل صغير، ويخافني. كان يقول: [بإذنك، ياعزيزتي، سأمارس امتياز زوج]. آه، يا للاحتقار الذي يتملكني له!

«كنت أريد القوة - قوة غير مفكرة، عمياء - والحب لا لروحي أو لجمال متخيّلٍ ما لذهني، وإنما للبُدّ[٤] الأبيض لجسدي. لا أريد رقةً. أنا رقيقة. يستخدم زوجي غسولاً مطيبة على يديه قبل أن يمسني، وأصابعه تشبه حلزونات رطبة. أريد عصر العضلات الصلبة، الألم اللذيذ للإيذاءات الصغيرة».

- «فكرت كثيراً وبعمق فيك مرة، فوجدتك نميت لتصير شخص ليل ضعيفاً. والآن - أجدك ثرثاراً، ناطقاً كلمات منمقة حلوة. أنت أخرق فيها نوعاً ما. أجد أنك غير واقعي بالمرة، وإنما مجرد ملفق غير متقن لقصص مبالغات. تريد أن تتزوجني - أن تحميني. لقد أراد كل الرجال - ما عدا واحداً أن يحموني. وبكل طريقة أنا أقدر على حماية نفسي منكم. منذ صباح ذاكرتي الأول، أصابني الغثيان من الكلمات. جرى إلباسي نعوتاً وإطعامي تدليلات. وهؤلاء الرجال الآخرون، مثلك، ما كانوا ليقولون ما يريدون. هم، مثلك، كانوا يشعرون من الضروري أن يبرروا عاطفتهم أمام أعينهم هم. هم، مثلك، يجب أن يقنعوا أنفسهم، وكذلك أن يقنعوني، بأنهم يحبونني».

كان هنري مورغان قد دفن رأسه، في خجل ظاهر. والآن انطلق نحوها. صرخ:

- «ولكنني سأجبرك إذن».

- «فات الأوان - سأعاود التفكير فيك واقفاً هناك، تخطب

بكلماتك المنمقة. وفيما أنت تجردني من ملابسي، سأصورك تبصبص أمامي، تنطلق كلماتك دون تفكير. وأخشى أنني سأضطر للضحك. وربما حتى أنني سأحمي نفسي - وأنت، الذي لابد أنك نوع من مرجع في الاغتصاب، لابد تعرف نتيجة ذلك. كلا، لقد فشلتَ - وأنا آسفة لفشلك». فقال بتعاسة:

- «إنني أحبك».

- «إنك تتكلم وكأن ذلك أمر هائل، جديد. لقد أحبني رجال كثر، وقال مئات إنهم يفعلون. ولكن ماذا ستفعل بي، يا كابتن مورغان؟ إن زوجي في پيرو، وميراثي هناك أيضاً».

- «لا - لا أدري».

- «ولكن هل سأصير جاريةً - أسيرةً؟»

- «نعم، يجب أن آخذك معي. وإلا، فسيضحك عليّ الرجال. سيخرّب ذلك الانضباط». فقالت:

- «إذا كان لابد من أن أصير أمةً، إذا كان لابد أن ابتعد عن بلادي، فإنني أرجو أن أصير أمتك - أنت أو مملوكة لقرصان شاب فاتن لاقيته ليلة أمس. ولكنني لا أظنك ستأخذني، يا كابتن مورغان. كلا؛ لا أظنك ستجبرني على الذهاب، لأنني، ربما، سألف السكين التي أغرزها منذ الآن في صدرك».

استثير هنري مورغان. فسأل معارضاً:

- «من كان هذا القرصان الشاب؟» فقالت إيزوبل:

- «آه، إنك تحسّ السكين وكيف لي أن أعرف الشخص؟ ولكنه كان ساحراً، وإنني لأود رؤيته ثانيةً».

وكانت عينا الكابتن تشتعلان غضباً. فقال بفظاظة:

- «سيُقفل عليك. ستبقين في زنزانة حتى وقت ذهابنا إلى الشارغس. وسنرى إن كانت هذه السكين التي تتحدثين عنها حادةً بما يكفي لإبقائك هنا في پنما».

فيما تبعته عبر الحديقة إلى سجنها، رنت ضحكتها الصافية:

- «يا كابتن مورغان، لقد خطر ببالي الآن فقط - بدأت أرى أن أنواعاً مختلفة عديدة جداً من الرجال يصيرون النوع نفسه من الأزواج». فأمرها:

- «ادخلي زنزانتك».

- «أوه - ويا كابتن مورغان، ستجد امرأة عجوزاً على سلالم القصر. وصيفتي، هي. أرسلها إلي، أرجوك. والآن، وداعاً حالياً، يا سيدي؛ ينبغي أن أنصرف إلى عباداتي. إن الخطيئة التي يجب غفرانها، يا كابتن مورغان، هي الحقانية. إنها شيء سيئ للروح، الحقانية».

عاد بطيئاً إلى كرسيه في صالة الاستقبال. كان مملوءاً بنوع من الخجل على رجولته. كان كما لو أنه قد استل مغوله من غمده فنبش به وجهه وهو واقف عاجزاً أمامها. لقد هزمته دون جهد واضح. وهو منطو على نفسه الآن أمام المعرفة بضحك رجاله عندما يكتشفون ارتباكه. سوف يطلقون ضحكاتهم المكتومة عندما يدير ظهره. ستلزم جماعات من القراصنة الصمت عندما يمر، وعندما يكون قد مضى سينفجرون في ضحك مدوٍّ. كانت هذه السخرية الخفية مرعبة لهنري مورغان. بدأت كراهياته ترفع رؤوسها، كراهيات لا لإيزوبل، ولكن لرجاله هو الذين سيضحكون عليه، لأهالي تورتوگا الذين سيروون القصة في الخمارات، لكل الساحل الهندي.

والآن، من السجن الصغير عبر الحديقة جاء صوت ثاقب يصلي للعذراء. شحن الصوت النفاذ القصر كله بنشاز صاخب. أصغى هنري مورغان بأذنين أرهفهما الخجل للسخرية في الكلمات أو في اللحن، ولكن لم تكن ثمة سخرية. مرة وأخرى، سلام مريمي زاعق، لحن مخطئة متوسلة، خائفة - شكوى. عالم مشظى، والهيكل الأسود لمدينة ذهبية - شكوى. لا سخرية على الإطلاق، ولكن توبة كسيرة الفؤاد تقرأ شهادتها البائسة على الخرزات الكارّة. صوت امرأة زاعق، خارق، مثابر - يبدو وكأنه يحفر على خطيئة يائسة، هائلة. كانت قد قالت إنها خطيئة الحقانية. «لقد كنت شريفة في وجودي، وتلك كذبة سوداء على روحي. اغفري لجسدي إنسانيته. اغفري لذهني الذي يعرف حدوده. اغفري لروحي على كونها حددت هذا الوقت القصير للاثنين. شكوى مخلصة».

تقرّحت المسبحة المجنونة التي لا تنتهي في ذهن هنري. أمسك أخيراً مغوله وقبعته وركض خارجاً من الصالة إلى الشارع. ووراءه بقي الكنز ينطرح مبتسماً تحت الشمس المنحرفة.

لم تكن النار قد مست الشوارع المحيطة بقصر الحاكم. سار الكابتن مورغان على امتداد الطريق المرصوف حتى وصل إلى أماكن الخراب. كانت جدرانه المسودة قد لفظت أحجارها إلى الطريق. وتلك البيوت التي كانت قد صنعت من خشب الأرز قد احتجبت في أطر من رماد مدخن علّمت أماكنها. وهنا وهناك كان ينطرح مواطنون اغتيلوا، مكشرين نزعهم الأخير في السماء. فكر هنري:

- «ستتسود وجوههم قبل حلول الليل. يجب أن أعمل على رفعهم وإلا فسيأتي المرض».

كانت غيوم متوانية من الدخان لاتزال ترتفع من المدينة، مالئة الجو بالرائحة المغثية لأشياء رطبة تحترق. وبدت التلال الخضراء وراء السهل لاتصدق لهنري مورغان. تأملها عن كثب ثم نظر إلى وراء نحو المدينة. كان الخراب - الذي كان قد بدا تاماً تماماً، ومريعاً جداً، أثناء الليل - خراباً محدداً وصغيراً وبشكل مؤسف، بعد كل شيء. لم يكن هنري قد فكر بالتلال باقية خضراء وقائمة. لقد كانت هذه الغلبة، إذن، غير مهمة إلى هذا الحد أو ذاك. نعم، كانت المدينة قد استحالت إلى خرائب. لقد دمر المدينة، ولكن المرأة التي اجتذبته إلى كأس الذهب امتنعت عليه. لقد نجحت في حين أنها لاتزال واقعة تحت قوته. أجفل هنري من عجزه، وارتعش من فكرة أن يعرف به الآخرون.

كان قلة من القراصنة ينبشون في الرماد، يبحثون عن صفائح ذائبة ربما كانت أفلتت من تفتيش الليلة البارحة. قابل هنري، إذ استدار حول زاوية، جونز الكوكني الصغير، ورآه يحشر شيئاً بسرعة في جيبه. ارتفعت شعلة غضب في الكابتن مورغان. كان كوير دي گري قد قال إنه لم يكن ثمة فرق بين هذا القزم المصاب بالصرع وهنري مورغان. لافرق، حقاً! كان هذا الرجل لصاً. تبدل الغضب إلى شهوة مخيفة في إيذاء الرجل الصغير، في إغاظته، في إخضاعه للازدراء كما أزدُري هنري مورغان. جعلت الرغبة القاسية شفتي الكابتن ترقّان وتبيضّان.

- «ما عندك في جيبك؟»

- «لاشيء - لاشيء، يا سيدي».

- «دعني أرى ما عندك في جيبك». كان الكابتن يسدد مسدساً ثقيلاً.

- «إنه لاشيء، يا سيدي - مجرد صليب صغير! وجدته». وأخرج صليباً ذهبياً مرصعاً بالماس، وعليه مسيح من عاج. وفسر الكوكني:

- «أترى، إنه لزوجتي».

- «آه، لزوجتك الأسبانية!»

- «إنها نصف زنجية، يا سيدي».

- «أنت تعرف عقوبة إخفاء الأسلاب؟»

نظر جونز إلى المسدس فاستحال وجهه رمادياً. وبدأ الكلام مختنقاً:

- «إنك لن - أوه، يا سيدي، إنك لن -». ثم بدا أن أصابع ضخمة، غير مرئية، أمسكت به. سقطت ذراعاه متصلبتين إلى جانبه، وارتخت شفتاه منفتحتين، وجاء ضياء جنوني، كامد إلى عينيه. كان ثمة قليل من زبد على شفتيه. وكان كل بدنه ينتفض مثل شكل خشبي راقص على وتر.

أطلق الكابتن مورغان النار.

بدا الكوكني هنيهةً أنه يتصاغر. انكمشت كتفاه حتى كادتا تغطيان صدره، مثل جناحين قصيرين. تقبضت يداه، ثم سقطت الكتلة المتقبضة على الأرض، متشنجة مثل هلام تنشيط، غليظ. انحسرت شفتاه عن أسنانه في زمجرة أخيرة بلهاء.

قلب هنري مورغان الجثة بقدمه، وتحرك تبدلٌ في ذهنه. لقد قتل هذا الرجل. كان من حقه أن يقتل، أن يحرق، أن ينهب - لا لأنه كان أخلاقياً أو حتى لأنه كان حاذقاً، بل لأنه كان قوياً. كان هنري مورغان سيد پنما وكل شعبها. لم تكن في پنما إرادة سوى إرادة هنري مورغان.

كان بمقدوره أن يقتل أي إنسان في البلاد إن هو اختار ذلك. كان هذا كله حقيقياً. ليس لأحد أن ينكره. ولكن في القصر وراءه، كانت ثمة امرأة تنظر إلى قوته وإلى إرادته باحتقار، وكان احتقارها سلاحاً أقوى من إرادته. لقد واجهت ارتباكه وهاجمته عندما كان ذلك يناسبها. ولكن كيف كان يمكن لذلك أن يكون. هكذا حاجج. لم يكن أحد سيداً في پنما غيره، وها هو قد قتل لتوه رجلاً ليبرهن على ذلك. تحت انهيال حججه ضمرت قوة إيزوبل واختفت ببطء. كان عليه أن يعود إلى القصر. كان عليه أن يجبرها كما وعد. لقد عوملت هذه المرأة باعتبار أكثر من الزائد. إنها لم تدرك أهمية العبودية، ولم تعرف حديد هنري مورغان.

استدار وسار عائداً نحو القصر. في صالة الاستقبال ألقى مسدساته، ولكن المغول الرمادي بقي إلى جانبه.

كانت إيزوبل تركع عند صورة مقدسة في زنزانتها المبيضّة عندما اندفع هنري مورغان فوقها. انكمشت الوصيفة المجففة إلى زاوية لدى رؤيته، ولكن إيزوبل تأملته متحديةً، ولاحظت وجهه المحمر، وعينيه الضاريتين، نصف المغمضتين. سمعت تنفسه الثقيل، وبابتسامة تفهم نهضت واقفة. رنت ضحكتها ممازحة فيما سحبت دبوساً من صدارها واتخذت وضع مبارز؛ قدما إلى أمام، وذراعها اليمنى ملوحة خلفها من أجل التوازن، والدبوس موجّه أمامها مثل مغول. وصاحت:

- «احترس!»[٥] ثم اندفع الكابتن نحوها. طوقت ذراعاه كتفيها وأخذت يداه تنزعان ملابسها. وقفت إيزوبل ساكنةً دون حراك، ولكن إحدى يديها انقضت بدبوسها - ضاربة، ضاربة - مثل أفعى بيضاء صغيرة. ظهرت بقع من دم على وجنتي هنري، على حنجرته:

- «عيناك هما التاليتان، أيها الكابتن»، قالت بهدوء، وطعنته ثلاث مرات على عظم الوجنة. أطلقها هنري وخطا مبتعداً، ماسحاً وجهه الدامي بظاهر كفه. ضحكت إيزوبل عليه. فالرجل قد يضرب - قد يخضع لأي انتهاك - امرأة تبكي وتهرب، ولكنه عاجز أمام امرأة تتمسك بموقعها ولا تفعل غير الضحك. قالت:

- «سمعت إطلاقة. تصورت أنك ربما تكون قد قتلت أحدهم لتشبع رجولتك. ولكن رجولتك ستعاني الآن، ألن تعاني؟ ستنتشر أخبار عن هذا اللقاء بطريقة ما؛ أنت تعرف كيف تنتقل أمور كهذه. سيروى أنك هزمت بدبوس في يد امرأة». كانت نبرتها ظافرة وقاسية.

انزلقت يد هنري إلى جانبه، وزحف المِغْول الهزيل من غمده مثل أفعى متجمدة. لعق الضياء بضراوة على امتداد نصله النحيل. وأخيراً خرجت الإبرية، واستدار الفولاذ واتجه إلى صدر المرأة.

أصاب الرعب إيزوبل بالغثيان، فقالت:

- «أنا خاطئة». ثم كسا وجهها ارتياح متضح. أشارت للوصيفة العجوز تدعوها إليها وتكلمت بأسبانية مقعقعة مضطربة، سريعة. فقالت المرأة:

- «إنه حق، إنه حق».

وعند نهاية كلامها، سحبت إيزوبل بحيوية الشريط المشبك لطرحتها جانباً كي لايتلطخ بالدم. بدأت العجوز بالتفسير:

- «يا سيدي، تقول سيدتي إن الكاثوليكية الصادقة عندما تموت على يدي كافر تذهب إلى الجنة. هذا حق. وإضافة إلى ذلك، فهي تقول إن امرأة كاثوليكية تموت دفاعاً عن عهد زواجها المقدس تذهب مباشرة

إلى الجنة. وهذا أيضاً حق. أخيراً، فهي تظن أن امرأة كهذه يمكن، بمرور الزمن، أن تطوب[٦]. لقد وقعت أمور كهذه. آه، يا سيدي! أيها الكابتن، كن رحيماً! اسمح لي أن أقبّل يدها، الآن، قبل أن تضرب. أي ازدهاء أن تقبّل الواحدة يد قديسة حية! قد يفعل ذلك الكثير لروحي أنا الخاطئة».

كلمتها إيزوبل مرة أخرى.

- «تأذن لك سيدتي أن تضرب، والأكثر من ذلك، فهي تحثك على ذلك، تتوسل من أجل الضربة. إن الملائكة يحومون حول رأسها. إنها ترى نوراً عظيماً، والموسيقا المقدسة ترنّ في أذنيها».

انخفضت ذؤابة المغول. استدار هنري مورغان مبتعداً وحدق خارجاً إلى الحديقة التي تنيرها الشمس. جاء چيكو الصغير خبباً على امتداد الممر وجلس في المدخل المفتوح. شابك الحيوان الصغير مخالبه ورفعها فوق رأسه كما لو كان يصلي. أحدث المغول صوتاً هاساً حاداً فيما دخل غمده. وانحنى الكابتن مورغان ليلتقط القرد الصغير. سار مبتعداً مربتاً على رأس چيكو بسبابته.

الهوامش

(١) زجاج بركاني، يكون اسود عادةً.

(٢) نسبة إلى الساروف Seraph، أحد ملائكة الطبقة الأولى الحارسين عرش الله في العقيدة اليهودية القديمة.

(٣) الطيف الذي ينذر الإنسان بموته.

(٤) Fetish : ما كانت الشعوب البدائية تعتقد ان له قدرة سحرية على حماية صاحبه او مساعدته.

(٥) بالفرنسية في الأصل.

(٦) تعدّ، رسميا، قديسة.

-٥-

رفع هنري مورغان كأساً ذهبية من كومة النهب. كانت كؤوس قربان نحيلة، رائعة لكل منها قبضتان محفورتان وحتار من فضة. وحول حافتها الخارجية كانت أربعة حملان خيالية غريبة يطارد أحدها الآخر، وفي الداخل، في القعر، كانت فتاة عارية ترفع ذراعيها في نشوة حسية. قلب الكابتن الكأس في يديه. ثم، فجأة، رماه على هرم ناري صغير من ماسات. تبعثرت الأحجار من كومتها المرتبة بصوت خفيف جاف. استدار هنري مورغان وعاد إلى كرسيه الأفعواني. كان يفكر في الكوكني الضئيل، جونز؛ مفكراً في يد الصراع الباردة التي قد أمسكت به في لحظة حياته الأخيرة. كانت اليد وراءه دائماً، يدا عملاقة تعصر جسد الإنسان حتى تنز قطرات الألم المبرح البيضاء من شفتيه. تساءل هنري، الآن، لماذا أراد أن يؤذي الرجل الضئيل، أن يعذبه، وأن يقتله في الآخر. لقد كان جونز مظللاً طول حياته بمعذِّب لاينام. بطبيعة الحال، تسببت هذه الميتة عن كلمات كوير دي گري الذي كان قد قال إن جونز يشبه هنري مورغان. نعم، إنه يعرف ذلك الآن، وهو يعرف، أيضاً، خزياً أحمر من تهمته المعلنة باللصوصية. لِمَ لم يكن بمقدوره أن يقتل الرجل دون تفسير؟

وكوير دي گري - أين هو الآن؟ لقد رأى إيزوبل - كان ذلك أمراً مؤكداً إلى حد معقول - وقد لاحظته هي. ربما أحبت كوير دي گري، بشعره اللامع وطريقته الغريبة مع النساء. وكيف يمكنه أنْ يمنع هذا الشاب من معرفة هزيمته، من سماع مغامرة الدبوس وكل خزي مساومات هنري مورغان مع السانتا رويا. كان المسدس الذي قتل جونز ملقى على الأرض. رفعه هنري ومضى نظامياً ليعبئه. لم يكن يخشى سخرية من كوير دي گري، وإنما بالأحرى تعاطفاً وفهماً. لم يكن هنري يريد الفهم الآن. سينظر إليه مساعده بتعاطف وببعض الشفقة؛ وسيكون ثمة شيء فائق بشأن الشفقة، شيء باعث على السخرية بشكل غائم. ستكون شفقة رجل وسيم شاب يتغاضى عن الفشل الغرامي لواحد ليس بالغ الوسامة. ثم، كان كوير دي گري شيئاً يشبه المرأة في معرفة الأمور - شيئاً مثل إيزوبل. كان يجمع معلومات بعين خفية غامضة.

والقديسة الحمراء. ينبغي أن يحملها هنري بعيداً معه، بالطبع. ما كان بمقدوره أن يفعل شيئاً آخر. لم يكن بمقدوره أن يفعل شيئاً آخر. ربما، بعد وقت طويل، ستقع في حبه. ولكن، بالتأكيد، ليس بسبب مواهب في ذاته. لقد أقنعه احتقارها بأنه لم تكن عنده مواهب؛ أنه كان كائناً رهيباً، معزولاً عن الآخرين بقبح لايذكر. لم تكن قد قالت كثيراً، ولكنها قد هددت بذلك. كلا، لم تكن عنده الخصائص التي يمكن أن تجتذب امرأة إلى جانبه عندما يكون ثمة رجال آخرون على مقربة. ولكن، ربما، لو أنها لم ترَ رجالاً آخرين، فلربما كانت ستتجاهل الخصائص التي تنقصه إلى هذا الحد. ربما ستأتي، أخيراً، لتبقي على شيء كان يمتلكه.

فكر في مشهده الأخير معها. الآن وقد صار هادئاً، بدا عمله

الوحشي عرض فتى صغير ترب. ولكن كيف يمكن أن يتصرف أي إنسان على نحو آخر؟ لقد صدت الهجوم بالضحك - ضحك قاس حاد استخرج دوافعه منها وسخر منها. كان يمكن أن يقتلها، ولكن أي رجل يمكن أن يقتل امرأة تريد أن تقتل، تتوسل أن تقتل؟ كان هذا أمراً مستحيلاً. ألقم طلقة في فوهة مسدسه.

جاء شكل أشعث، موحل من الانسحاب على الأرض، عبر المدخل. كان كوير دي گري. كوير دي گري ملوّثٌ بالوحل، محمرُّ العينين لايزال دم المعركة على وجهه. نظر إلى كومة الكنز.

- «نحن أثرياء»، قال بلا حماس.

- «أين كنت يا كوير دي گري؟»

- «كنت؟ عجباً، كنت سكرانَ. جيد أن يسكر المرء بعد المعركة». ابتسم بالتواء ولعق شفتيه. «ليس جيداً جداً التوقف عن السكر. ذلك مثل ولادة طفل - ضروري، ولكنه غير مفرح ولا تزييني».

- «أردتك إلى جانبي»، قال هنري مورغان.

- «أردتني؟ قيل لي إنك لاتريد أحداً - إنك كامل تماماً وسعيد في نفسك - ولهذا فقد ازددت سكراً نوعاً ما. أترى، يا سيدي، لم أكن أريد أن أتذكر سبب وحدتك». وتوقف. «قيل لي، يا سيدي، إن القديسة الحمراء كانت هنا». وضحك كوير دي گري من انفعاله سيئ الإخفاء. بدّل حاله بجهد من إرادته. صارت نغمته مازحة. «أنبئني الحقيقة، ياسيدي. إنها لموهبة صغيرة للرجل أن يعرف ما فاته. إن العديد من الرجال لايحظون بأي موهبة أخرى أثناء حيواتهم بكاملها. قل لي، يا سيدي، أسقط العدو الحلو؟ هل استسلمت قلعة الجسد؟ هل رفرفت راية مورغان على القلعة الوردية؟»

كان وجه هنري قد احمر خجلاً. ارتفع المسدس في يده بهدوء، استقر بفعل جنون لايرحم. كان ثمة قرقعة حادة وكتلة بيضاء من دخان.

بقي كوير دي گري واقفاً كما كان. بدا وكأنه يصغي عامداً إلى صوت نابض بعيد ما. ثم انتشرت تكشيرة رعب على وجهه. استكشفت أصابعه، بسعار، صدره وتتبعت وَشَلَ دم إلى منبعه، ثقب صغير في رئته. دفع الخنصر تدريجياً إلى الثقب. ابتسم كوير دي گري مرة أخرى. لم يكن يخشى أشياء معينة. والآن، وقد عرف، فهو لم يكن خائفاً قط.

حدق الكابتن مورغان بغباء إلى المسدس في يده. بدا مندهشاً لأن يكتشفه هناك، أجفل من وجوده.

ضحك كوير دي گري بهسترية. وصاح بكآبة:

- «ستكرهك أمي. ستمارس كل لعناتها العتيقة بحقك. أمي...»

واختنق بأنفاسه. «لا تخبرها. لفق كذبة باهرة. ابنِ حياتي البائسة في منارة ذهبية. لاتجعلها تقف مثل برج ناقص البناء. ولكن، لا - لاتحتاج لبناء غير الأساس. لو أنك أعطيتها ذاك، فستواصل البناء من الذاكرة البطولية. ستصنع لي ضريحاً في الأفكار الخاطئة البيضاء.» وامتلأت حنجرته بالدم «لماذا فعلت ذلك، يا سيدي؟»

تطلع الكابتن من مسدسه:

- «فعلت ذلك؟» ورأى الشفتين الداميتين، والصدر الممزّق؛ واندفع من كرسيه ثم تداعى ثانيةً. كان البؤس يكتب حول عينيه سطوراً. قال:

- «لاأدري. لابدّ أنني كنت أدري، ولكنني نسيت الآن».

ركع كوير دي گري بطيئاً. ركز نفسه ببراجمه على الأرض.

- «إنهما ركبتاي، يا سيدي، ما عادتا تتحملاني بعد»، اعتذر.

بدا مصغياً لصوت النبض ثانية. وفجأة ارتفع صوته في شكوى مرة.

- «إنها أسطورة أن المحتضرين يفكرون في أعمالهم التي أنجزوا. كلا - كلا - إنني أفكر في ما لم أفعل - في ما يمكن أن أكون فعلت في السنوات التي تحتضر معي. أفكر في شفاه نساء لم أرهن قط - في النبيذ النائم في بذرة عنب - في عناق أمي الدافئ، السريع، في غوفيس. ولكنني أفكر أكثر في أنني لن أمشي بعد اليوم قط - أبداً، أبداً لن أخطو تحت أشعة الشمس ولن أشم الروائح الثرية التي يستحضرها البدر إلى الأرض - يا سيدي، لِمَ فعلتها؟»

كان هنري مورغان يحدق إلى مسدسه ثانية. تمتم متجهِّماً.

- «لا أدري. لابد أنني كنت أدري، ولكنني قد نسيت. أحببت كلباً مرة - ولقد قتلت لتوي جونز. لا أدري لماذا».

- «إنك رجل عظيم، يا كابتن. قد يترك العظماء أسبابهم للأيدي الخلاقة للمعتذرين عنهم. ولكن أنا - عجباً، يا سيدي، أنا لاشي بعد - لاشيء. قبل لحظة كنت رجل سيف ممتازاً؛ ولكن الآن، وجودي - ذاك الذي قاتل، وشتم وأحب - قد لايكون وجد قط، حسب علمي.

ضعف رسغاه وسقط على أحد جانبيه وتمدد هناك ساعلاً ليتخلص من انسداد في حنجرته. ثم، لبعض الوقت، لم يكن ثمة صوت في الغرفة عدا اللهاث غير المستقر لنفسه. ولكنه فجأة رفع نفسه على أحد مرفقيه وضحك؛ ضحك لنكتة ضخمة ما، بعض المزاح من الأجرام السماوية الدوارة العظمى؛ ضحك بانتصار، كما لو كان حل لغزاً ووجد كم كان سهلاً يسيراً. صعدت موجة دم إلى شفتيه خلال الضحك، وملأت حنجرته. صارت الضحكة تنهدة متدفقة، وغاص كوير دي گري إلى

جانبه وسكن، لأن رئتيه لم تعودا تقويان على التنفس.

كان هنري لايزال يحدق إلى المسدس. رفع عينيه ببطء إلى النافذة المفتوحة. جعلت أشعة الشمس المتدفقة الكنز على الأرض يشع مثل كتلة من معدن ساخن. انتقلت عيناه إلى الجسد أمامه. ارتعش. ثم مضى إلى كوير دي گري، رفعه، وأجلسه في كرسي. سقط الجسد الرخو على أحد الجانبين أقامه هنري وثبته في وضع مستقيم. ثم عاد إلى كرسيه الأفعواني.

- «رفعت يدي هكذا»، قال، مشيراً بالمسدس إلى كوير دي گري.

- «رفعت يدي هكذا. لابد أنني فعلت. كوير دي گري مات. هكذا، رفعته - على هذا النحو - وأشار - كيف فعلت ذلك؟»، أحنى رأسه، ثم رفعه بضحكة مكتومة.

- «يا كوير دي گري! يا كوير دي گري! أردت أن أخبرك عن السانتا رويا. إنها تركب خيولاً، كما تعلم. ليس عندها الاحتشام النسوي قط - أبداً - ومظهرها مجرد متوسط». حدق إلى الجسد المسند أمامه. كانت عينا كوير دي گري نصف مغمضتين، ولكن الجفنين انزلقا هابطين وبدأت العينان تغوصان غائرتين في رأسه. وعلى وجهه كان التشويه المتجمد لضحكته المرة الأخيرة.

- «يا كوير دي كري!» صرخ الكابتن. مضى مسرعاً إلى الجثة ووضع يده على جبهتها. قال متأملاً:

- «هذا شيء ميت. هذا مجرد شيء ميت. سيجتذب الذباب والمرض. ينبغي أن أعمل على إبعاده فوراً. سيجلب الذباب إلى هذه الغرفة، يا كوير دي گري! لقد خُدعنا. إن المرأة تبارز مثل رجل، وهي

تركب الخيل فارجة ساقيها. جهد كثير ضاع منا! ذاك ما ننال عندما نصدق كل ما نسمع - ها، يا كوير دي گري؟ - ولكن هذا مجرد شيء ميت، وسيأتيه الذباب».

قاطعه وقع أقدام على السلالم. دخلت عصبة من رجاله، دافعين في وسطهم أسبانيا مرعوباً مسكيناً - أسبانيا مرتهبا، موحلاً من الخوض في الطين. كان الشريط قد انتزع من عنقه، ويجري جدول دم صغير من كمه. قال القائد:

- «هنا أسباني، يا سيدي. جاء إلى المدينة حاملاً رايةً بيضاء. هل يتعين أن نحترم الراية البيضاء، يا سيدي؟ إن لديه فضة على سرجه. هل نقتله يا سيدي؟ ربما هو جاسوس».

تجاهل هنري مورغان الكلام. وبدلاً من ذلك أشار إلى الجسد في الكرسي. وأعلن:

- «ذلك مجرد شيء ميت. ليس هذا كوير دي گري. لقد ارسلت كوير دي گري بعيداً. سيعود سريعاً. ولكن ذلك - رفعت يدي هكذا - أترى؟ - هكذا. أعرف بالضبط كيف فعلت ذلك؛ لقد حاولته مرة وأخرى. ولكن ذلك شيء ميت. سيجلب الذباب إلى هنا»، ثم صاح:

- «أوه، خذوه من هنا وادفنوه في التراب!»

تحرك القرصان ليرفع الجثة.

- «لاتمسه! لا تجرؤ على مسه! اتركه حيث هو. إنه يبتسم. أتراه يبتسم؟ ولكن الذباب -كلا، اتركه. سأعنى به بنفسي».

- «هذا الأسباني، يا سيدي؛ ماذا ينبغي أن نفعل به؟ أينبغي أن نقتله؟»

- «أي أسباني؟»

- «عجباً، هذا الذي أمامك يا سيدي»، ودفع الرجل إلى أمام.

بدا هنري وكأنه يستيقظ من حلم عميق. سأل بغلظة:

- «ماذا تريد؟»

كافح الأسباني خوفه.

- «إنه - إن من رغبتي ورغبة سيدي أن أحظى بالحديث إلى شخص يدعى الكابتن مورغان. لو أنه تفضل. إنني مراسل، يا سيدي - لست جاسوساً، كما تفضل هؤلاء - هؤلاء السادة».

- «ما رسالتك؟» كان صوت هنري قد صار مرهَقاً ضجِراً.

اكتسب الأسباني تطميناً من نبرته المتغيرة.

- «جئت من رجل ثري جداً، يا سيدي. أنت تحتفظ بزوجته».

- «أحتفظ بزوجته؟»

- «أخذت في المدينة، يا سيدي».

- «اسمها؟»

«إنها السيدة إيزوبل اسپينوزا، ڤالديس ولوس غابلينز، ياسيدي. لقد دعاها أهل المدينة البسطاء بالسانتا رويا».

تأمله هنري مورغان وقتاً طويلاً. وأخيراً قال:

- «نعم، هي عندي. إنها في زنزانة. ماذا يريد زوجها؟»

- «إنه يقدم فدية، يا سيدي. إن عنده سبباً يجعله يريد زوجته إلى جانبه مرة أخرى».

- «أية فدية يقترح؟»

- «ماذا تقترح سعادتك؟» فقال هنري سريعاً:

- «عشرين ألف قطعة من ذات الثمانية».

انذهل المراسل.

- «عشرين ألفاً - فيينت ميل... »، ترجمه كاملاً كي يدرك ضخامة المبلغ.

- «أتصور أن سعادتك يريد أيضاً المرأة».

نظر هنري مورغان إلى جسد كوير دي گري. وقال:

- «كلا. أريد المال».

الآن، ارتاح المراسل. لقد كان مستعداً للتفكير في أن هذا الرجل العظيم أحمق كبير.

- «سأفعل ما ينبغي القيام به، يا سيدي. سأعود إليك خلال أربعة أيام».

- «خلال ثلاثة!»

- «ولكن، لو لم أصل، يا سيدي؟»

- «إن لم تصل، سآخذ القديسة الحمراء بعيداً معي وأبيعها في أرصفة العبيد».

- «سأحاول جهدي، يا سيدي».

- «حيّوه!»، أمر الكابتن:

- «لا تسيئوا معاملته بأي شكل. إنه سيجلب لنا الذهب».

وفيما كانوا يغادرون، استدار أحد الرجال إلى وراء وترك عينيه تعانقان الكنز بافتتانٍ.

- «متى ستكون القسمة، يا سيدي؟»

- «في شارغس، أيها الأحمق! أتظنني سأوزِّعه الآن؟»

- «ولكن، يا سيدي، إننا لنود أن يكون لنا بعضه بين أيدينا - من أجل ملمسه، يا سيدي. لقد حاربنا بشدة، يا سيدي».

- «اخرجوا! لن تنالوا بعضه في أيديكم حتى نعود إلى السفن ثانية. أتظنونني أريد أن أجعلكم تبعثرونه على النساء هنا؟ دعوا نساء غوفس تأخذه منكم».

خرج الرجال من صالة الاستقبال متذمرين قليلاً.

-٦-

كان القراصنة يتمرّدون في ينما. كانت براميل من النبيذ قد دحرجت إلى مخزن كبير. وأخليت الأرضية من ركام بضائعها، وكانت الآن رقصة وحشية تدور. كانت هناك أعدادٌ من النساء، نساء كن قد انتقلن إلى القراصنة. رقصن ورفسن على صوت الفلوتات[1] الزاعقة، كما لو أن أقدامهن لم تحدث صوتاً على قبر ينما قط. كانوا، الاقتصاديون الأعزاء، يربحون مجدداً بعض الكنز الضائع، مستخدمين سلاحاً أبطأ، ولكن ليس أقل اطمئناناً، من السيف.

في زاوية من المخزن كان يجلس البيرغندي وحاميه أحادي الذراع.

- «انظر، يا أميل! تلك الواحدة هناك - تأمل لنفسك عجيزتها الآن!»

- «إنني أراها يا إتواين، وإنه لأمر طيب منك. لاتظن أنني لا أقدّر انشغالك بإمتاعي. ولكنني سخيف بما يكفي ليكون لي مثال، حتى في الجماع. هذا يبرهن لي أنني لاأزال فناناً، إن لم أكن سيداً مهذباً».

- «ولكن انظر، يا إميل. لاحظ لحظة امتلاء صدرها».

- «كلا، يا إتواين؛ إنني لا أرى شيئاً يعرض للخطر ماستي الوردية. سأبقى محتفظاً بها عندي مدة أخرى بعد».

- «ولكن حقاً، يا صديقي، أظنك تفقد حسك بالجمال. أين تلك العين الدقيقة التي اعتدنا أن نخشاها كثيراً في جنفاصنا؟»

- «هذه العين هنا، يا إتواين. لاتزال هنا. إنها عينك أنت الصغيرة التي تصنع حوريات من أفراس بنية»

- «إذن - إذن، يا إميل، ما دمت تصر على عماك، ربما كنت تتطلف فتقرضني ماستك الوردية. هاك - أشكرك. سأعيدها في الوقت الراهن».

كان گريپو جالساً في وسط الأرضية، يعد بنكد أزرار ردنه.

- «ثمانية، تسعة - كان ثمة عشرة. لقد سرق نغل ما زرّي. آه، عالم اللصوص هذا! إنه لكثير جداً. إنني لأقتل من أجل ذلك الزر. كان زرّي المفضل. واحد، اثنان، ثلاثة - لكن هناك عشرة. واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة..» كان الراقصون يلفّون حوله وكان الهواء يمور بصرخات الفلوتات الزاعقة.

حملق الكابتن ساوكينس بالراقصين. كان يعتقد اعتقاداً راسخاً بأن الرقص يعني الذهاب إلى الجحيم من أقصر طريق. وإلى جانبه، كان الكابتن زيگلر يراقب بحزن جريان الشراب. كان هذا الـ (زيگلر) يدعى «خمار البحر». كان من أعماله المألوفة أنه، بعد غارة ما، يبقي الرجال في البحر حتى يكونوا قد أنفقوا نهبهم على شراء الروم الذي يجهزه هو. جابهه مرة عصيان، فيما قيل، لأنه بقي يبحر طوال ثلاثة أشهر دائراً حول جزيرة واحدة فقط. لم يستطع الكف عن ذلك. كان الرجال لايزالون يمتلكون مالاً وكان هو أيضاً لايزال يمتلك الروم. هذه الليلة أحزنته براميل الشراب هذه التي كانت تشرب دون أيّ مصاحبة من المسكوكات ترن

على النُضُد. كان ذلك غير طبيعي عنده ومحزناً.

كان هنري مورغان يجلس في صالة الاستقبال. وما كاد يسمع الموسيقا الصارخة للرقصة. طوال النهار كانت عصب صغيرة من الرجال قد دخلت، حاملة قطعاً من كنز مضى عليه الزمن حفر عنه في الأرض وسحب بكلاليب حديد من الصهاريج. كانت امرأة عجوز قد ابتلعت ماسة لتنقذها، ولكن الباحثين حفروا بحثاً عنها، أيضاً، ووجدوها.

ثمة الآن نور أصيل رمادي في صالة الاستقبال. طوال النهار كان هنري مورغان جالساً في كرسيه الطويل، وقد غيره النهار. كانت عيناه، تانك العينان اللتان كانتا تتطلعان إلى أفق حي، منقلبتين إلى الداخل. كان ينظر إلى نفسه، ناظراً بارتباك إلى هنري مورغان. في سني حياته ومغامراته، كان قد آمن تماماً بمقصده، كائناً ما كان في اللحظة المعنية، بحيث أنه لم يولِ الأمر إلا اهتماماً ضئيلاً. ولكنه اليوم قد تأمل نفسه وكان، في ضياء الأصيل الرمادي، منذهلاً من منظر هنري مورغان. لم يبدُ هنري مورغان جديراً، ولا حتى مهتماً. كانت هذه الرغائب والطموحات التي كان قد نبح عليها عبر العالم مثل كلب صيد متشمم، أشياء دنيئة بالية الآن إذ هو ينظر في الداخل إلى نفسه. وكان شيء مثير للدهشة مثل ضياء الأصيل حوله في صالة الاستقبال.

فيما كان يجلس في شبه العتمة، زحفت الوصيفة المتغضنة داخلة ووقفت أمامه. كان صوتها مثل خشخشة تجعد ورق. قالت:

- «تريد سيدتي أن تتحدث إليك».

نهض هنري وسار بتثاقلٍ وراءها نحو الزنزانة.

كانت شمعة تشتعل أمام صورة مقدسة على الجدار. كانت السيدة

المصورة فلاحة أسبانية سمينة، تمسك طفلاً رخواً. كانت تنظر إليه بدهشة حزينة. كان القسيس الذي رسمها يقصد أن يضع على وجهها احتراماً، ولكن تجربته مع الاحترام كانت قليلة. ولكنه كان، مع ذلك، ناجحاً في جعلها صورة جيدة لعشيقته الفظة وطفله. أربعة ريالات[٢]، ذلك ما جلبته الصورة.

كانت إيزوبل جالسة تحت الصورة. عندما دخل هنري مضت مسرعة إليه.

- «قيل إنني سأفتدى».

- «زوجك أرسل رسولاً».

- «زوجي! عليَّ أن أعود إليه؟ إلى يديه المطيبتين؟»

- «نعم».

أشارت إلى كرسي وأجبرت هنري على الجلوس. قالت:

- «إنك لم تفهمني. لم يكن بمقدورك أن تفهمني. لابد أن تفهم شيئاً من الحياة التي عشتها. عليّ أن أخبرك بهذا الأمر، ثم ستفهمني، ثم...»

انتظرت اهتمامه. بقي هنري صامتاً. سألت:

- «ألا تريد أن تسمع هذا الأمر؟»

- «نعم».

- «حسناً، إنه قصير. لقد كانت حياتي قصيرة. ولكنني أريد أن تفهمني، ثم...»

نظرت بحدة إلى وجهه. كان فم هنري منكمشاً كما لو في ألم. وكانت عيناه تنطويان على ارتباك. لم يدل بجواب على توقفها. فبدأت:

- «كـان بهـذه الطريقـة، أترى. ولـدت هنا فـي بنمـا، لكـن والديّ أرسلاني إلي أسبانيا عندما كنت طفلة صغيرة. عشت في دير في قرطبة. كنت أرتدي ملابس رمادية وأتمدد مراقبة العذراء في ليالي المكرسة للعبادة. في بعض الليالي كان يغلبني النوم عندما كان ينبغي أن أكون أصلي. لقد عانيت بسبب ذلك الوهن والانحلال. عندما مضى عليّ عدد من السنين هناك، أغار القتلة المأجورون على مزرعة أبي هنا في بنما وقتلوا كل أفراد عائلتي. لم يترك لي من قريب سوى جد عجوز. كنت وحيدة، وكنت حزينة. لم أنم على الأرض أمام العذراء زمناً.

«كبرت لأصير جميلة، هذا أدريه، لأن كاردينالاً كان يزور المدرسة ذات مرة نظر إليّ، وارتعشت شفتاه، وبرزت العروق الضخمة في يديه عندما قبلت خاتمه. قال: [ليكن عليك سلام، يا بْنَتي. ألديك شيء تريدين الاعتراف لي به على انفراد ؟]

«سمعت صياح باعة الماء من فوق الجدار، وسمعت انطلاق نزاع. ذات مرة تشاجر رجلان بالسيوف تحت نظري، حيث كنت أقف على كسرة وأنظر من فوق الجدار. وفي إحدى الليالي جلب شاب فتاة إلى ظل البوابة واضطجع معها هناك على مبعدة خطوتين مني. سمعتهما يتناجيان، هي تحتج على مخاوفه، وهو يطمنها. اخترقت أصابعي بُردي الرمادي وتساءلت في ما إذا كان هذا الصبي سيكذبني لو عرفني. وعندما تكلمت مع إحدى الأخوات عن هذه الليلة قالت: [من الشر سماع هذه الأشياء، وأكثر شراً التفكير فيها، عليك أن تكفّري عن أذنيك الفضوليتين. أيّ بوابة قلت؟]

«كـان السـمـاك يصـيـح [تعـالين، أيتـهـا الملائكة الرمـاديات الصـغيـرات، وانظرن إلى سلة صـيدي. اخـرجن من سـجنكن المقـدس، يا ملائكتي الرماديات الصغيرات].

«وذات ليلة تسلقت الجدار وابتـعدت عن المدينة. لا أنوي تحـديثك عن أسـفاري، ولكن عن اليوم الذي وصلت فيـه إلى باريس فقـط. كان الملك يمتطي جواده عبـر الشـوارع، وكـان جـهازه متـألقـاً وذهبيـاً. وقفت ناهضة على رؤوس أصابعي في زحمة الناس وراقبت رجال البلاط يمضون راكبين. ثم، فجأة، اندفع وجه داكن أمامي، وأمسكت يد قـوية بذراعي. جرى اقتيادي إلى مدخل بعيد عن الناس.

«انظر، يا كـابتن؛ لقـد سـاطني بسيـر من الجلد الصلب يمتلكه لهـذا السـبب فقط. كـان لوجهـه شيء من تركـيب وحش، يختـفي على مقـربة شديدة من السطح. ولكنه كان حراً - لصاً، حراً. كان يقتل قبل أن يسرق - كـان يقتل دائماً. وكـان يعيش في المداخل، وعلى أرضيـات الكنائس، وتحت طاق أرضي لجسرٍ ما، وكنا أحراراً - أحراراً من الأفكار وأحراراً من المخـاوف والهـموم. ولـكنه ابتـعـد ذات مرة عني، ووجـدته معلقـاً من رقـبـتـه على مـشنقـة - أوه، مـشنقـة ضـخـمـة مـزينة برجـال مـعلقين من أعناقهم.

«أيمكنك أن تفـهم ذلك، يا كابتن؟ أترى ذلك كـما رأيتـه أنا؟ وهل يعني لك شيئاً على الإطلاق؟»، كانت عيناها تلتهبان.

«مـشـيت عـائدة إلى قـرطبـة، وتهـرأت رجـلاي. كـفّـرت حتى تمزق جـسـدي، ولـكنني لـم أسـتطع أن أخـرج الشـيطان كله. تـطهـرت، ولـكن الشـيطان كـان يسـتـقـر عـمـيـقـاً فيّ. أيمكنك أن تفـهم ذلك، يا كـابتن؟»

نظرت إلى وجه هنري فرأت أنه لم يكن يصغي. وقفت إلى جانبه، وحركت أصابعها في شعره المستحيل رمادياً. قالت:

- «تغيرتَ. لقد فارقك بعض النور. أي خوف حل بك؟»

خرج من حلم يقظته.

- «لا أدري».

- «قيل لي إنك قتلت صديقك. أهذا ما يبهضك؟»

- «قتلته».

- «وهل تقيم الحداد عليه؟»

- «ربما. لا أدري. أظن أنني أقيم الحداد على شيء آخر ميت. ربما كان نصفاً حيوياً مني، يتركني، إذ يموت، نصف رجل. لقد كنت اليوم مثل عبد مملوك على لوح رخام أبيض مع الأشلاء المشرّحة المتجمعة حولي. كان يفترض أن أكون عبداً سالماً، ولكن المباضع وجدتني مريضاً بمرض يدعى الاعتدال». فقالت:

- «إنني آسفة».

- «أنت آسفة؟ لماذا أنت آسفة؟»

- «أظنني آسفة بسبب ليلتك المضيّعة؛ لأن الطفل الوحشي، الشجاع فيك قد مات - الطفل المتبجج الذي يسخر ويظن السخرية تهز عرش الله؛ الطفل الواثق الذي كان يسمح بكياسة للعالم بمصاحبته عبر الفضاء. هذا الطفل مات، وأنا آسفة. سأذهب معك، الآن، لو أنني تصورت أن من الممكن تدفئة الطفل حتى يعود إلى الحياة ثانية». فقال هنري:

- «هذا غريب. قبل يومين كنت أخطط لاقتطاع قارة من النظام

المستقر وأكللها بعاصمة من الذهب لك. في ذهني، بنيت إمبراطورية لك، وإنني لأتذكر بشكل غامض الشخص الذي فكر بهذه الأمور. إنه غريب غامض على كرة متهادية.

«وأنت - إنني لا أشعر بغير قليل من الارتباك معك. لم أعد أخشاك قط. لم أعد أريدك بعد. إنني مملوء بنوستالجيا إلى جبالي السوداء الخاصة ولخطاب أهلي. إنني مشدود للجلوس في شرفة تمتد عميقاً وسماع حديث رجل عجوز كنت أعرفه. أجد أنني تعبت من كل إراقة الدماء هذه وأناضل من أجل أشياء لن تبقى مستقرة، من أجل مواد لن تحتفظ بقيمتها في يديّ. ذاك رهيب»، صرخ. «لا أريد أي شيء بعد. ليست عندي اشتهاءات جنسية، ورغباتي جافة مزعجة. ليس عندي غير رغبة غامضة في السلام وفي وقت لأتأمل في أمور غير قابلة للتأمل». فقالت:

- «لن تأخذ كؤوس ذهب أخرى. لن تقلب مزيداً من الأحلام الجوفاء إلى انتصارات غير مرضية. أنا آسفة لك، يا كابتن مورغان. وأنت لم تكن محقاً بشأن العبد. لقد كان مريضاً، حقاً، ولكن ليس بالمرض الذي ذكرت. ولكنني أتصور أن خطاياك عظيمة. كل الرجال الذين يحطمون قضبان الاعتدال يرتكبون خطايا مرعبة. سأصلي من أجلك للعذراء المقدسة، وستتوسط هي لصالحك عند بلاط السماء. ولكن ماذا عليّ أن أفعل؟»

- «ستعودين إلى زوجك، في ما أتصور».

- «نعم، سأعود. لقد جعلتني عجوزاً، يا سيدي. لقد ثقبت الحلم الذي كانت تقوم عليه روحي الثقيلة. وإنني لأتساءل فيما إذا كنت

ستلومني، في السنوات القادمة، على موت صديقك».

احمر هنري سريعاً. قال:

- «إنني أحاول أن أفعل شيئاً من ذلك النوع الآن. لم يعد الكذب يبدو جديراً بعد الآن، وليس هذا غير دليل آخر على الشباب الميت. ولكن الآن، وداعاً، يا إيزوبل. أتمنى لو كنت أحبك الآن كما كنت أتصور بالأمس أنني أحبك. عودي إلى يدي زوجك المطيبتين».

ابتسمت ورفعت عينيها إلى الصورة المقدسة على الجدار. وتمتمت:

- «ليمض السلام معك، أيها الأحمق العزيز. آه، لقد فقدت شبابي. إنني عجوز - عجوز - لأنني لا أستطيع أن أعزي نفسي بفكرة ما فاتك».

الهوامش

(١) جمع فلوات Flute

(٢) جمع Real : وحدة النقد في اسبانيا انذاك .

-٧-

وقف هنري مورغان في مدخل صالة الاستقبال وراح يراقب جماعة صغيرة من الأسبان يركبون عبر الشوارع باتجاه القصر. كانت الجماعة محوطة من جميع الجهات بغوغاء من القراصنة. جاء أولاً في الصف المراسل، ولكن مراسل متغير. كان الآن يرتدي حريراً أرجوانياً. كانت ريشة قبعته وغمد سيفه في هيئة سلام. وخلفه كان يركب ستة جنود في دروع صدر فضية وخوذ أسبانية كانت تبدو مثل أنصاف حبات خردل. وكان الجندي الأخير يقود فرساً بيضاء بلا راكب لها جُلال قرمزية وصف من الأجراس الذهبية على حزام حاجبيها. كان قماش السرج الأبيض يكاد يلامس الأرض. ووراء الفرس كانت ستة بغال تحمل حقائب جلدية ثقيلة، وكانت المجموعة محروسة في ساقتها بستة جنود آخرين.

تقدم الموكب إلى مقابل القصر. قفز المراسل عن حصانه وانحنى لهنري مورغان. قال:

- «معي هنا الفدية». كان يبدو قلقاً ومتعباً. كان عبء مهمته يخيم ثقيلاً على روحه. ولدى أمره حمل الجنود الحقائب الجلدية إلى داخل صالة الاستقبال، ولم يبرح القلق وجهه إلا عندما أودعت جميعاً مع بقية الكنز. فقال:

- «آه، ذلك جيد. إنه الكنز. اثنان وعشرون ألف قطعة من ذوات الثمانية - لم تفقد منها واحدة على جانب الطريق. إنني أدعوك أن تعدها، أيها السيد». وساط بعض الغبار عن قدمه، مقترحاً:

- «لو أمكن أن يتناول رجالي بعض المرطبات، أيها السيد، نبيذ...»

- «نعم. نعم»، وأشار هنري إلى أحد أتباعه. «اهتموا بأن ينال هؤلاء الرجال طعاماً وشراباً. كونوا مؤدبين، كما تحبون الحياة».

ثم مضى إلى الحقائب ليعد الفدية. أقام أبراجاً صغيرة من العملات البراقة وحرك القلاع هنا وهناك على الأرضية. فكر أن المال كان براقاً. كما لم يكن يمكن قطعه إلى أشكال أكثر فتنة. ما كان لمربع أن يفي بالغرض، ولا لقطع ناقص. وكان المال يستحق حقاً أكثر من المال. شقلب برجاً وبناه مجدداً. كان أكيداً للغاية - المال. إن المرء يعلم مسبقاً ما الذي سيفعله لو حُرِّك؛ إنه يعلم، في الأقل، إلى حد معين. وراء تلك النقطة ما كان يهم ماذا ينجز. يمكن للمرء أن يشتري نبيذاً بالمال. يكون للمرء نبيذ. ولو أن كاتباً عند تاجر قتل سيده من أجل المسكوكات نفسها، فذلك أمر بائس؛ إنه، ربما، القدر أو شيء مثل ذلك، ولكن المرء يصير عنده النبيذ في كل الأحوال.

وكل كومة الأوعية الذهبية هذه، هذه الصلبان وأعمدة الشموع وأردية اللؤلؤ، ستصير مالاً كهذا. قضبان الذهب والفضة هذه ستقطع إلى قشارات مدورة وتختم كل قشارة بصورة ما. ستكون الصورة أكثر من صورة. مثل قبلة قديس، يمكنها أن تمنح القشارة سلطة؛ ستعطيها الصورة شخصية وروحاً فارضة غريبة. قذف المسكوكات إلى كومة وبدأ بصبر يعيد بناءها. أبراج كافية لأورشليم!

جاءت إيزويل الآن من الفناء المرصوف ووقفت إلى جانبه، وقالت:

- «يالكمية المال! أتلك فديتي؟»

- «نعم؛ هو الذي يشتريك».

- «ولكن يا للكمية العظيمة! هل استحق هذه الكثرة، أتظن ذلك؟»

- «بالنسبة لزوجك تستحقين. لقد دفع عنك»، وحرك عشرة أبراج إلى صف واحد.

- «وبالنسبة لك - كم؟ كم من هذه الرقاقات الذهبية؟»

- «لابد أنك كنت تستحقين هذا المقدار بالنسبة لي. فأنا حددت السعر». قالت:

- «ألا تطفر بشكل جيد على الماء! كيف تطفر! أتعرف، يمكنني أن أرمي مثل طفل، وذراعي محنية». فأعلن:

- «لقد قيل إنك قديرة».

- «ولكن هل أساوي حقاً هذا المقدار؟»

- «المال هنا، وأنت ستذهبين. لقد اشتراك. لابد أن يساوي الشيء ما دفع فيه، وإلا ما كانت هناك تجارة». فقالت:

- «ذلك جيد. من المطمئن أن يعرف المرء قيمته حتى الريال. ألديك فكرة عن قيمتك، يا كابتن؟» فقال هنري مورغان:

- «لو أنني أسرت وطلبت عني فدية، لن أكون جديراً ببنس[1] نحاسي. إن كلابي هؤلاء سيضحكون ويهزون أكتافهم. وسينهض كابتن جديد ليقودهم، وأنا - حسناً، سأكون مبعث تسلية آسريّ، وأظنني أستطيع أن أتنبأ بسعادتهم. أترين، لقد كنت أعيد تقويم نفسي خلال

الأيام القلائل الفائتة. قد يكون لي بعض القيمة عند المؤرخين لأنني خربت بعض الأشياء. إن باني كاثدرائيتكم قد نسي منذ الآن، ولكن أنا، الذي أحرقها، قد أبقى مذكوراً مئة سنة أو نحوها. وقد يعني هذا شيئاً أو آخر عن الجنس البشري». وألحت:

- «ولكن ماذا هناك بشأني يستحق كل هذا الذهب؟ أهما ذراعاي، في تصورك؟ أهو شعري؟ أو أنني تجسيد خيلاء زوجي؟» فقال هنري:

- «لا أدري. مع إعادة تقويم نفسي، تغير مجمل النظام الاقتصادي للعواطف والأشخاص. اليوم، لو كان عليّ أن أطلب فدية فلربما ما كنت ستشعرين بالغرور».

- «أتكرهني، يا هنري مورغان؟»

- «كلا، أنا لا أكرهك؛ ولكنك إحدى نجوم سمائي التي أثبتت كونها شهاباً». فعقبت بضغينة:

- «ليس هذا نبيلاً، يا سيدي. هذا مختلف تماماً عن خطابك قبل بضعة أيام».

- «كلا. إنه ليس نبيلاً. أعتقد أنني سأصير من الآن فصاعداً نبيلاً لسببين فقط: المال والتقدم. لقد حاولت أن أصير نبيلاً من أجل المظهر المرح، النقي للأشياء. أتلاحظين، كنت مخلصاً مع نفسي قبلاً، وأنا مخلص مع نفسي الآن. إن هذين الإخلاصين مضادان للأخلاق».

- «أنت مرير».

- «كلا، لست حتى مريراً. إن الغذاء الذي تقتات عليه المرارة قد غادرني». فقالت بنعومة وكآبة:

- «إنني ذاهبة الآن. أليس عندك المزيد تقوله لي عن نفسي؟ المزيد مما تسألني إياه؟» فأجاب:

- «لاشيء» وذهب فوراً إلى تكويم المسكوكات ثانية.

دخل المراسل من الشارع. كان قد شرب عميقاً، لأن عبء مهمته المزاح قد جعله مرحاً. انحني لإيزوبل ولهنري مورغان؛ انحنى باحتراس، منتبهاً إلى توازنه أيضاً.

أعلن بصوت عالٍ:

- «ينبغي أن نذهب، أيها السيد. الطريق طويلة». وقاد إيزوبل إلى الفرس البيضاء وساعدها في الجلوس على السرج. ثم، عند إشارة منه، تحرك الطابور مبتعداً هابطاً الشارع. نظرت إيزوبل مرة واحدة إلى الوراء عندما بدؤوا، وبدا أنها قد أخذت نوبة غضب من هنري مورغان، لأنه كانت ثمة بسمة محتارة على شفتيها. ولكنها أحنت عندئذ رأسها فوق عنق الفرس؛ كانت تدرس بإمعان عرف الفرس الأبيض.

كان المراسل قد بقي واقفاً جنب هنري في المدخل. راقبا معاً الخط المرن للراكبين يستدير مبتعداً فيما كان نور الشمس يومض على دروع الجنود. في مركز الفرقة، كان العرف الأبيض يبدو لؤلؤة في إطار من فضة.

وضع المراسل يده على كتف هنري. وقال بسكرٍ:

- «إننا نعرف كيف يفهم أحدنا الآخر، نحن رجال المسؤوليات. ليس كأننا أطفال عندنا أسرار خاصة. نحن رجال، رجال شجعان وأقوياء. يمكننا أن نثق بأحدنا الآخر. يمكنك أن تخبرني بأقرب شيء إلى قلبك إن رغبت، أيها السيد».

نفض هنري اليد عن كتفه، وقال بفظاظة:

- «لاشيء عندي أخبرك به».

- «آه؛ ولكنني سأخبرك إذن شيئاً. ربما كنت تتعجب لماذا كان زوج هذه المرأة راغباً في دفع مثل هذا المبلغ الكبير عنها. إنها مجرد امرأة، كما تقول. ثمة كثير من النساء يمكن امتلاكهن أرخص كثيراً - وبعضهن لقاء ريال أو اثنين. إن زوجها أحمق، لعلك تقول. إن جدها لايزال حياً، وهو مالك عشرة مناجم فضة وخمسين فرسخاً مربعاً من الأراضي الخصبة في پيرو. ودونا[٢] إيزوبل هي الوريثة. والآن، لو أنها قتلت أو خطفت - ولكنك تفهم، أيها السيد - پوف! الثروة إلى أيدي الملك!» وضحك لحذق تحليله.

- «إننا نفهم أحدنا الآخر، يا سيدي. إن عندنا جمجمتين صلبتين - لا رؤوس فراخ لينة. اثنتان وعشرون - إنها لاشيء يعد مقابل عشرة مناجم فضة. آه، نعم؛ إننا نفهم أحدنا الآخر، نحن رجال المسؤوليات».

تسلق إلى سرجه وركب مبتعداً وهو لايزال يضحك. رآه هنري ينضم إلى الركب المتموج؛ وكانت الآن ثمة ياقوتة مع اللؤلؤة في الإطار الفضي.

عاد الكابتن مورغان إلى الكنز. جلس على الأرض وأخذ المسكوكات بين يديه. وفكر:

- «إن الأكثر إنسانيةً من بين كل الخصال الإنسانية هو عدم الثبات على المبدأ. إنه لأمر صاعق أن يتعلم المرء هذا الشيء، صعقته بضخامة إدراك المرء لإنسانيته تقريباً. ولماذا ينبغي أن نتعلّم ذلك أخيراً؟ في كل التنافر المجنون، بلاهة الحياة المنتفخة، شعرت، في الأقل، بأنني رسوت

بأمان على نفسي. مهما كان تذبذب الناس الآخرين، ظننت نفسي ثابتاً بشكل رهيب. ولكن الآن، ها أنا هنا، أسحب خطاً بالياً، وقد ذهبت مرساتي. لا أدري ما إذا كان الحبل قد قطع أو أنه مجرد تهرّؤ، ولكن مرساتي ذهبت. وأنا أبحر دائراً حول جزيرة لا حديد فيها». وترك قطع الذهب تنزلق من بين أصابعه. وفكر: «ولكن ربما هنا حديدي لصنع مرساة أخرى. هذا صعب وثقيل وقد تتذبذب قيمته بعض الشيء في التيارات الاقتصادية، ولكن كان له، في الأقل، هدف، وهدف واحد فقط. إنه تأكيد مطلق للأمان. نعم، ربما كانت هذه هي المرساة الحقيقية الوحيدة؛ الشيء الوحيد الذي يمكن للإنسان أن يتأكد منه تماماً. تنقبض مخالبه بإحكام على الراحة والأمان. والغريب أن عندي توقاً شديداً إليهما معاً». وحاجج جزء من ذهنه:

- «ولكنّ لرجال آخرين سهماً في هذا الذهب».

- «كلا، يا ضميري العزيز؛ إن عندنا نهاية تمثيل الآن. ولقد وضعت نظارات جديدة؛ لقد أقفلت حول رأسي بالأحرى، وينبغي أن آمر حياتي وفقاً للعالم الذي أراه عبر هذه العدسات الجديدة. إنني أرى أن النزاهة - النزاهة العمومية - ربما تكون سلماً إلى جريمة أثمن، أعلى؛ والصدق وسيلة إلى مداهنة أكثر مكراً. كلا؛ ليس لهؤلاء الرجال حقوق يفرضونها. كان هؤلاء الرجال أكثر حرية مع حقوق الآخرين ليستحقوا الاعتبار». وبقي سعيداً عند الفكرة.

- «إنهم يسرقون، وهكذا ستسرق أسلابهم».

- «ولكنني قلت إنني انتهيت من المراوغات وتخدير الضمير. ما شأني مع الحق، الآن - أو العقل، أو المنطق، أو الضمير؟ أريد هذا المال.

أريد الأمن والراحة، وعندي القوة بين يديّ لآخذهما معاً. قد لايكون ذلك مثال الشباب، ولكنني أظنه كان الإجراء العالمي منذ البدء. لحسن الحظ، ربما، أن العالم لا يديره الشباب. وإضافة إلى ذلك، فهؤلاء الرجال الحمقى لايستحقون أياً منه. إنهم سيرمونه في المواخير عندما نعود إلى بلادنا ثانيةً».

الهوامش

(١) Penny = ١/٢٤٠ من الباون الاسترليني .
(٢) Dona اسبانية = السيدة .

-٨-

خرج القراصنة من پنما المهدّمة. حملوا الكنز كله معهم عبر المضيق على ظهور البغال. وعندما تم الوصول إلى الشارغس أخيراً، كانوا مرهقين؛ ومع ذلك، فقد عين اليوم التالي لقسمة الأسلاب. ومن أجل تسهيل هذه العملية، كان مجموع الكنز قد خزّن في سفينة واحدة، الغليون العظيمة التي كان يقودها دوق ما قبل أن يستولي عليها القراصنة. من هذا المركز كان سيتم توزيع الكنز. كان الكابتن مورغان جيد المعنوية. أخبر الرجال أن الرحلة انتهت، وجاء وقت المتعة. ودحرج أربعين برميلاً خشبياً، تحوي الروم، على الشاطئ.

في وقت مبكر من الصباح، فتح قرصان نعسان عينيه الحمراوين ونظر باتجاه البحر. رأى الماء حيث كانت الغليون سابقاً. نادى رفاقه، وخلال لحظة احتشد الشاطئ برجال خائبين كانو يفتشون الأفق بحزن. كانت الغليون قد لجأت إلى البحر أثناء الليل، وقد ذهبت كل ثروة پنما معها.

كان ثمة ثورة غضب بين القراصنة. سيقومون بالمطاردة، سوف يطاردون الهارب ويعذبون الكابتن مورغان. ولكن لم يكن بمقدورهم المتابعة. كانت السفن الأخرى لاقيمة لها. وكان بعضها مطروحاً على

القعر الرملي وقد انخرقت ثقوب عظيمة في جوانبها؛ وفي الأخريات، كانت الصواري قد نشرت بالتمام تقريباً.

ثم كان هناك شتم وعنف على الساحل. أقسموا على الأخوة باسم الانتقام. خططوا لفظاعة العقاب. وتفرقوا. تضور بعضهم جوعاً؛ وعذب الهنود بعضهم. قبض الأسبان على بعضهم وخنقوهم، وشنقت إنكلترا باستقامة أخلاقية عدداً منهم.

الفصل الخامس

-١-

تحشد جمع متعدد الأنواع والأشكال من السكان على ساحل پورت رويال. كانوا قد جاؤوا لرؤية الكابتن مورغان، الذي كان قد استولى على پنما. كانت هناك سيدات عظيمات؛ يلبسن أنسجة حريرية من الصين لأن هنري مورغان، بعد كل شيء، يتحدر من عائلة راقية - ابن أخي العزيز المسكين نائب الحاكم الذي قُتل. وكان ثمة بحارة لأنه كان بحاراً، وأولاد صغار لأنه كان قرصاناً، وفتيات شابات لأنه كان بطلاً، رجال أعمال لأنه كان ثرياً، عصابات عبيد لأنه كانت عندهم عطلة. كان ثمة عاهرات عصرن على شفاههن عصير عليق، ولهن عيون لاتستقر تبحث عن وجوه الرجال غير المصحوبين؛ وكان ثمة طفلات يرعى قلوبهن الأمل الصغير المقدس في أن الرجل العظيم يمكن بكل بساطة أن ينظر في اتجاههن ويجد الفهم الذي لابد أن يتوق إليه.

كان في الحشد بحارة يستقر فخرهم في حقيقة أنهم سبق أن سمعوا الكابتن مورغان يشتم، وخياطون فصلوا بنطلونات على ساقيه. كان كل رجل سبق أن رأى هنري مورغان وأن سمعه يتكلم، قد جمع مجموعة معجبين. وقد حظي هؤلاء المحظوظون بشيء من العظمة من الاتصال.

راح العبيد الزنوج، وقد تحرروا من عمل الحقول في يوم الاهتمام

والبهجة هذا، يحملقون بعيون منفلتة، ضخمة، في الغليون وهي ترسو في المرفأ. كان أصحاب المزارع يتمشون هنا وهناك بين الناس متحدثين بأصوات عالية عما سيقولونه لهنري مورغان عندما يستأثرون به على العشاء، وبما سينصحونه. كانوا يتحدثون بخفة وبلا مراعاة عنه، كما لو أنه كان من ممارساتهم المألوفة أن يستضيفوا ناهبي پنما. وكان بعض أصحاب الخمارات قد فتحوا براميل خمر على الساحل كانوا يعطون منها مجاناً لكل مَنْ يطلب. ستتحقق أرباحهم فيما بعد، مع العطش الذي كانوا لايفعلون غير إثارته.

على ركيزة صغيرة كان مرافقو الحاكم ينتظرون، شباب وسيمون يضعون أشرطة وأبازيم فضية، مع فرقة من حملة الرماح لإعطائهم مظهراً رسمياً. كان البحر يدفع أمواجاً غير منحطمة، رقيقة، على الساحل. كان الوقت أواخر الصباح، والشمس بوتقة تسطع في السماء، ولكن لم يكن أحد يحس حرارة، لم يكن عند الناس عيون ولا مشاعر لأي شيء عدا الغليون الطويلة التي ترسو في المرفأ.

كان الظهر قد حلّ عندما قرّر هنري مورغان، الذي كان يراقب الساحل من خلال منظار، أن يدخل المدينة. لم يكن الإعداد المسرحي مجرد خيلاء. ففي الليل كان زورق صغير قد جاء مصحوباً بأخبار أنه يمكن أن يلقى عليه القبض لمحاربته أعداء الملك. كان هنري يحسب أن موافقة الشعب سترجّح الموقف لصالحه. كان قد راقب طوال الصباح التأييد يتصاعد فيما يزداد الجمهور استثارةً.

ولكن زورقه الطويل قد أنزل الآن واتخذ البحارة مواضعهم. وفيما اقترب من الساحل، انفجر الغوغاء المحتشدون في صراخ، ثم هتاف مدوٍ

موزون. رمى الناس قبعاتهم، تقافزوا، رقصوا، كشروا، حاولوا أن يتحدثوا زاعقين أحدهم على الآخر. وعند الركيزة، كانت أيد قد امتدت لتمسك بهنري قبل أن يخرج من الزورق. وعلى التوّ كان قد صعد، وشكّل حملة الرماح الموكب الرسمي، وبأسلحتهم المنخفضة شقوا ممراً غير منتظم بين المشاهدين المتطلعين إلى أمام، المتعاركين.

ألقى هنري نظرة سريعة، بإدراك، على الجنود الذين كانوا يحيطون به، وسأل الفارس الذي كان يسير إلى جانبه.

- «أأنا رهن الاعتقال؟» فضحك الرجل:

- «رهن الاعتقال؟ كلا! ليس بمقدورنا أن نعتقلك إذا أردنا. سيمزقنا الرعاع إرباً. ولو أننا نجحنا في الاعتقال، فإنهم سينتزعون حجارة السجن بأصابعهم ليحرروك. إنك لاتدرك ما أنت بالنسبة لهؤلاء الناس، يا سيدي. لم يكونوا يتحدثون، منذ عدة أيام، عن شيء غير مجيئك. ولكن الحاكم يريد أن يراك على الفور، يا سيدي. ولم يستطع أن يأتي بنفسه إلى هنا لأسباب واضحة».

ووصلوا إلى قصر الحاكم.

قال الحاكم موديفورد، عندما اختليا معاً:

- «أيها الكابتن مورغان، لا أدري ما إذا كانت أخباري جيدة أم سيئة. لقد وصلت كلمة عن انتصارك إلى آذان الملك. وقد أُمرنا كلانا بالتوجه إلى إنكلترا». فبدأ هنري يقول:

- «ولكنّ عندي تفويضاً -».

اهتزّ الرأس والكتفان السمينتان للحاكم في سلبية حزينة:

- «ما كنت لأذكر، أيها الكابتن، التفويض، لو كنت في مكانك،

حتى إذا كنت أنا نفسي قد أمرت به. ثمة عبارات في تفويضك قد تجعلنا كلينا في وضع حرج. وكما هو وضع الأمور، فلربما نشنق: ولكنني لا أدري - لا أدري. بالطبع، هناك سلام بين أسبانيا وإنكلترا - ولكن لاتوجد مشاعر طيبة، لا مشاعر طيبة على الإطلاق. إن الملك غاضب علينا، ولكنني أظن أن بضعة آلاف من الپاونات، لو وزعت في الأماكن الصحيحة، قد تسترضيه ولو كان يستعر غضباً. إن الشعب الإنكليزي مملوء بهجةً من الانتصار. لاتقلق لذلك، أيها الكابتن؛ أنا بالتأكيد لست قلقاً». ونظر بحدّة في عيني هنري:

- «أرجو، يا سيدي، أن بمقدورك أن تهيئ هذه البضعة آلاف عندما يحين الحين». فقال هنري، رسمياً:

- «لقد حاولت أن أخدم روح رغبة سيدي، لا اللعبة الظاهرية لسياساته»، ثم أضاف:

- «بالتأكيد، أيها السير تشارلس، عندي ما يكفي لشراء رضاء الملك حتى إذا كلف نصف مليون. يقولون إن الملك إنسان طيب وحَكَمٌ يرجع إليه لتشخيص النساء البديعات، وأنا لا أعرف قط أحداً بهذه الأوصاف لا يحتاج إلى المال».

فقال الحاكم بعدم الارتياح:

- «هناك شيء آخر، يا كابتن. لقد قتل عمك قبل بعض الوقت. إن ابنته هنا في بيتي. كان السير إدوارد بلا مال تقريباً عندما توفي. طبيعي أننا، كما تدرك، نود أن نجعلها تبقى معنا دائماً، ولكنني لا أظنها سعيدة تماماً. أظنها تتآكل كمداً مما تراه إحساناً. ستهتم أنت برفاهها، بالطبع. لقد مات السير إدوارد بشرف وقد أطراه الملك، ولكن،

بعد كل شيء، فإن مدائح التاج لايمكن إنفاقها». فابتسم هنري:

- «إن عمي قد مات بشرف. أنا واثق أن هذا العم جعل كل حركة في حياته - نعم، حتى قصّ أظافره - كما لو كانت طبقة النبلاء كلها تنظر إليه، جاهزة للإدلاء بملاحظات انتقادية. كيف مات؟ وهو يلقي خطبة محسوبة، قصيرة. أو، وشفتاه النحيفتان اللعينتان مضغوطتان معاً كما لو كان لايوافق على الموت لأسباب اجتماعية؟ آه، ذلك الرجل! كانت حياته جزءاً بسيطاً، بديعاً، وقد كان مخلصاً جداً لها».

كان هنري يتكلم ضاحكاً:

- «كنت أكره عمي. أظنه كان يخيفني. كان أحد الناس القلائل الذين خشيتهم. ولكن خبرني كيف مات».

- «لقد هُمس بأنه نخر مرة واحدة. وقد تابعتُ الشائعة فوجدت أن خادماً ما، كان مختبئاً وراء ستار. هو الذي أعلن عنها دون شك».

- «سيئ جداً! سيئ جداً! أي عار قاس أن تدمر حياة كاملة بزفرة. ولكنني لم أعد أخشاه بعد. لو أنه نخر فقد كانت فيه إنسانية، وهو ضعيف. إنني أبغضه، ولكنني أحبه من أجل ذلك. أما فيما يتعلق بابنة عمي، فسآخذها عن يديك، لك أن تطمئن إلى هذا. إنني أتذكرها بشكل غائم كفتاة صغيرة طويلة لها شعر أصفر - فتاة صغيرة كانت تعزف بشكل رديء على القيثارة؛ بدا عزفها مقيتاً لي على الأقل، مع أنه كان جيداً جداً». وجاء موديفورد إلى موضوع كان يحتاج إلى مقدمة.

- «لقد سمعت أنك قابلت القديسة الحمراء في پنما وأطلقتها لقاء فدية. كيف حدث ذلك؟ قيل إنها لؤلؤة الأرض». فاحمرّ هنري، وقال:

- «أوه، نعم، بدا لي أن الأسطورة تزيدها حسنا. إنها جميلة

المظهر، بالتأكيد؛ ولا أقول إن بعض الرجال لن ينصعقوا معها. ولكنها ليست من نوع النساء اللاتي أحب لنفسي. لقد وجدتها حرة نوعاً ما في الحديث، أتعرف - تتحدث عن أشياء غير أنثوية، في رأيي. وإضافة إلى ذلك، فهي تركب الخيل فارجة ساقيها، وتبارز. باختصار، إنها تفتقر إلى الخفر الذي اعتدنا على رؤيته لدى النساء حسنات التربية».

- «ولكن كعشيقة - بالتأكيد، كعشيقة؟»

- «حسناً، كما ترى، لقد تلقيت خمسة وسبعين ألف قطعة من ذوات الثمانية عنها. في عقلي، هذا المبلغ أعلى من أية امرأة ولدت على الإطلاق».

- «فدية بهذه الضخامة؟ كيف جرى أنها جلبت هذا المقدار؟»

- «حسناً، عند التحقق، وجدت أنها وارثة. وكما قلت، فهي جميلة، ولكن مع ذلك - فالأسطورة كانت تزيد جمالها».

في هذه الأثناء، في غرفة أخرى، كانت الليدي موديفورد تتحدث بلهفة إلى إليزابث.

- «أجد أنني ينبغي أن أتحدث إليك كأم، يا عزيزتي، أم تعنى بمستقبلك. لاشك على الإطلاق بأن ابن عمك سيبحث عنك؛ ولكن أستكونين سعيدة على هذا النحو؟ - أعني، مجرد التعلق بعقدة كيس نقوده؟ انظري إليه في ضوء آخر. إنه ثري، مغمور بالألطاف. أنت تفهمين، يا عزيزتي، أنه يستحيل أن يكون المرء مراعياً بهذا الشأن، ولا أدري إن كان سيكون مرغوباً حتى إذا كان ممكناً. لم لا تتزوجين ابن عمك؟ إن لم يتحقق أي شيء من ذلك، فإنك ستكونين المرأة الوحيدة على الأرض التي لايمكنها أن تنتقد أقرباء زوجها».

فعارضت إليزابث باعتدال:

- «ولكن بماذا توحين، ياليدي موديفورد؟ أليس زواج أبناء العمومة نوعاً من الإجرام؟»

- «أبداً، يا عزيزتي. ليس ثمة في الكنيسة أو في الدولة ما يمنعه، وأنا نفسي في صالح زواج كهذا. لقد أمر السير تشارلس وابن عمك بالسفر إلى انكلترا. يظن السير تشارلس أن لقب فارس يمكن أن يكون قد هيئ. وعندئذ ستكونين الليدي مورغان، وستصيرين ثرية».

فاستغرقت إليزابث في التفكير، وقالت:

- «لم أره إلا مرة واحدة، لهنيهةٍ فقط، ثم لا أظن أنني أحببته تماماً. كان منفعلاً ومحمراً. ولكنه كان مراعياً جداً للاحترام ورقيقاً. أظنه كان يريد مصادقتي، ولكن أبي - تعرفين كيف كان بابا. ربما سيصير زوجاً جيداً».

- «يا عزيزتي، إن كل رجل يصير زوجاً جيداً لو جرت العناية به جيداً».

- «نعم، ربما كان ذلك أفضل مخرج. لقد تعبت من كوني مثار شفقة على فقري. ولكن مع هذه الشعبية الجديدة، أتظنين أنه سيلاحظني؟ قد يكون أكثر زهواً من أن يتزوج ابنة عم لامال عندها».

فقالت الليدي موديفورد بثبات:

- «يا عزيزتي إليزابث، ألم تعرفي بعد أن كل امرأة تقريباً يمكن أن تتزوج أي رجل تقريباً ما لم تتدخل امرأةُ أخرى؟ وسأرتّب الأمور بحيث لن تكون واحدة في طريقك. ينبغي أن تثقي بي في هذا الصدد».

حسمت إليزابث أمرها:

- «أعرف، سأعزف له. لقد سمعت كيف تؤثر الموسيقا في هؤلاء الرجال القساة. سأعزف له مقطوعاتي الجديدة - (لقاء الجن) و (ليحمل الله الروح المتعبة إلى الراحة)».

فانفجرت الليدي موديفورد:

- «كلا، كلا، ما كنت لأفعل ذلك لو كنت مكانك. قد لا يحب الموسيقا البديعة. ثمة طرق أفضل».

- «ولكنك قلت إن هاتين المقطوعتين جميلتان جداً، قلت ذلك بنفسك. أولم أقرأ كيف ترقق الموسيقا الرجال بحيث يكاد لا يكون في استطاعتهم تحملها؟»

- «حسناً جداً، يا عزيزتي؛ اعزفي له، إذن، إن كنت تريدين. ربما كان - ولكن اعزفي له. إن أموراً كهذه ربما كانت تجري في العائلة - أعني: حب الموسيقا. بالطبع، كما تعرفين، يجب أن تعجبي به وأن تخشيه قليلاً في الوقت نفسه. اجعليه يشعر أنك مخلوق صغير عاجز مسكين مطوقة تماماً بالنمور. ولكنك ينبغي أن ترتبي ذلك بطريقتك. إن عندك منطلقاً جيداً، إذ يمكنك أن تلجئي إليه للحماية منذ البدء».

وتنهدت:

- «لست أدري ما كان ينبغي أن نفعل دون حماية. لست أدري متى كان السير تشارلس سيخطبني. لقد كان العزيز خائفاً حتى الموت من المشروع. عصر ذات يوم جلسنا على مصطبة ورحت أعاين المنظر باحثة عن شيء يفزعني. لابد أننا بقينا هناك ثلاث ساعات قبل أن تنساب حية مائية صغيرة مع الممشى وأرعبتني لتلقيني إلى ذراعيه. كلا، لا أظن أن بمقدورنا تدبير حالنا دون حماية. كان لدى السير

تشارلس رجل في الحديقة طوال الوقت يبحث عن الأفاعي. وهل تعرفين؟
- لقد كنت أحب الأفاعي دائماً. كان عندي ثلاث منها كحيوانات تدليل عندما كنت فتاة صغيرة».

جمعتهما الليدي موديفورد في الصباح التالي معاً، ثم تركتهما منفردين بأسرع ما استطاعت تدبير ذلك بلياقة. نظرت إليزابث إلى ابن عمها بخوف، وقالت متلعثمة:

- «لقد قمت بأشياء فظيعة عظيمة في المحيط، يا كابتن مورغان - يكفي التفكير فيها ليجعل المرء يتجمد».

- «لم تكن الأفعال عظيمة، ولا مروّعة جداً. لاشيء بمثل جودة روايته أو بمثل سوئها». وفكّر: «لقد كنت مخطئاً بشأنها. مخطئاً جداً. إنها ليست متكبرة قط. لابد أنه أبوها - إبليس - الذي أعطاني انطباعاً خاطئاً عنها. إنها لطيفة تماماً».

- «أنا واثقة بأن أفعالك كانت عظيمة، لو أن تواضعك يسمح لك بالاعتراف بذلك»، كانت تقول برزانة:

- «أتدري، كنت أرتجف من القصص التي كانت تروى عنك، وأرجو ألا تكون في عوز أو شدة».

- «حقاً؟ لم ذلك؟ لم أتصور قط أنك لاحظتني». فامتلأت عيناها بالدموع:

- «كانت عندي مصاعبي أيضاً».

- «أدري. لقد أخبروني عن مشكلتك، وقد أسفت لك، يا بنة عمي الصغيرة إليزابث. أرجو أنك ستدعينني أساعدك في مصاعبك. ألن تجلسي هنا إلى جانبي، يا إليزابث؟»

نظرت إليه في خجل، وقالت:

- «سأعزف لك، إن كنت تحب».

- «نـ... عـ... م - نعم، اعزفي».

- «الآن، هذه هي (لقاء الأقزام). استمع! يمكنك أن تسمع أقدامهم الصغيرة تعدو سريعة خفيفة الوقع على العشب. يقول الجميع إنها حلوة وبديعة». واشتغلت أصابعها أصولياً على الأوتار.

وجد هنري يديها بديعتين فيما كانتا ترفرفان. نسي الموسيقا وهو يراقب يديها. كانتا مثل فراشتين بيضاوين صغيرتين، مرهفتين وقلقتين للغاية. إن المرء ليتردد في مسّهما لأن تداولهما بالأيدي قد يخربهما، ومع ذلك فالمرء يريد التربيت عليهما. كانت القطعة تنتهي بنغمات جهير[1] عالية. ها قد انتهت الآن. عندما توقف آخر وتر عن اهتزازه، علّق:

- «إنك تعزفين بفائق - الدقة، يا إليزابث». فقالت:

- «أوه، إنني أعزف الأنغام كما تأتي. لقد كنت أعتقد دائماً أن المؤلف يعرف شغله أكثر مني».

- «أدري، وإن سماعك لمريح. إنه للطيف معرفة أن كل شيء سيكون في موضعه الصحيح - حتى النوتات. لقد استأصلت حرية بغيضة معينة سبق أن لاحظتها في عزف بعض الشابات. إن ذلك النوع لطيف جداً وعفوي وإنساني، بالطبع، ولكنه يميل إلى عدم الاهتمام لصالح العاطفة. نعم، لقد صرت - مع تقدم العمر - أنال الرضاء من رؤية الشيء الذي توقعت أن يقع. إن الأمور غير الأكيدة تذهل. لم يعد للمصادفة قوة الشد التي كانت لها عليّ فيما مضى. لقد كنت أحمق، يا إليزابث. ذهبت أبحر وأبحث عن شيء - حسناً، شيء لا وجود له، ربما.

والآن، بعد أن فقدت رغباتي غير المسماة، فلست أسعد، ولكن ثمة قناعة أكثر فيّ». فعلقت:

- «يبدو هذا حكيماً ودنيوياً، وساخراً قليلاً».

- «ولكنها الحكمة، ثم إن الحكمة خبرة تجول في عقل منظم، رافسة فوق الطوابير. وكيف يمكنني أن أكون غير منظم. والسخرية هي الطحالب التي تتجمع حول صخرة متدحرجة». فأيدت:

- «ذلك حاذق، على أيّ حال. أتصوّر أنك قد عرفت كثيرات من أولئك الشابات اللائي تحدثت عنهن».

- «أيّ شابات، يا إليزابث؟»

- «اللائي يعزفن بشكل سيئ».

- «أوه! نعم، لقد قابلت بعضهن».

- «وهل - هل أحببتهن؟»

- «لقد تحملتهن لأنهن كن صديقات أصدقائي».

- «هل وقعت إحداهن في حبك؟ أعرف أنني لست رقيقة، ولكنك ابن عمي، وتقريباً - أخي».

- «أوه، قال بعضهن إنهن عشقنني - ولكنني أتصور أنهن كن يردن مالي».

- «بالتأكيد لا! ولكنني سأعزف لك مرة أخرى. ستكون هذه مقطوعة حزينة - (ليحمل الله الروح الحزينة إلى الراحة). لقد كنت اعتقد على الدوام أن من الأفضل أن تكون ثمة بعض الجدية مع الموسيقا الخفيفة». فقال:

- «نعم، نعم، هو كذلك».

ومرة أخرى اشتغلت أصابعها على الأوتار. وقال هنري:

- «إنها جميلة جداً، وحزينة. أحببتها جيداً بشكل مدهش، ولكن ألا، يا إليزابث - ألا تعتقدين أن الوتر السادس من الأخير ينبغي أن يكون أشد قليلاً؟»، فصاحت:

- «أوه، ما كنت لأمسه مقابل مال الدنيا! قبل أن نأتي من إنكلترا، جعل أبي رجلاً - رجل قيثارة - يستعرض الشيء كله بشكل كامل. ما كنت لأشعر بشكل طبيعي مع بابا لو تلوعب به. كان يكره الذين يعبثون بالأشياء».

جلسا صامتين بعد ثورتها، ولكنها نظرت أخيراً بتوسل في عينيه.

- «لست غاضباً عليّ بشأن الوتر، يا بن العم هنري، ألست كذلك؟ أنا - مجرد عندي مشاعر عميقة كهذه. لا أستطيع الامتناع عن ذلك».

- «كلا، بالطبع لست غاضباً». كانت صغيرة جداً وعاجزة جداً، فيما فكر.

- «إلى أين ستذهب، الآن وقد صرت ثرياً وشهيراً ومكسواً بالأمجاد؟»

- «لست أدري. أريد أن أعيش في جو من الأمور الأكيدة». فهتفت:

- «عجباً، على هذا النحو بالضبط أفكر. لابد أننا متشابهان نوعاً ما. إن الأشياء تأتيك إن لم تذهب باحثاً عنها، كما أقول. وإنني أدري دائماً تقريباً ما الذي سيحدث لي، لأنني أتمناها ثم أجلس مستقرة». فقال هنري:

- «نعم». قالت، ومرة أخرى ترقرقت الدموع في عينيها:

- «كانت وفاة بابا صدمة عظمى. إنه لأمر رهيب أن يترك المرء وحيداً وتقريباً - بلا أقارب أو أصدقاء. طبيعي أن آل موديفورد كانوا لطيفين جداً معي، ولكن ليس بمقدورهم أن يصيروا كأهلي. أوه، أيها العزيز! لقد كنت وحيدة للغاية. لقد سررت عندما جئت، يا بن العم هنري، ولو لمجرد أننا من دم واحد». كانت عيناها تلتمعان بالدموع، وشفتها السفلى ترتعش بعنف. فقال هنري مهدئاً:

- «ولكن يجب ألا تبكي. لم تعودي بحاجة للقلق بعد اليوم، يا إليزابث. إنني هنا لأرفع المصاعب عن كتفيك. سأساعدك وأعنى بك، يا إليزابث. إنني مندهش كيف احتملت الحزن الذي وقع عليك. لقد كنت شجاعة إذ أبقيت رأسك مرتفعاً جداً عندما كان البؤس يشد على روحك». فقالت:

- «لقد كانت موسيقاي عندي. كان بمقدوري اللجوء إلى موسيقاي عندما كان الحزن مريراً جداً».

- «ولكن الآن، يا إليزابث، إنك لا تحتاجين حتى إلى القيام بذلك. ستأتين معي إلى إنكلترا عندما أذهب، وسترتاحين وتكونين في أمان معي دوماً.

كانت قد قفزت مبتعدة عنه. فصاحت:

- «ولكن ما الذي تشير إليه؟ ما هذا الشيء الذي تقترحه عليّ. أليس هو نوعاً من أنواع الخطيئة - نوعاً من جريمة - أن يتزوج أبناء العمومة؟»

- «يتزوجون؟» فاحمرت، والتمعت عيناها مرة أخرى بدموعها السريعة:

- «أوه! أوه! إنني خجلة. لقد عنيت الزواج، ألم تعنه؟ إنني خجلة». كان انفعالها مثيراً للشفقة. وفكّر هنري:

- «بعد كل أمر، لم لا؟ إنها جميلة، وأنا متأكد من عائلتها؛ وإضافة إلى ذلك، فهي بالأحرى رمز لهذا الأمان الذي كنت أبشر به. يمكنني أن أكون واثقاً من أنني لن أفعل شيئاً متحرراً جداً لو كانت زوجتي. إنني أظن حقاً أنني بحاجة إلى الأمان. وإضافة إلى ذلك»، وانتهى تفكيره، «لا يمكنني حقاً أن أدعها تعاني كثيراً».

- «أوه، كنت أعني الزواج بالتأكيد. ماذا يمكن أن تكوني تصورت أنني أقصد؟ كل ما هنالك أنني أخرق وفظ في هذا الشأن. لقد أزعجتك وآلمتك. ولكن، يا إليزابث العزيزة، ليس ثمة جريمة أو خطيئة في ذلك. فالعديد من أبناء العمومة يتزوجون. ونحن نعرف كل ما يتعلق بأحدنا الآخر، وعائلتنا واحدة. ينبغي أن تتزوجيني، يا إليزابث. إنني أحبك حقاً، يا إليزابث». فقالت متلعثمة:

- «أو... وه! لا يمكنني التفكير في ذلك. أعني، إنني - مريضة؛ أعني - إن رأسي يدوّم. إنك تتصرف سريعاً جداً، يا هنري - بشكل غير متوقع للغاية. أوه، أرجوك دعني أذهب. ينبغي أن أتحدث في الأمر إلى الليدي موديفورد. إنها ستعرف ماذا ينبغي أن أقول.

الهوامش

(١) bass

-٢-

كان الملك تشارلس الثاني[١] وجون إيڤيلين[٢] يجلسان في مكتبة صغيرة. كانت نار براقة تطقطق على المستوقد، رامية ومضاتها على الكتب التي تغطي الجدران. وعلى طاولة بجانب الرجلين كانت ثمة زجاجات وكؤوس. كان الملك يقول:

- لقد رسمته فارساً عصر اليوم. حصل على عفو ولقب فارس لقاء ألفي پاون». فتمتم جون إيڤلين:

- «حسناً، ألفي پاون... سيبارك بعض التجار، ربما، فروسيته».

- «ولكن ليس ذلك هو الموضوع، يا جون. كان بمقدوري أن أحصل على عشرين. فقد أخذ نحو مليون من پنما».

- «آه، حسناً؛ ألفا پاون -». فقال الملك:

- «لقد أمرته أن يأتي هنا الليلة. إن هؤلاء البحارة والقراصنة لديهم أحياناً قصة أو قصتان جديرتان بالحكي. سيحبطك. إنه - ممل، أظن أن هذه هي الكلمة الصحيحة. يتولد لديك الانطباع بأن كتلة عظيمة مزروعة أمامك؛ وهو يتحرك كما لو كان يدفع قفصه غير المرئي الخاص أمامه». فاقترح جون إيڤلين:

- «يمكنك أن تخلق لقباً. إنها لتبدو مضيعة أن تترك مليوناً تمرق

دون حتى المحاولة». وأعلن عن مقدم السير هنري مورغان.

- «تقدم داخلاً، أيها السير. تقدم!» لاحظ الملك أنه يحمل بيده كأس نبيذ. وبدا هنري مرتعباً. فابتلع النبيذ. ولاحظ الملك:

- «عمل جيد منك في پنما. كان حرقها الآن أفضل منه فيما بعد».

- «لقد فكرت في ذلك وأنا أولع المشعل، يا مولاي. إن هؤلاء الأسبان الخنزيريين يريدون الغلبة على العالم».

- «أنت تعرف، أيها الكابتن، أن القرصنة - أو، إن شئنا الرقة، قطع الطرق - كانت أمراً جيداً لنا، وأمراً سيئاً لأسبانيا. ولكن المؤسسة تتجه إلى أن تصير إزعاجاً. إنني أصرف أكثر من نصف وقتي في تقديم الاعتذارات لسفير أسبانيا. إنني عازم على تكليفك بنيابة حكومة جامايكا».

- «مولاي!»

- «بلا شكر! إنني أتصرف بناء على توجيه حكمة سائرة. ينبغي أن تتوقف القرصنة الآن. لقد لعب هؤلاء الرجال في الحروب الصغيرة زمناً طويلاً».

- «ولكن، يا مولاي، كنت أنا نفسي قرصاناً. أتريدني أن أشنق رجالي بالذات؟»

- «ذلك ما لمحت إليه، ياسيدي. من يستطيع تعقّبهم خيراً منك أنت الذي تعرف كل أماكن تردّدهم؟»

- «لقد قاتلوا معي، يا مولاي».

- «آه، ضمير؟ لقد سمعت أن بمقدورك أن تتصرف كما تشاء مع ضميرك».

- «ليس الضمير، يا مولاي، بل الشفقة». فقال الملك لاذعاً.

- «إن الشفقة لدى الخادم العمومي أو اللص في غير موضعها. إن الرجل يصنع ما ينفع صنعه. لقد عرضت أنت نفسك اثنتين من هذه الحالات. دعنا نراك تشتغل على الثالثة».

- «أتساءل إن كنت أقدر». فتدخل جون إيڤلين:

- «إذا كنت تتساءل، فأنت تقدر».

تغيرت حال الملك. فقال:

- «تعال! اشرب! ينبغي أن تأخذ الحياة، وربما لاحقاً، الغناء. احك لنا حكاية، أيها الكابتن، واشرب بينما تحكيها. إن النبيذ يضيف حروفاً كبيرة وعلامات إلى الحكاية الجيدة - الحكاية الحقيقية».

- «حكاية، يا مولاي؟»

- «بالتأكيد. قصة ما عن فتيات المستعمرات؛ فصلاً صغيراً ما في القرصنة - لأنني واثق أنك لم تسرق الذهب فقط». وأشار إلى خادم أن يبقي كأس هنري مترعة.

- «لقد سمعت عن امرأة معينة في پنما. خبرنا عنها».

أفرغ هنري كأسه. كان وجهه يحمر. وقال:

- «هناك حكاية عنها. كانت حسناء، ولكنها كانت أيضاً وارثة. أعترف، إنني حابيتها. سترث مناجم فضة. عرض زوجها مئة ألف قطعة من ذوات الثماني عنها. يريد أن يضع يده على المناجم. هنا كان السؤال، يا مولاي، وإنني لأتساءل كم من الرجال سبق أن ووجهوا بسؤال مثله؟ أفأحصل على المرأة أم على المئة ألف؟»

مال الملك إلى أمام في كرسيه:

- «أيهما اخترت؟ خبرني سريعاً». فقال هنري:

- «بقيت في پنما بعض الوقت. ما كنت جلالتك لتفعل لو كنت مكاني؟ لقد حصلت على الاثنين. وربما حصلت على أكثر من ذلك. من يدري إن لم يكن ابني سيرث مناجم الفضة أخيراً». فصاح الملك:

- «كنت سأفعل ذلك. إنك على حق. كنت سأفعل ذلك بالضبط. كان ذلك عملاً حاذقاً، يا سيدي. نخب، يا كابتن - لبعد النظر. إن قيادتك، يا سيدي، تمتد إلى شؤون أخرى غير أمور الحرب، كما أرى. إنك لم تهزم في معركة، فيما يقولون؛ ولكن خبرني، يا كابتن، أهزمت قط في الحب. إنه لمنظر جيد - منظر غير مألوف - عندما يعترف امرؤ بأنه هزم في الحب. إن الاعتراف مناقض تماماً جداً لكل غريزة ذكورية. كأساً أخرى، يا سيدي، وخبرنا عن هزيمتك».

- «ليس على يد امرأة، يا مولاي - ولكنني هزمت مرة من قبل الموت. ثمة أمور تسفع الروح بحيث يستمر ألمها طوال الحياة. لقد سألت عن القصة. في صحتك، يا مولاي.

«ولدت في ويلز، بين الجبال. كان أبي رجلاً نبيل المحتد. ذات صيف، عندما كنت غلاماً، جاءت أميرة فرنسية صغيرة إلى جبالنا طلباً للهواء. كان عندها رَكْبٌ صغير، ولما كانت حيوية لا تستقر وحاذقة، فقد أحرزت بعض الحرية. ذات صباح صادفتها حين كانت تستحم وحيدة في النهر. كانت عارية ولا تخجل. خلال ساعة من الوقت - وهكذا هو دم جنسها العاطفي - كانت ترقد بين ذراعيّ. مولاي، في كل جولاتي، في النساء الرائعات اللاتي رأيتهن والمدن التي استوليت عليها، لم تكن ثمة متعة مثل أيام ذلك الصيف البهيج. عندما كانت تتمكن من الهرب،

كنا نلعب معاً في التلال كالآلهة. ولكن هذا لم يكن كافياً. أرادت أن تتزوج. كانت ستتنازل عن مرتبتها لنعيش بمكانٍ ما في أميركا.

«ثم جاء الخريف. قالت ذات يوم: [إنهم متهيِّئون ليأخذوني بعيداً، ولكنني لن أذهب]. وفي اليوم التالي لم تأت إليّ. في المساء ذهبت إلى نافذتها فرمت لي رسالة صغيرة: [أنا محبوسة. لقد جلدوني].

«عدت إلى البيت. ماذا كنت أستطيع أن أفعل غير ذلك؟ ما كان بمقدوري أن أقاتلهم، الجنود الأقوياء الذين كانوا يحرسونها. في وقت متأخر من تلك الليلة كان ثمة دق على الباب وصراخ: [أين يمكن الحصول على طبيب؟ بسرعة! لقد سمّمت الأميرة الصغيرة نفسها]».

رفع هنري عينيه. كان الملك يبتسم بسخرية. كان جون إيفلين ينقر المنضدة بأصابعه.

- «نعم؟»، قال الملك: «نعم»، وضحك خافتاً. فأعول هنري:

- «آه، إنني عجوز، عجوز. إنها كذبة. كانت طفلة سعيدة، ابنة صاحب كوخ».

قام متعثراً ليقف وتحرك نحو الباب. كان العار يشتعل في وجهه.

- «يا كابتن مورغان، لقد نسيت نفسك».

- «نسيـ... تُـ... نفسي؟»

- ثمة بعض الآداب الصغيرة. يتطلب العرف أن تقدمها لشخصنا».

- «أستميحك العذر، يا مولاي. أرجو السماح بالانصراف. إنني - إنني مريض». وانحنى خارجاً من الغرفة.

كان الملك يبتسم عبر نبيذه.

- «كيف يمكن، يا جون، أن يكون جندي بهذه العظمة أحمق إلى هذا الحد؟»

فقال جون إيفلين:

- «كيف يمكن أن يصير غير هذا؟ لو لم يكن الرجال العظماء حمقى، لكان العالم قد دمر منذ زمن طويل. كيف يمكن أن يصير غير هذا؟ إن الحمق والرؤية المشوشة أساسا العظمة».

- «أتعني أن رؤيتي مشوشة؟»

- «كلا، لا أعني ذلك».

- «إذن فأنت توحي...»

- «أتمنى أن أواصل مع هنري مورغان. إن عنده موهبة للقرصنة مما يجعله عظيماً. إنك تتصوره على الفور حاكماً عظيماً. تجعله نائب حاكم. في هذا تكون شبيهاً بالعامة. إنك تعتقد لو أن امرءاً فعل شيئاً بشكل جيد، فلابد أن يكون قادراً على فعل كل الأشياء بالجودة ذاتها. لو أن رجلاً يكون بارز النجاح في خلق صف لا ينتهي من اللوازم الميكانيكية ذات بعض الجودة، فأنت تتصوره قادراً على قيادة الجيوش أو إدارة الحكومات. إنك تظن أنك لكونك ملكاً جيداً لابد أن تكون بالجودة نفسها عاشقاً - أو على العكس».

- «على العكس؟»

- «ذلك بديل فكه، يا مولاي. إنها حيلة كلامية للحصول على بسمة - لاغير».

- «آها. ولكن مورغان وحماقته -».

- «هو أحمق بالطبع، يا مولاي، وإلا لكان يقلب التربة في ويلز أو

يجر العربات في المناجم. أراد شيئاً، وكان من البلاهة بحيث ظن أن بمقدوره الحصول عليه. وبسبب بلاهته حصل عليه - جزء منه. إنك تذكر الأميرة».

كان الملك يبتسم مرةً أخرى:

- «لم أعرف قط رجلاً يقول الحقيقة لامرأة أو عنها. لِمَ هذا، يا جون؟»

- «ربما، يا مولاي، لو أنك استطعت أن تفسر الخدش الصغير تحت عينك اليمنى لأمكنك أن تفهم. حسناً، لم يكن هذا الخدش موجوداً ليلة أمس، وإن له على وجه الدقة مظهرَ...»

- «نعم... نعم.... خادم أخرق. دعنا نتحدث عن مورغان. إن عندك طريقة، يا جون، في أن تكون مهيناً بشكل سري. في بعض الأحيان فإنك حتى لاتعي إهاناتك. إنها مسألة ينبغي عليك التخلص منها لو أنك أردت البقاء في البلاطات لأي مدة من الزمن».

الهوامش

(١) Charles II: ولد سنة ١٦٣٠، ملك انكلترا واسكتلندا وإيرلندا من ١٦٦٠ إلى ١٦٨٥ حين توفي. شهد حكمه التوسع الاستعماري الإنكليزي الأول.

(٢) John Evelyn: (١٦٢٠ - ١٧٠٦)، كاتب، اشهر كتبه Diary (اليوميات) التي بدا بتدوينها في سن الحادية عشرة ونشرت أول مرة سنة ١٨١٨، وتعدّ مصدراً مهماً لدراسة إنكلترا خلال القرن السابع عشر.

- ٣ -

جلس السير هنري مورغان على منصة القاضي في پورت رويال. أمامه، على الأرض، كانت تمتد قطعة من نور الشمس الأبيض مثل قبر مُعْتم. في كل أنحاء الغرفة كانت أوركسترا من الذباب تغني سيمفونيةَ سأمِها. كانت أصوات المداولات الرتيبة مجرد أدوات أعلى صوتاً من اللحن المفرد المهمهم. كان موظفو المحكمة يروحون ويجيئون نعسانين، والقضايا تتحرك.

- «كان الخامس عشر من الشهر، يا سيدي. ذهب ويليامسون إلى مِلْك كارترايت من أجل تقرير - التقرير لغايته الشخصية، يا سيدي - ما إذا كانت الشجرة تنتصب كما جرى الوصف. وأثناء وجوده هناك حصل - »

وجرى غناء القضية إلى نتيجتها الرتيبة. تحرك السير هنري قليلاً، من وراء منضدته العريضة، بنعاس. والآن جلب الحرس متشرداً كئيباً، يرتدي أسمالاً من شراع قديم.

- «متهم بسرقة أربع قطع بسكويت ومرآة من فلان بن فلان، يا سيدي».

- «الدليل؟»

- «جرى تفتيشه، يا سيدي».
- «هل سرقت، أو لم تسرق، أربع قطع بسكويت ومرآة؟»
ازداد وجه السجين كآبة.
- «أخبرتهم». فحثّه الحارس:
- «يا سيدي».
- «يا سيدي».
- «لماذا سرقت هاتين الفقرتين؟»
- «كنت أريدها».
- «قل يا سيدي».
- «يا سيدي».
- «ماذا أردت بها؟»
- «أردت البسكويت لكي آكله».
- «يا سيدي».
- «يا سيدي».
- «والمرآة».
- «أردت المرآة لكي أنظر إلى نفسي فيها».
- «يا سيدي».
- «يا سيدي».
اقتادوا الرجل إلى محبسه. وجلب الحرس الآن امرأة شاحبة، نحيلة.
- «متهمة بالبغاء والتسكع، يا سيدي». فقال السير هنري منزعجاً:
- «التسكّع غير قانوني، ولكن منذ متى صرنا نعاقب الناس على البغاء؟»

- «يا سيدي، إن طبيعة هذه المرأة - الصحة العمومية تقتضي - كنا نظن أن القضية ستفهم».

- «آه، فهمت. يجب أن تحبس. خذوها بعيداً بسرعة».

بدأت المرأة تبكي مقطبةً.

أراح السير هنري جبينه على يديه. لم يرفع بصره إلى السجينين التاليين.

- «متهمان بالقرصنة في البحار العالية، يا سيدي؛ بإقلاق سلم الملك؛ بعمل الحرب ضد بلاد صديقة».

نظر السير هنري نظرة خاطفة إلى السجينين. كان أحدهما رجلاً صغيراً مكوراً له عينا رعب، والآخر شخصاً موخوطاً بالشيب نحيلاً ذهبت إحدى ذراعيه.

- «ما الدليل على السجناء؟»

- «خمسة شهود، يا سيدي».

- «إذن؟ ما ادعاؤكما!»

وضع الرجل الطويل ذراعه السليمة حول كتفي رفيقه.

- «نقر بأننا مذنبان، يا سيدي». فصاح السير هنري في دهشة:

- «تقران بالذنب؟ ولكن ما من قرصان يقرّ بالذنب. إنها قضية غير مسبوقة».

- «نحر نقرّ أننا مذنبان، يا سيدي».

- «ولكن لماذا؟»

- «رآنا خمسون شخصاً أثناء العمل، يا سيدي. لماذا نضيع وقتك في إنكار ما سيقسم عليه خمسون إنساناً؟ كلا، نحن مستسلمان، يا

سيدي. نحن راضيان، بالعمل الأخير وبحياتنا، معاً». هصرت الذراع السلكية على الأسطوانة المدورة الصغيرة لقرصان.

جلس هنري صامتاً جداً بعض الوقت. ولكنه رفع عينيه المتعبتين أخيراً:

- «أحكم عليكما بالشنق».

- «الشنق، يا سيدي؟»

- «الشنق من الرقبة حتى الموت».

- «إنك تغيرت، يا سيدي».

تحرك السير هنري إلى أمام وتفحص السجينين عن كثب. ثم ابتسمت شفتاه. وقال بهدوء:

- «نعم، تغيرت. إن هنري مورغان الذي عرفتماه ليس السير هنري مورغان الذي يحكم عليكما بالموت. لم أعد أقتل بحماس، وإنما ببرود، ولأنني مضطر إلى ذلك». ورفع السير هنري صوته:

- «فليتم إخلاء المحكمة، ولكن تأكدوا من حراسة الأبواب! أريد أن أتكلم بشكل خصوصي مع السجينين».

وعندما انفرد بهما بدأ بالقول:

- «أعرف جيداً أنني تغيرت، ولكن خبراني ما التغيير الذي تريانه».

نظر البيرغنديان أحدهما إلى الآخر.

- «تكلم أنت، يا إميل».

- «لقد تغيرت، يا سيدي، على هذا النحو. كنت سابقاً تعرف ماذا تفعل. كنت واثقاً من نفسك». فقاطعه الآخر:

- «ذاك هو. إنك لاتعرف - إنك غير واثق من نفسك بعد. كنت ذات يوم إنساناً واحداً. من الممكن الثقة في إنسان واحد. ولكنك الآن بضعة أشخاص. لو أننا وثقنا بأحدكم، فسنبقى نخشى الآخرين».
فضحك السير هنري:
- «ذاك صحيح بهذا الشكل أو ذاك. ليس خطئي، ولكنه صحيح. إن التمدّن يشطر الشخصية. والذي يرفض الانشطار ينحدر إلى تحت».
فتمتم أنطوان بضراوة:
- «لقد نسينا المدنية، بسبب أمنا».
- «كم هو مؤسف شنقكما».
- «ولكن، أشنقنا ضروري إلى هذا الحد، يا سيدي؟ ألا يمكن أن نهرب، أو يتم العفو عنا؟»
- «كلا، يجب أن تشنقا. إنني آسف، ولكن هكذا ينبغي أن يكون. هكذا هو واجبي».
- «ولكن واجبك تجاه أصدقائك، يا سيدي - تجاه الرجال الذين حملوا السلاح معك، الذين مزجوا دماءهم بدمك -»
- «اسمع، أيها البيرغندي الآخر؛ ثمة نوعان من الواجب، ولابد أن تعرف ذلك إذا كنت تتذكر فرنساك. ذكرت جنساً واحداً، وهو النوع الأضعف. أما الثاني، الواجب الضخم - ذاك الذي لن يهمل - فيمكن أن يسمى واجب المظاهر. إنني لا أشنقكما لأنكما من القراصنة، وإنما لأنه ينتظر مني أن أشنق القراصنة. إنني آسف لكما. إنني أود أن أرسلكما إلى زنزانتيكما ومعكما مبارد في جيبيكما، ولكنني لا أستطيع. ما دمت أفعل ما ينتظر مني، سأبقى القاضي. وعندما أتبدل، فإنني ربما سأشنق أنا نفسي».

- «هو كذلك، يا سيدي. أتذكر». استدار إلى صديقه الذي كان يقف مرتجفاً في قبضة الفزع.

«أترى، هكذا هي القضية، يا إميل. إنه لايحب أن يخبرنا بهذا الأمر لأنه يؤلمه. ربما كان يعاقب نفسه بهذه الصورة على شيء فعله أو فشل في فعله. ربما كان يتذكر الشارغيس، يا إميل».

- «الشارغيس!»، وانحنى السير هنري إلى أمام بانفعال:

- «ماذا جرى عندما أبحرت مبتعداً؟ خبرني!»

- «لُعنت، يا سيدي، كما هو نصيب بعض الرجال أن يلعنوا. جرى تعذيبك في عقول الرجال. أقاموا ولائم على قلبك، وأرسلوا روحك إلى الجحيم. نادراً ما تمتعتُ بالمشهد، لأنني كنت أعرف أن كل رجل هناك كان يحسدك فيما هو يسبّك. كنت أفخر بك، يا سيدي».

- «وتبعثروا؟»

- «تبعثروا وماتوا، الأطفال الصغار المساكين».

- «على أيّ حال، كان لابد أن أكره مصادفة هؤلاء الأطفال الصغار المساكين! قل لي»، كان صوت السير هنري قد صار حزيناً:

- «خبرني عن پنما. لقد ذهبنا إلى هناك، ألم نذهب، وننهبها؟ وأنا الذي قدتكم، ألم يكن كذلك؟»

- «كان كذلك. كان قتالاً عظيماً، ومحيطاً من الأسلاب - ولكن، بعد كل شيء، إنك تعرف عن هذا الأخير خيراً مما نفعل».

- «أشك أحياناً في أن يكون هذا الجسد قد ذهب إلى پنما. أنا واثق أن هذا الدماغ لم يذهب. كان بودي أن أبقى وأتحدث معك عن ذلك الزمن الماضي، ولكن زوجتي تنتظرني. إنها ربما ستثير ضجة لو أنني تأخرت على الغداء». كان يتكلم مازحاً:

- «متى تحبان أن تشنقا؟»

كان البيرغنديان يتهامسان فيما بينهما.

- «آه، ها هي تلك الـ (تشنقان) مرة أخرى. متى نحب أن نشنق؟ في أي وقت كان، يا سيدي. لا نرغب في تسبيب الإزعاج لك، ولكن إن كنت تصر- متى ما كان ثمة رجل وحبل عاطلان». واقترب انطوان من المنضدة:

- «يود إميل أن يقدم تحية أخيرة. إنها هدية إلى زوجتك - هدية ليس بمقدور غير تاريخها وحده أن يجعلها ثمينة. لقد كنز إميل هذه الهدية حتى النهاية، ومن هذه التعويذة قد يجني حصادا - لأنه تعويذيّ، في الحقيقة، يا سيدي. ولكن إميل يظن أن فترة واجبها يجب أن تنتهي، يا سيدي. إنه يعتقد أنه بأخذ هذه الوسيلة يمكنه أن يوقف سلسلة الأحداث التي سالت من كنزه. ولن يكون لإميل، لسوء الحظ، أي استخدام آخر لها. إن إميل يقبّل يد الليدي مورغان - يقدم احتراماته وتحياته التوقيرية». وأسقط لؤلؤة وردية على المنضدة واستدار سريعاً مبتعداً.

بعد أن اقتيدا إلى الخارج، جلس السير هنري على مصطبته وحدق إلى اللؤلؤة. ثم وضعها في جيبه وسار إلى الشارع.

جاء إلى القصر الأبيض الخفيض الخاص بنائب الحاكم. كان كما تركه السير إدوارد تماماً. ما كانت الليدي مورغان لتشعر بشكل صحيح لو أن تفصيلاً ما قد تغير. قابلت هنري عند الباب.

- «سنتناول العشاء مع آل (ڤاون). وماذا عليّ أن أفعل بالحوذي؟ إنه سكران. لقد طلبت منك وطلبت أن تقفل حجرتك، ولكنك لا تلتفت

لي. لقد تسلل إلى البيت وأخذ زجاجة من رفك. لابد أنه فعل ذلك».

- «افتحي يدك، يا عزيزتي. عندي هدية لك».

نظرت هنيهةً إلى الكرة الوردية واحمرّ وجهها بهجةً، ولكنها فتشت وجهه بعدئذ بريبة.

- «ماذا كنت تخطط؟»

- «أخطط؟ عجباً، كنت أقيم محكمةً».

- «أشك أنك حصلت على هذه في المحكمة!» وأضاء وجهها.

- «أعرفك! لقد شككت في عدم ارتياحي من أعمالك ليلة أمس. لقد كنت ثملاً عملياً، لو كان لابد أن تعرف الحقيقة؛ وكان الناس كلهم يحدقون إليك ويتهامسون. لاتقل كلمة. رأيتهم ورأيتك. وتريد الآن أن ترشو مشاعري - احتشامي».

- «ارتبت في عدم ارتياحك! عزيزتي، لقد شككت في ذلك طوال الطريق معك إلى البيت، وتقريباً طوال الليل بعد أن وصلت إلى هنا. إنك على حق. لقد شككت بعدم ارتياحك بشدة. كنت متأكداً منه، في الحقيقة. ولكنني سأخبرك بالحقيقة عن اللؤلؤة».

- «لن تقول الحقيقة إلا لأنك تعرف أنه ليس بإمكانك أن تخدعني، يا هنري. متى ستتخلى عن الفكرة القائلة إنني لا أعرف كل فكرة صغيرة تمتلكها؟»

- «ولكنني لن أحاول أن أخدعك، لم تعطني وقتاً لذلك».

- «لن يستغرق قول الحقيقة وقتاً أطول من...»

- «اصغي إليّ، يا إليزابث، أرجوك. لقد حاكمت قرصانين هذا الصباح وأعطياني إياها».

فابتسمت ابتسامة تفوقٍ.

- «أعطياك إياها؟ لماذا؟ هل أطلقت سراحهما؟ سيكون شبيهاً بأفعالك أن تطلقهما. أفكر أحياناً أنك كنت ستبقى واحداً منهم لولاي. يبدو أنك لاتدرك أبداً، يا هنري، أنني أنا في الواقع من صنعت منك ما أنت عليه - فارساً وسيداً محترماً. أنت جعلت نفسك قرصاناً. ولكن خبرني، هل أطلقت هذين القرصانين؟»

- «كلا، حكمت عليهما بالموت».

- «آه! لماذا أعطياك إذن اللؤلؤة؟»

- «يا عزيزتي، أعطياني إياها لأنه لاشيء آخر عندهما يفعلانه بها. ربما كانا سيقدمانها إلى الجلاد، ولكن المرء يمكن أن يحس عدم ثقة بالنفس قليلاً من إعطاء لآلئ إلى الرجل الذي يضع حبلاً حول عنقه. إن الصداقة غير ممكنة مع شانق المرء، فيما أتصور. وهكذا، أعطياني إياها، وأنا -»، وابتسم عريضاً وببراءة: «أنا أعطيك إياها لأنني أحبك».

- «حسناً، يمكنني بيسر أن أعرف بشأن القرصانين، أما عن محبتك - إنك تحبني مادمت أراقبك، وليس بعد ذلك. إنني أعرفك بشكل كامل. ولكنني سعيدة لكونهما يشنقان. يقول اللورد ڤاون إنهم خطر مبرم حتى علينا. يقول إنهم قد يكفّون عن محاربة أسبانيا في أي لحظة ويبدؤون علينا. يقول إنهم مثل كلاب مسعورة، ينبغي إبادتهم بأسرع ما يمكن. إنني أشعر أكثر أمناً نوعاً ما كلما أزيل أحدهم من الطريق».

- «ولكن، يا عزيزتي، لايعرف اللورد ڤاون أي شيء عن القراصنة، في حين أنني -».

- «يا هنري، لماذا تبقيني هنا بكلامك، عندما تعرف أن عندي ألف أمر ينبغي أن أهتم به. إنك تتصور، لأن عندك كل وقت الدنيا، أن بمقدوري أن أتركك تعبث. الآن اهتم بأمر الحوذي، لأنني سأكون محرجة جداً لو لم يكن جاهزاً. لن تناسب بزته (جاكوب) مهما ضغطناه. هل أخبرتك أنه سكران؟ اجعله يصحو لمنتصف الليلة حتى لو تعين عليك أن تغرقه من أجل ذلك. هيا الآن وأسرع. لن أحسني على ما يرام حتى أعرف أن بمقدوره أن يجلس مستقيماً». واستدارت لتدخل البيت مجدداً، ثم عادت وقبلته على خده. وقالت:

- «إنها حقاً لؤلؤة لطيفة، يا عزيزي. بالطبع، سأجعل المسيو (بانزه) يثمنها. بعدما قاله اللورد ڤاون، صارت ثقتي بالقراصنة قليلة. ربما كانوا يحاولون رشوتك بزجاجة براقة، وليس لك أن تعرف الفرق قط».

سار السير هنري نحو الاصطبلات. الآن، كما في حالات أخرى، كان قد استشير قليلاً بالارتباك. بين آنٍ وآخر كان يأتي شعور تائه بأن إليزابث، رغم كل خطاباتها عن أنها تعرفه تماماً، ربما كانت تعرفه حقاً. كان ذلك مربكاً.

-٤-

كان السير هنري مورغان متمدداً في سرير هائل؛ سرير من العرض بحيث أن جسده كان يبدو، تحت الغطاء، مثل سلسلة جبال مغطاة بالثلج تقسم سهلين كبيرين. ومن الجدران المحيطة بالغرفة كان عيون أسلافه البراقة تتأمله. كانت على وجوههم ابتسامات متكلفة تقول:

- «آه، نعم! فارس، بالتأكيد - ولكننا نعرف كيف اشتريت لقب فارس». كان الهواء في الغرفة ثقيلاً وغليظاً وحاراً. هكذا يبدو الهواء دائماً في غرفة يوشك الإنسان أن يموت فيها.

كان السير هنري يحدق إلى السقف. لمدة ساعة بقي محتاراً بالسقف الغامض. لاشيء كان يسنده في المنتصف. فلماذا لايقع؟ كان الوقت متأخراً. كان كل من حوله صامتاً، ذهبوا منسلين متظاهرين بأنهم أشباح، كما تصور. كانوا يحاولو ن أن يقنعوه بأنه كان ميتاً سلفاً. أغمض عينيه. كان متعباً جداً، أو عديم الاهتمام جداً، بحيث لا يبقيهما مفتوحتين. سمع الطبيب يدخل، وأحس به يقرأ النبض ثم دوّى الصوت الواثق الضخم:

- «إنني آسف، يا ليدي مورغان. ليس ثمة ما يمكن فعله الآن. إنني لا أدري حتى ما به. ربما، حمى غابات قديمة ما. يمكنني أن أفصده

مرة أخرى، كما أتصور، ولكننا قد أخذنا كمية كبيرة من الدم مقدماً، ولايبدو أن ذلك كان مفيداً. على أي حال، لو أنه بدأ يتدهور، فسأحاول ذلك مرة أخرى».

فسألت الليدي مورغان:

- «إذن فسيموت؟»، وفكر هنري في أنها أظهرت فضولاً أكثر من الأسف.

- «نعم، سيموت ما لم يتدخل الله. الله وحده يمكنه أن يكون واثقاً بصدد مرضاه».

ثم أخليت الغرفة من الناس. كان هنري يدري أن زوجته تجلس قرب السرير. كان يمكنه أن يسمعها تبكي برقة إلى جانبه. ففكر:

- «كم هو مؤسف أنني لا أستطيع أن أذهب إلى الموت في سفينة بحيث يكون بمقدورها أن تحزم لي حقيبة. سيتحقق لها كثير من الرضا إذ تعرف أنني أدخل السماء ومعي تجهيزات مشرفة من البياضات».

- «أوه، زوجي - أوه، هنري، يا زوجي».

أدار رأسه ونظر إليها بفضول، وتوغلت نظرته عميقاً إلى عينيها. وفجأة تملكه القنوط. قال لنفسه:

- «هذه المرأة تحبني. هذه المرأة تحبني، ولم أعرف بذلك قط. ليس بمقدوري أن أعرف هذا النوع من الحب. عيناها - عيناها - هذا شيء يقع بعيداً جداً عن إدراكي. أيمكن أن تكون أحبتني دائماً؟»، ونظر ثانية: «إنها قريبة جداً إلى الله. أظن النساء أقرب إلى الله من الرجال. لا يمكنهن الحديث عن ذلك، ولكن، ياللمسيح! كيف يسطع ذلك في عيونهن. وهي تحبني. خلال كل تهديداتها ومضايقاتها وإرهابها إياي

بالعبوس، كانت تحبني - ولم أعرف بذلك قط. ولكن ما الذي كنت سأفعله لو أنني عرفت؟»، واستدار بعيداً. كان هذا الأسف كبيراً جداً وبالغ الحرقة والترويع بحيث لايمكن التفكير فيه. إنه لمرعب رؤية روح امرأة تشعّ خلال عينيها.

إذن فهو مائت. كان مفرحاً بالأحرى لو كان الموت كهذا. كان دافئاً ومتعباً جداً. سيروح، آنياً، في نوم عميق، وسيكون ذاك هو الموت - الأخ الموت.

عرف أن شخصاً آخر دخل الغرفة. مالت زوجته عليه حتى جاءت إلى مدى نظره المحدق إلى فوق. كانت ستنزعج لو أنها تعرف بأن بمقدوره أن يدير رأسه إن أراد. قالت زوجته:

- «الكاهن، يا عزيزي. أرجوك كن لطيفاً معه. أوه، أرجوك استمع له! قد يساعدك ذلك - بعد كل شيء».

آه، لقد كانت عملية! كانت ستتأكد من إجراء اتفاق ما مع سبحانه لو استطاعت. كان تعلقها أمراً كافياً، ولكن حبها - ذاك الذي يتألق في عينيها النديتين - كان مرعباً.

أحس هنري يداً ناعمة دافئة تأخذ يده. كان صوت مهدئ يكلمه. ولكن كان الاستماع صعباً. كان السقف يتمايل بشكل خطر. كان الصوت يقول:

- «الله محبة. يجب أن تضع ثقتك في الله».

فكرر هنري بميكانيكية:

- «الله محبة». وقال الصوت:

- «لنصلِّ».

تذكر هنري فجأة لحظة من طفولته. كان ألم أذن يعذبه، وكانت أمه تحتضنه بين ذراعيها. كانت تربت على معصمه برؤوس أصابعها. كانت تقول:

- «هذا كله هراء. الله محبة. إنه لن يترك الأطفال الصغار يتألمون. الآن كرر ورائي - [الرب راعيّ. لن أكون محتاجاً]». كان الأمر كما لو أنها تتولى وضع دواء. بالنبرة ذاتها كانت ستأمر: [تعال، خذ هذا الزيت!].

أحسّ هنري أصابع الكاهن الدافئة تزحف إلى معصمه وتبدأ حركة تربيت.

- «[الرب راعيّ. لن أكون محتاجاً]»، دندن هنري بنعاس. «[يحملني على التمدد في مراع خضراء -]». وتواصل التربيت، ولكن أكثر شدة. أخذ صوت الكاهن يصير أعلى وأكثر سلطة. كان كما لو أن الكنيسة، بعد سنوات من الانتظار الصبور، قد وضعت هنري مورغان داخل سطوتها. كان ثمة شيء يكاد يكون باعثاً على الارتياح بشأن الصوت.

- «هل تبت عن خطاياك، يا سير هنري؟»

- «خطاياي؟ كلا، إنني لم أفكر بها. هل ينبغي أن أتوب عن پنما؟»

كان الكاهن مرتبكاً:

- «حسناً، لقد كانت پنما نصراً وطنياً. وافق عليها الملك. وإضافة إلى ذلك، فقد كان الناس پاپويين». فواصل هنري:

- «ولكن، ما هي خطاياي، إذن؟ إنني لا أتذكر إلا الأبهج والأكثر

إيلاماً منها. سيكون مثل تحطيم الإيمان بها؛ لقد كانت ساحرة. والخطايا المؤلمة تحمل معها كفّارات مثل سكاكين مخيفة. كيف يمكن أن أتوب، يا سيدي. ربما عليّ أن أستعيد حياتي كلها، مسمياً كل عمل وتائباً عنه، من رمي خاتم تسنيني الأول حتى آخر زيارة لي إلى ماخور. قد أتوب عن كل شيء يمكنني أن أتذكره، ولكنني لو نسيت خطيئة واحدة، فستخيب العملية كلها».

- «هل تبت عن خطاياك، يا سير هنري؟»

أدرك، عندئذٍ، أنه لم يكن يتكلم على الإطلاق. كان الكلام صعباً. كان لسانه قد صار كسولاً وبطيئاً. وقال:

- «كلا. لا أستطيع أن أتذكرها جيداً».

- «ينبغي أن تفتش في قلبك عن الطمع والشهوة والبغض. ينبغي أن تطرد الشر من قلبك».

- «ولكنني، يا سيدي، لا أتذكر أنني كنت شريراً عن وعي. لقد فعلت أشياء بدت شريرة بعد ذلك، ولكن فيما كنت أفعلها كنت أتطلع دائماً إلى نتيجة فاضلة نوعاً ما». ومرة أخرى كان يعي أنه لايتكلم. قال الصوت:

- «فلنصلِّ».

قام هنري بجهد عنيف بلسانه، وصرخ:

- «كلا».

- «ولكنك صليت قبلا».

- «نعم، صليت قبلا - لأن أمي كانت تحب ذلك. كانت تريدني أن أصلي ولو مرة واحدة في الأقل، كدليل على تدريبها لي أكثر منه لأي

سبب آخر، إعادة تأكيد لها أنها قامت بواجبها نحوي».

- «أتموت هرطوقاً، يا سير هنري؟ أفلا تخشى الموت؟»

- «إنني تعب جداً، يا سيدي، أو كسل جداً، لأتأمل قضايا الهرطقة. كما أنني لا أخشى الموت. لقد رأيت عنفاً كثيراً، وما من رجل أحببته كان يخشى الموت، وإنما الاحتضار. فأنت ترى، يا سيدي، أن الموت مسألة فكرية، ولكن الاحتضار ألم خالص. وموتي هذا سعيد جداً إلى الآن. كلا، يا سيدي؛ لست خائفاً حتى من الاحتضار. إنه مريح، وسيكون هادئاً لو أمكن تركي وحيداً. إنه يشبه أن أنام بعد مجهود عظيم».

سمع صوت الكاهن ثانيةً؛ ولكن، مع أن اليد الدافئة كانت لاتزال تربت على معصمه، الصوت كان يأتي من بعد كبير.

كان الكاهن يقول:

- «إنه لن يجيبني. إنني متحير بشأن روحه».

ثم سمع زوجته تتحدث إليه.

- «يجب أن تصلي، يا عزيزي. الجميع يصلون. كيف تذهب إلى الجنة إن لم تصلّ؟»

ها هي مرة أخرى، عازمة على عقد اتفاق مع الله. ولكن هنري لم يكن يريد أن ينظر إليها. مع أن فلسفتها كانت ساذجة، إلا أن عينيها كانتا بعمق السماء اللامحدودة وحزنها. أراد أن يقول: «لن أريد الذهاب إلى الجنة عندما أموت. لن أريدهم أن يقلقوني». إنهم ليقومون بتمرد كهذا على هذا الموت.

كان الطبيب قد عاد إلى الغرفة. فأعلن الصوت المدوي:

- «إنه فاقد الوعي. أظنني سأفصده مرة أخرى».

أحس هنري المبضع يجرح في ذراعه. كان مريحاً. كان يرجو أن يجرحوه مرة أخرى وأخرى. ولكن الوهم كان متناقضاً. فبدل أن يحس الدم يغادره، أحس دفئاً غريباً ينساب خلال جسده. استشعر وخزاً خفيفاً في صدره وذراعيه كما لو أن نبيذاً عتيقاً قوياً كان يغني في عروقه.

بدأ تغيير غريب يحدث الآن. وجد أن بمقدوره أن يرى من خلال جفونه، يمكنه أن يرى كل ما حوله دون أن يحرك رأسه. كان الطبيب وزوجته والكاهن وحتى الغرفة تنزلق مبتعدين عنه. فكر:

- «إنهم يتحركون. أنا لا أتحرك. أنا مثبَّت. أنا مركز كل الأشياء ولا يمكنني أن أتحرك. إنني بثقل الكون. ربما كنت أنا الكون».

كانت نغمة خفيضة، عذبة، تتدفق إلى وعيه؛ نغمة أرغن ثرية عارمة النشاط، ملأته، بدا أنها تنبعث من ذهنه، لتغمر جسده، ومنه تمور على العالم. كان يتمدد في كهف معتم لايقاس كانت على امتداد جوانبه صفوف من أعمدة خفيضة غليظة سميكة مصنوعة من بلور ما، أخضر براق. كان لايزال في وضعية تمدد، وكان الكهف الطويل ينزلق عبره. فجأة، توقفت الحركة. كان محوطاً بكائنات غريبة، لها أجساد أطفال، ورؤوس ثقيلة، بصلية، ولكن لا وجوه لهم. كان اللحم، حيث ينبغي أن تكون وجوههم، صلداً ومنتظماً. كانت هذه المخلوقات تتكلم وتهذر بأصوات خشنة، جافة. كان هنري متحيراً كيف يمكنها أن تتكلم بلا أفواه.

ببطء تكونت عنده معرفة أن هذه كانت أفعاله وأفكاره التي كانت تعيش مع **الأخ الموت**. كانت كل واحدة منها قد مضت مباشرة لتعيش مع

الأخ الموت ما أن ولدت. وعندما عرف هويتها، كانت المخلوقات الصغيرة عديمة الوجوه تستدير نحوه وتتعنقد كثيفة حول أريكته. صرخ أحدها:

- «لم فعلتني؟»
- «لا أدري، إنني لا أتذكرك».
- «لم فكرتني؟»
- «لا أدري. لابد أنني كنت أدري، ولكنني نسيت. إن ذاكرتي تنسل مبتعدة عنيّ هنا في هذا النفق».

كانت لاتزال تستجوبه بإلحاح، وأصواتها تزداد صريراً وخشونة، بحيث أنها سحقت النغم العظيم.

- «أنا! أجبني!»
- «لا؛ أنا!» فقال هنري بضجر:
- «أوه، اتركوني! دعوني أرتاح. أنا متعب، ولايمكنني أن أخبركم شيئاً على أي حال».

ثم رأى أن المخلوقات الصغيرة كانت تربض أمام شكل متقدم. استدارت نحو الشكل وانكمشت، وأخيراً سقطت على ركبها أمامه ورفعت أذرعاً مرتجفة في إشارات ابتهال.

وجه هنري انتباهه نحو الشكل. عجباً، كانت إليزابث تتقدم إليه - إليزابث الصغيرة، بشعر ذهبي ونظرة فتية عاقلة على وجهها. كانت مزنّرة بنباتات زينة، وكانت عيناها متحيرتين وبراقتين بشكل غريب. بإجفالةِ مفاجأة صغيرة لاحظت هنري. قالت:

- «أنا إليزابث. لم تأت لرؤيتي قبل أن ترحل».
- «أعلم. أظنني كنت أخشى الحديث معك. ولكنني وقفت في

الظلمة أمام نافذتك، وصفرت». فابتسمت نحوه بسرور:

- «أفعلت؟ كان ذلك لطيفاً منك. ومع ذلك، لايمكنني أن أفهم لماذا يتعين عليك أن تخافني - تخاف فتاة بهذا الصغر. كان ذلك حماقة منك». فقال:

- «لا أدري لماذا، هربت. كانت تحركني قوة منسابة من كل العوالم. إن ذكرياتي تتركني الواحدة تلو الأخرى مثل مستوطنة بجع عجائز تطير مبتعدة إلى جزيرة منعزلة ما في البحر لتموت. ولكنك صرت أميرة، ألم تصيري؟»، كان يسأل بلهفة.

- «نعم، ربما صرت. أرجو أن أكون صرت. أنا أيضاً نسيت. قل لي، هل وقفت هناك حقاً في الظلام؟»

- «لا أدري. ربما كنت أظن فقط أنني فعلت». ونظر إلى إليزابث. ولكنها كانت، هي أيضاً، قد اختفت. في مكانها كان ثمة جذوة حارقة حمراء، وكان الضياء يموت خارجاً منها.

- «انتظري، يا إليزابث - انتظري. خبريني أين أبي. أريد أن أرى أبي».

أجابته الجذوة الميتة:

- «إن أباك ميت سعيداً. كان خائفاً من اختبار حتى الموت».

- «ولكن ميرلين، إذن - أين ميرلين؟ لو أمكنني العثور عليه فقط».

- «ميرلين؟ ينبغي أن تعلم بشأنه. إن ميرلين يرعى الأحلام في أفالون».

خرجت النار من الجذوة بحركة خاطفة صلبة جافة. لم يكن ثمة ضوء في أي مكان. ولهنيهةٍ، كان هنري يعي الخفق الرخيم، العميق **للنغمة**.

تنويه

جرت الاستفادة من قاموس وموسوعة المورد أكثر من غيرهما في ترجمة هذه الرواية، مما اقتضى تثبيت التقدير لمؤلفهما الراحل منير البعلبكي، والإشارة إلى الأمر.

جون شتاينبك

نوبل ١٩٦٢

- ولد جون إرنست شتاينبك John Ernest Steinbeck في كاليفورنيا سنة ١٩٠٢.
- وكانت «كأس من ذهب» أولى رواياته، فقد صدرت سنة ١٩٢٩. وفيها تجلت سماته الفكرية التي لازمته زمناً طويلاً: كره الظلم والإعجاب بالفقراء والتزام جانب الضعفاء والمهمشين. كما تجلى فيها أسلوبه بطابعه الذي لازمه حتى آخر أعماله: الواقعية الاجتماعية، المطعّمة بنَفَس غنائي.
- لم تضف أعماله التي تلت «كأس من ذهب» مباشرة إلى إنجازه فيها، الكثير، حتى صدرت له «سهل تورتيلا» Tortella Flat ففتحت له باب الشهرة الحقيقي وأكدت مكانته في الأدب الأميركي الحديث.
- أصدر عدداً من الروايات، التي تميزت من بينها «عناقيد الغضب» ١٩٣٩ إذ أنها شكلت قمة إبداعه.
- ترجمت إلى العربية رواياته of Mice and Men باسم «فئران ورجال»، و The pearl «اللؤلؤة» و «أفول القمر» The Moon is Down، ومجموعته القصصية «مراعي السماء».
- لم يستطع الصمود أمام ضغط المكارثية والجو الذي ساد بعدها مما اضطره إلى المداراة في أواخر حياته.
- كان منحه جائزة نوبل سنة ١٩٦٢ تقديراً للمجد الذي حققته له أعماله القديمة وخاصة «عناقيد الغضب».
- توفي عام ١٩٦٨.

علي مولا


ISBN:2-84305-672-X
9 782843 056727